السيرة النبوية



خديجة بنت خويلد

عبد الحميد جوده السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

(قران كريم)

١

هطلت الأمطار على نجد فكست صحراءها ورودا ناعمة صفراء طيبة الأريج ، فتضوعت الرياح بالنسيم الطيب وهبت النفحات فى رياضها وأينعت ثمارها ، فطاب العيش وراح الناس يجتمعون فى رونق الضحى وفى فحمة الليل يتجاذبون أطراف الحديث ، فقد أقبل الربيع وتفتحت النفوس تفتح الزهور .

وارتدى جبل الشرى ثوبا أخضر يسر الناطرين ، وعلى سفحه وعند أقدامه امتدت ديار طىء ، وفى ليلة اكتمل فيها القمر بدراً اجتمع فى دار من هذه الدور حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرىء القيس القضاعى وإخوته وبعض رجال القبيلة يتحاورون وينشدون أشعار شعرائهم وشعراء عبس وذبيان وقيس عيلان ، فقد كانت تلك القبائل جيرانهم تقع مثلهم فى السافلة ، وهى ما ولى العراق من نجد .

وفى مكان منزو من الدار جلست سُعدى بنت ثعلبة زوجة حارثة تصغى إلى حديث الرجال ، وكان إلى جوارها ابنها زيد وكان غلاما يَفَعة قد بلغ العاشرة من عمره ، وكان شديد الأدمة أفطس الأنف ولكن النفوس تهوى إليه ، فقد كان أبوه يكن له حبا يزيد على حبه لابنه الأكبر جبلة ، وكانت أمه تحبه حبا يفوق حبها لابنها يزيد بن كعب ، فقد كانت سعدى عند كعب بن شراحيل قبل أن تتزوج حارثة .

كان حاتم الطائى قد صار أنشودة يشدو بها الرواة فى ربوع نجد ، فقال قائل منهم :

ـ إن حاتما جواد يشبه جوده شعره ، وهو مظفر إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإن ضرب بالقداح فاز ، وإذا أسر أطلق ، لقد صار بجوده سيداً من أشرف ساداتنا .

فقال آخر :

ـ أتذكر شعره الذى يخاطب به امرأته ماوية بنت عبد الله الذى يقول فيه :

أيـا بنـة عبـد الله وابنـة مـالك
ويا بنة ذى البردين والفرس الورد [١] .

ـ أذكره وقد رويته بالأمس لما كنا نسمر عند زيد الخيل .

وشرد ببصره قليلا ثم راح ينشد :

أيـا بنـة عبـد الله وابنـة مـالك
ويا بنة ذى البردين والفرس الـورد[١]

إذا ما صنعت الـزاد فـالتمسى لـه
أكيـلا فـإنى لست آكلـه وحـدى

أخـا طارقـا أو جـار بـيت فإننـى
أخاف مذاعات الأحاديث من بعـدى

وإنى لعبـد الضيـف مـا دام ثاويـا
ومـا فتى إلا تـلك من شيمـة العبـد

ـ ومن يقصد بذى البردين ؟

ـ عامر بن أحيمر بن بهدلة جد ماوية ، وكان من حديث البردين حين لقب به

---

(١) الورد من الخيل بين الكميت والأشقر .

أن الوفود اجتمعت بالحيرة عند المنذر أبي النعمان ، وأخرج المنذر بردين يوما يبلو الوفود وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما .

فقام عامر بن أحيمر فأخذهما وائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر فقال له المنذر : أأنت أعز العرب قبيلة ؟ قال : العز والعدد فى معد ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى خندف ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب ثم فى عوف ثم فى بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافرنى .

فسكت الناس ، فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى أهل بيتك وفى نفسك ؟ فقال : أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، وأما أنا فى نفسى فشاهد العز شاهدى .

ثم وضع قدمه على الأرض فقال : من أزالها عن مكانها فله مائة من الإبل . فلم يقم إليه أحد من الحاضرين ففاز بالبردتين .

ــ سمعت ماوية تحدث أن الناس أصابتهم سنة فأذهبت الخف والظلف ، قالت : فبتنا ذات ليلة بأشد الجوع ، فأخذ حاتم عَديا وأخذت سفّانة فعللناهما حتى ناما ، ثم أخذ يعللنى بالحديث لأنام ، فرققت لما به من الجهد فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أنى نائمة ، فقال لى : أنمت ؟ مرارا فلم أجبه ، فسكت ونظر من وراء الخباء فإذا شىء قد أقبل فرفع رأسه فإذا امرأة تقول :

ــ يا أبا سفّانة قد أتيتك من عند صبية جياع .

فقال :

ــ أحضرى صبيانك فوالله لأشبعنهم .

فقمت سريعا فقلت :

ــ بماذا يا حاتم فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل ؟ .

فقام إلى فرسه فذبحه ، ثم أجَّج نارا ورفع إليها شَفْره وقال :

ـــ اشتوى وكلى وأطعمى ولدك .

وقال لى :

ـــ أيقظى صبييك .

فأيقظتهما ثم قال :

ـــ والله إن هذا للؤم أن تأكلوا وأهل الصِرم (أبيات من الناس) حالهم كحالكم .

فجعل يأتى الصرم بيتا بيتا ويقول :

ـــ عليكم النار .

فاجتمعوا وأكلوا ، وتقنع بكسائه وقعد ناحية حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير و لم يذق منه شيئا .

فقال قائل منهم :

ـــ والله إن أمر ماوية لغريب ، تلومه على كرمه مرة وتفجر بذلك الكرم مرات .

ـــ إنه يروم الذكر وهى تروم الحياة ، وهو يعرف ذلك حق المعرفة فهو يقول لها :

وعاذلــة قــامت علــىّ تلومنــى
كــأنى إذا أعطـيت مــالى أضيمُهــا

أعــاذل إن الجود لــيس بمُهلكــى
ولا مُخلـد النـفس الشحيحـة لؤمهـا

وتُذْكَــر أخــلاق الفتــى وعظامــه
مُغَيَّــبةٌ فى اللحــد بــاد رميمهــا

ومن يبتدع ما ليس من خِيم نفسه

يَدعْه ويغلبه على النفس خيمها [(١)]

والتفت الحارثة بن شراحيل إلى أخيه وقال :

ـــ قلت إنك كنت تسمر بالأمس عند زيد الخيل ، فما أخبار زيد ؟

ـــ كان مِزيَد ، وهو رجل من بني أسد ، يتمنى أن يلقى زيدا .

ـــ وماذا فعل به زيد الخيل ؟

ـــ ما فعله بجابر الغطفاني ، فقد كان جابر يتمنى أن يلقى زيدا حتى صبحه زيد . فقالت له نويرية امرأته : كنت تتمنى زيدا فعندك .

فالتقيا فاختلفا طعنتين وهما دارعان ، فاندق رمح جابر ولم يغن شيئا ، وطعنه زيد برمح له وكان على كعب من كعابه ضبة من حديد ، فانقلب ظهرا لبطن وانكسر ظهره ، فقالت امرأته وهي ترفعه منكسرا ظهره : كنت تتمنى زيدا فلاقيت أخا ثقة .

وقال زيد :

تمنى مِزيَدٌ زيدا فلاق

أخا ثقة إذا اختلف العوالى

كمنية جابر إذ قال : ليتى

أصادفه وأتلف بعض مالى

تلاقينا فما كنا سواءً

ولكن خر عن حال لحال

---

(١) الخيم : الطبيعة والخلق .

ولـولا قولـه يـا زيـد قَـدْنى (١)
لقـد قـامت نويـرة بـالمآلى (٢)
شكـكت ثيابـه لما التقينـا
بمطـرد المهـزة كالخلال

فقال حارثة وهو يبتسم :

ــ أين صناديد أسد وذبيان من فارس طيء ؟ إن زيد الخيل يركب الفرس العظيم الطويل فتخط رجلاه فى الأرض كأنه راكب حمارا .

كان زيد بن حارثة إلى جوار أمه سُعدى يصغى إلى حديث الرجال ، فلما تحدث أبوه عن زيد الخيل ثار فى رأسه سؤال ، فقام إلى حيث كان حارثة ، فلما رآه بش له وأفسح له مكانا إلى جواره ، وقبل أن يستقر زيد فى مجلسه قال :

ــ لماذا يا أبت سمى زيد بزيد الخيل ؟

ــ لأن له خمسة أفراس لا يشق لها غبار ، إنه تكنَّى أبا مكنف ولكن زيد الخيل غلبت عليه .

ــ ولماذا لم يكن أبا الحارث ؟

ــ لأن مكنفا أكبر من الحارث .

وفهم زيد بن حارثة لماذا يكنى حارثة بن شراحيل أبا جبلة ولا يكنى أبا زيد ، فجبلة أكبر منه ، والرجل يكنى بـأكبر أولاده . وشرد زيد بن حارثة يفكر بماذا سيكنى ، كانت أحلامه مجنحة فكـان يتخيل نفسه مرة جوادا مثل حاتم الطائى يكنى مثله « أبا سفَّانة » ويطير اسمه فى القبائل كما طار اسم حاتم ، وكان يتمنى مرة أخرى

---

(١) قدنى : كفانى .

(٢) المآلى جمع مئلاة ، وهى الخرقة التى تكون مع النائحة تأخذ بها الدمع .

أن يكون فارسا كزيد الخيل يروى الرواة مغامراته فى إكبار ، ولكن ذلك الحلم قد تبخر فقد كان زيد الخيل شاعرا محسنا خطيبا لسنا شجاعا كريما طويلا جسيما حسن القامة مهيبا ، بينما هو أسمر أفطس الأنف . ولم يدر بخلد زيد أن القدر يخبىء له مجدا يفوق أمجاد حاتم وزيد الخيل والنابغة الذبيانى وعنترة العبسى وفرسان نجد وأجوادها . بل وفرسان العرب وأجوادهم وكل من طار له منهم ذكر .

ترى لو قيل لهؤلاء الذين اجتمعوا فى دار حارثة بن شراحيل يروون أمجاد بنى طيء أن اسم زيد ، ذلك الغلام اليفعة الذى يقف على أعتاب العاشرة من عمره ، سينزل به الوحى من فوق سموات سبع ، وأن اسمه سيخلد ما بقيت السموات والأرض ، كان فيهم من يصدق مثل ذلك القول ؟

وانفض السامر ودخل أهل البيت وأسلموا جنوبهم للرقاد ، وما أصبح الصباح حتى خرج حارثة بن شراحيل يسعى فى الأرض ، فألفى بعض الطير على أفنان الشجر فزجرها ليرى أتنطلق يمينا أو يسارا ليستطلع حظه فى يومه ، وكان العرب تختلف فى التيمن بالسانح والتشاؤم بالبارح ، وكان أهل نجد يتيمنون بالسانح ، فلما أخذ الطير طريقه تمثل حارثة بقول النابغة وهو مثله من نجد :

زعم البوارح أن رحلتنا غدا

وبذاك تنعاب الغراب الأسود

وخرجت سُعدى وابنها زيد لتزور قومها من بنى معن من طيىء ، وما كادت تستقر فى دار أهلها حتى أغارت خيل لبنى القَين بن جِسْر على أبيات بنى معن ، فدب الذعر فى الدور وولولت النساء ورحن يهرولن هنا وهناك ، وحاولت سُعدى أن تهرب بابنها ولكن أين المفر ؟ إنها انزوت بعيدا عن العيون

وراح زيد يعدو ليلحق بها، ولكن رجال بنى القَيْن أبصروه فاحتملوه فيمن حملوا من نساء وغلمان.

وساد أبيات بنى معن حزن ووجوم بعد أن ذهب بنو القين بالأحبة وفلذات الأكباد ، وراحت سُعدى تعدو هنا وهناك وهى تنادى فى وله وانزعاج :

— زيد .. زيد .

وما من مجيب . فأحست كأن كبدها تكاد أن تتصدع أسى ، وأن الدموع قد تحجرت فى عينيها ، وأن حسك الأرض قد سد حلقومها ، فلما دب اليأس فى فؤادها عادت إلى ديار زوجها وهى تجر نفسها جرا ، وهى تكاد تغيب عن الوجود .

وهرعت النسوة إليها يسألنها فى لهفة :

— أين زيد ؟

فراحت تقص قصتها وعبراتها تغسل وجهها الحزين،وعاد حارثة وسمع بالنبأ الفاجع فلم يقو على ضبط عواطفه وطفرت من مآقيه الدموع ، ولم يقل كما قال يعقوب : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ، فما كان من أولى العزم المؤمنين ، وما كان النور قد أشرق بعد فى صدره بل قال :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أحى يرجَّى أم أتى دونه الأجلْ
فوالله ما أدرى وإن كنت سائلا
أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فياليت شعرى هل لك الدهر رجعة
فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل[1]

---

(١) بجل : بأمر عظيم

تذكرنيه الشمس عند طلوعها
وتعرض ذكراه إذا غربُها أفَلْ
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره
فيا طول ما حزنى عليه وما وجُل
سأعمل نص[1] العيس فى الأرض جاهدا
ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتىَ أو تأتى علىّ منيتى
وكل امرىء فان وإن غرّه الأمل
وأوصى به عمرا وقيسا كليهما
وأوصى يزيدا ثم من بعدما جبل

٢

تزوج العباس ، وتزوج حمزة وصار أبا عمارة ، وتزوج أبو بكر وأنجب أسماء ، ولم يتزوج محمد بن عبد الله وقد تجاوز العشرين من عمره ، ولم يكن ذلك مألوفا فى العرب فما الذى منعه من أن يتزوج ؟ أوَ لم يكن معه ما يتزوج به ؟ إن سادات بنى هاشم كانوا يفعمون بالفرح لو أن ابن عبد الله تقدم ليخطب إحدى عقيلاتهم ، وفتيات بنى هاشم كن يحلمن بالأمين الذى انتشر أريج طهارته فى قبائل قريش ، ولو أنه تقدم لبنى أمية يطلب إحدى بناتهم لرحبوا به كما رحبوا بعمه أبى لهب من قبل ، فقد تزوج أبو لهب أم جميل ابنة حرب بن أمية وأخت أبى سفيان بن حرب ، فأشراف

---

(١) النص : أرفع السير .

أمية تنتفخ أوداجهم زهوا كلما صاهروا بنى هاشم ، فقد كان الشرف حليف ذلك الحى وإن حاول بنو أمية أن ينتزعوه منهم .

ولو تقدم إلى بنى أسد ليتزوج لزوجوه عن طيب خاطر ، فالعوام بن خويلد قد تزوج عمته لشرفها فى قومها ، وكان ورقة بن نوفل يزكيه فهو معجب به وبما اشتهر عنه من عزوفه عن دين قومه وإعراضه عن لهوهم وعبثهم وحبه للعزلة والتأمل والتدبر وتقليب وجهه فى السماء .

ولو تقدم إلى بنى تيم يلتمس زوجة لطار أبو بكر فرحا ، فهو صديقه الذى لا يفارقه والذى يزداد حبه له على مر الأيام ، إنه معجب بقدرته على كبح جماح عواطفه وبصدقه وأمانته وشجاعته فى إبداء رأيه ، فهو إذا ما طلب إليه أن يحلف باللات والعزى فى الحرم أو فى الأسواق يقول دون أن تختلج عيناه : إنى لم أحلف بهما قط .

إنه صادق فى تجارته ، صادق فى صداقته ، صادق فى قوله ، صادق فى جيرته ، صادق فى عزلته ، صادق فى علاقته بقومه ، صادق مع نفسه ، فالأمانة تجلله ، فلا غرو أن عرف فى قومه بالأمين ، ولا جرم أن أعجب أبو بكر به ، واتخذه قدوة يحذو حذوه .

ولو تقدم إلى بنى مخزوم ليتخذ له سكنا لفتح له بنو المغيرة أبوابهم على مصاريعها يختار من بناتهم من يشاء ، ولسكنت الغبطة قلب الوليد بن المغيرة وأفئدة أبناء عبد الله بن أبى ربيعة ، ولعرف السرور طريقه إلى صدر الفرع العدوى : الخطاب بن نفيل وزيد بن عمرو بن نفيل على الرغم مما بينهما من عداوة ، فمصاهرة بنى هاشم ترفع من قدر بنى مخزوم وتدنيهم من الحيين المتنافسين على زعامة مكة ، بنى هاشم وبنى أمية .

لم يكن فى قريش كلها بيت لا يرحب بأن يكون محمد بن عبد الله زوجا

لأشرف بناته على الرغم من فقره فى المال ، فقد كان غنيا بنسبه ، غنيا بشرفه ، غنيا بمكارم أخلاقه ، ولكن ابن عبد الله لم يتقدم إلى الزواج لأنه أصبح يحس أن سجدة فى محراب الكون أفضل من الدنيا وما فيها .

إنه بات يؤمن أن رب الكون هو خالق أفكاره ولذاته وآلامه ، فهو لا يطرف طرفة ولا يتنفس نفسا ولا يأتى بحركة إلا بقدرته ، وأنه بوصاله قد تحرر من كل عبودية إلا عبوديته ، إنه حر عن غيره ، عبد فى حقيقة الحقيقة ، هائم فى سعادة السعادة ، غائب عن وجوده بمحاولة الاندماج فى الخير المطلق .

إنه فى توافق مع ضميره وتناسق مع ذاته وصلح مع إرادته ، قد أغلق كل نوافذ نفسه التى تطل على مباذل قومه وشرورهم وتوجه بكل كيانه إلى القوة العلية ، فلم يشق بتوزيع ذهنه ، بل انصرف عن زلات قومه ليفنى فى الكل الطاهر ، ليفوز بسعادة النفس وراحة الضمير والغبطة الروحية التى تنسيه كل ما فى الأرض من لذات ، وكل ما تهفو إليه الأجساد .

إنه ينزع نحو السمو إلى ما فوق السموات ، وإن ذلك السمو جهاد ومعاناة وتحمل آلام الحرمان من كل ما فى الدنيا من مباهج أرضية ولذات حسية وفطام النفس عن الشهوات . إنه سائر فى طريقه إلى الله وهو طريق شاق كله مجاهدة وإرهاق ، إنه يريد أن يرتفع والارتقاء أصعب من الهبوط ، إنه يريد الفضيلة وما أيسر التردى فى الرذيلة ، إنه يريد أن يسير فى مواجهة قومه المتدفقين فى سبل الخطيئة ليصل إلى الآفاق العليا ، فهو يتسلح بأسلحة المقاومة والصمود والشجاعة التى تؤهله لأن يقاوم التيار .

إنه قد عرف طريقه ، فهو يفكر فى رب الكون ولا شىء غير روح الوجود ؛ ولا عربدة فكرية ولا تسكعا ذهنيا ، بل صارت الحقيقة غاية ، فلا

يحلق فى ضباب العدم الكثيف بل يهيم فى دنيا الخلود ويستشعر الأبدية فى أعماق أعماقه ، فحساسيته المرهفة العميقة قادرة على تذوق الآلام واللذات معا . قادرة على أن تحول ألم الجهاد إلى لذة صافية خالصة .

إنه قد فطن إلى أن الضمير هو نبع الألم واللذة ، مصدر الشقاء والغبطة ، وأن الشر ينحصر فى الخطيئة ، وأن أول مراتب الخطيئة إصاخة السمع إلى وسوسات الشيطان ، فراح يجاهد لينقى ضميره حتى يسعد بالفيض الروحى الذى يغمره بسرور دائم يفوق كل سرور زائل مبعثه الحس والجسد ، وجعل يصم أذنيه عن همزات الشيطان حتى لا يتسلل الشر إلى باطن ضميره فيخسر الأرض والسماء معا .

إن قومه فى تنافر وتشاحن واضطراب ونزاع وخصام وقتـال ، إنهم هائمون فى صحارى الضياع يعبون كئوس الرذيلة مترعة بالآثـام . إنهم غارقون فى الخطيئة حتى الآذان قد ملئت جوانحهم بالشرور . مأساة حياتهم أنهم لا يجدون السبيل إلى الخير الأسمى ، فلو استطاع إنسان أن يفتح أعينهم على الخير وأن يقودهم إلى الرشاد لأغلق نوافذ الشر فى ضمائرهم ، وأسدل الأسجاف بينهم وبين الخطايا ، وحول الطاقات الشريرة المدمرة التى تتفجر فى صميم وجودهم إلى طاقات خيرة بناءة ، تسمو بالبشرية إلى السماء لتنهل من نبع السرور وتسعد باللذة الصافية .

إن الإنسان يرى الوجود بعين ضميره ، فإذا كانت نفسه تمور بالشر والفوضى والاضطراب فإنه يرى العـالم مضطربـا حافـلا بكـل الشرور والآلام ، أما إذا كانت نفسه راضية مطمئنة تفيض بالخير فإنه يرى ما فى الكون من جمال ، وأن الجمال يقود إلى الحق ، ولن تعرف نفس الراحة والانسجام إلا إذا أسلمت وجهها لذات الذوات وربطت الأسباب بينها وبين السماء .

إن صدر محمد بن عبد الله يجيش بآمال عريضة مشرقة ، فهو يستشعر فى أعماقه أنه قادر على أن يذكى نفوس قومه ، وقد فطن إلى أن عدوهم الأكبر قابع فى أغوار نفوسهم يلهمهم الكذب ويزين لهم الفسوق ويمزق كل حجاب عن الإغراء ، فإن استطاع أن يوقظ فيهم إرادتهم الخيرة فإنه يكتم أنفاس الرذيلة التي تعربد بين ضلوعهم ويحقق الانتصار لبشريتهم السامية ، ولكن من أين يبدأ ؟ إنه لا يدرى ، وكيف يقنع أقواما جبلوا على إطلاق الحرية لعواطفهم المشبوبة أن يفطموا جوارحهم عن الشهوات ؟ إنه يستشعر فى أعماق ضميره أن ذلك لن يكون إلا بعون الله ونور من نور النور يبدد الظلام الذى ران بكهوف الصدور .

إنه يفكر فيما هو كائن وفيما ينبغى أن يكون ، فيما عليه قومه وفيما يرجو أن يكونوا عليه ، وإنه يعانى من مثل هذا التفكير معاناة شديدة ، وهذا الألم يُحقق تطوره الروحى ويُنمى حياته الباطنية ويقوده إلى الغاية التى صارت هدفه أن يسمو بمشاعر البشرية وأن يجعل الإنسان يستشعر سرورا أعمق من كل سرور مبعثه الجسد وإظهر من مباهج الدنيا .

إنه يخضع حياته الحسية لنشاط روحى يتزايد سموا على مر الأيام ، وإنه يتذوق لذة إشراق وجدانه بنور اليقين ، وإنه يغذى روحه بغذاء المعرفة وهو أشهى من كل غذاء عرف طريقه إلى جوفه ، ويلذ بصره الروحى كلما مده إلى الخير الأسمى وهذه اللذة تفوق كل لذة استشعرها من النظر إلى جمال الكون وروعة الوجود . وإنه لا يكتفى بأن وصل وحده إلى الطهارة القلبية الحقة ولكنه يريد أن يأخذ بيد أهله الذين يحبهم إلى ينبوع السعادة الروحية العميقة ، فما خلقه الله ليعيش لنفسه بل جعله رحمة للعالمين .

إنه يعيش فى عزلة روحية ويحيى حياة باطنية عميقة ، باحثا عن الذى ليس

دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، الباطن تقدما لا عدما ، خالق السموات والأرض بالحق الذى سخر للناس الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، من يعلم ما يسرون وما يعلنون .

كان محمد فى شغل بتأملاته وتفكيره وتقليب وجهه فى السماء عن دنيا الناس ، يحيى فى جو روحى يسمو به عن حاجة البدن وضرورة الجسد ، فلم يفكر فى الزواج وإن كان قبلة أنظار زهرات قريش المترقبات للأزواج .

لو أن محمدا تزوج قبل العشرين كمألوف عادة قومه فمن يدرى لعله كان يتزوج فتاة وضاءة غريرة بلا إيمان ولا تجارب ، فإذا ما جاءت فترة الوحى وإبلاغ الرسالة كانت تحاول أن تقعده عن الجهاد التماسا للسلام والعافية أو كانت تقف عقبة فى سبيله عوضا عن أن تكون له عونا . لكن السماء كانت به رحيمة . فقد كانت تدخر له زوجة ذات فطنة ورجاحة ، مفطورة على التدين ، متلهفة على ظهور الرسالة ، صباحة الوجه غنية اليد غنية النفس ، ذات حنكة وحنان ، تعرف أمانه الحق والفضيلة ، تهيىء لزوجها أصح جو وأطيبه ليؤدى رسالته ، تبذل له العطف والحنان والمال والتأييد ليبلغ أوامر ربه ، وقد توفرت كل هذه الصفات الحميدة فى الطاهرة ، سيدة نساء قريش التى احتضنت بشائر النبوة فى حب وعطف وحنان يفوق كل حب وعطف وحنان جاشت به صدور الأمهات لفلذت أكبادهن .

٣

أطبق ظلام الليل على مكة ولكن لم ينقطع الطواف حول الكعبة ، فسيدات الأسر العريقة كن فى الحرم يلذن بالبيت العتيق متسربلات بالظلام ، وقد راحت إماؤهن يسرن فى أعقابهن يلبين أية إشارة .

وكانت خديجة بنت خويلد تطوف مع الطائفات وتبتهل إلى رب البيت أن يبارك لها فى تجارتها . وكانت راضية النفس بما حققته من نجاح فقد صارت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش ، وكانت سعيدة بما بلغته من رفعة فى دنيا التجارة ، بيد أن سعادتها فى حياتها الزوجية قد تعثرت ولم تعرف طريقها إلى قلبها الكبير الذى كان يرنو إلى حياة زوجية رفيعة ، فيها سمو وبذل وتضحية وكفاح فى سبيل تحقيق غاية سامية ، وقد قصر الزوجان اللذان كتب عليها أن تتزوجهما أن تطمح آمالهما إلى التحليق لبلوغ ما ترجوه من أمجاد .

كانت عالية الهمة جياشة العواطف مفطورة على التدين ، تتهلل نفسها بالفرح كلما ألقت سمعها إلى حديث ابن عمها ورقة بن نوفل عن الأنبياء والدين ، وكثيرا ما كانت أحلامها المجنحة ترفرف فى سموات عالية من الفضيلة لم تصل إليها أمانى أهل عصرها من رجال ونساء ، وكانت تتمنى أن تكون حاضنة لأحداث كبار فى حياة زوجها ، فلما تزوجت عتيق بن عبد الله المخزومى ولما تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ، راحت تجاهد ليكون زوجها سيدا بين الرجال ، إلا أن الموت اختطفه قبل أن يصبح شيئا مذكورا .

وتزوجت ــ بعد موت زوجها الأول ــ هند بن زرارة وأنجبت منه هالة

ثم هند ، وعرف بأبى هالة ، ولم يدم ذلك الزواج طويلا فما استطاعت همته أن ترتفع إلى همتها ، وأصبحت الطاهرة وسيدة نساء قريش بلا زواج قبل أن تبلغ من عمرها الخامسة والعشرين .

وأتمت طوافها ثم اتخذت سبيلها إلى دارها وإماؤها من حولها . حتى إذا ما بلغت البيت سمعت أصوات السمار تنبعث من دار أبى لهب ودار عدى بن حمراء الثقفى ، فلم تخفف من خطوها لتسمع ما يدور فى بيوت جيرانها ، بل أسرعت وهبطت بضع درجات فى دارها ، فقد ارتفع عنها الطريق .

وسارت فى ممر عن يسارها حجر يرتفع عن الأرض بنحو قدم ، وطوله يزيد قليلا على عشر أذرع ، أما عرضه فأربع . وانطلق خلفها إماؤها حتى إذا بلغت بابا صغيرا عن يمينها دخلت منه ، ثم صعدت درجتين ، ثم سارت فى ممر طويل فيه ثلاثة أبواب أولها عن اليسار يؤدى إلى غرفة صغيرة ، وثانيها عن يمين يؤدى إلى غرفة مستطيلة ، وثالثها فى الوجه وقد اتجهت إليه وفتحته ، وقبل أن تدخل التفتت إلى إمائها وأمرتهن فى رقة أن يذهبن للنوم .

ودلفت خديجة إلى مخدعها ؛ إنه بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة ، ثم ألقت نظرة كلها حب وعطف وحنان على أبنائها الذين كانوا يغطون فى النوم ، وذهبت إلى سريرها ، وما أسلمت جنبها للرقاد حتى راحت فى سبات .

ورأت فيما يرى النائم شمسا عظيمة تهبط من سماء مكة لتستقر فى دارها وتملأ جوانب الدار نوراً ، ويفيض ذلك النور من دارها ليغمر كل ما حولها بضياء يبهر النفوس قبل أن يبهر الأبصار !

وهبت من نومها خائفة يخفق قلبها بين ضلوعها كجناح حمامة ، وراحت تدير عينيها فى المكان فى دهش فإذا بالظلام يجثم على الوجود ، ولكن ذلك

النور الذى بهرها فى المنام لا يزال مشرقا فى وجدانها . ومرت لحظات حتى إذا ما سكن روعها تمددت لتعاود رقادها ولكن الوسن لم يطف بعينيها ، بل صحا ذهنها وراح يستعيد الرؤيا وهى موزعة النفس بين الرهبة والأمل .

وغادرت فراشها وراحت تغدو وتروح فى مخدعها ، وتلك الشمس التى هبطت من السماء لتستقر فى دارها تتخايل لعين بصيرتها تكاد أن تحيل الليل السرمد إلى نهار ، ولم تستطع صبرا على الرؤى الجياشة فى رأسها والمشاعر الموارة فى صدرها فخرجت من مخدعها وسارت فى الممر الطويل وهبطت بضع درجات ثم عرجت إلى الباب الذى يفضى إلى الفناء الواسع الذى ارتفع عن الأرض بمقدار ذراع ، والذى تكدست بين جنباته ما كانت تتجر فيه من سلع ، وراحت تلقى نظرة على الحرير الآتى من الهند والطرف المجلوبة من منف والتوابل والطيب والبخور ، لعلها تشغل ببضاعتها عن حلمها الذى استولى على كل تفكيرها ، ولكن هيهات فهى تؤمن بالأحلام ، ولا تعرف نفسها الدعة قبل أن تنطلق إلى من يؤول لها ما ترى فى المنام .

وما أشرقت الشمس حتى كانت خديجة فى طريقها إلى دار ابن عمها الشيخ ورقة بن نوفل ، فلما دخلت عليه ألفته عاكفا على قراءة كتاب من الكتب السماوية التى شغف بها فألقت عليه تحية الصباح ، وما أن مس صوتها أذنيه حتى رفع رأسه وقال فى دهش :

ــــ الطاهرة ؟ ما جاء بك الساعة ؟

وراحت تقص عليه ما رأت فى منامها وورقة يصغى إليها فى اهتمام ، فلما انتهت من حديثها تهلل وجهه بالبشر وقال :

ــــ أبشرى يا بنة العم ، لو صدق الله رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك ، وليفيضن منها نور خاتم النبيين .

وسرت فى بدن خديجة قشعريرة وجاشت فى صدرها عواطف مشبوبة زاخرة بالأمل والرحمة والرجاء ، ولم تشأ أن توصد ذلك الباب الذى انفتح عن أعظم نبأ فراحت تسأل عن خاتم النبيين وعن صفته وورقة يجيب .

وعاشت خديجة على أمل أن يتحقق ما رأت فى حلمها فكانت إذا تقدم إليها سيد من سادات قومها لخطبتها تقيسه بمقياس صلاحيته للنبوة ، ولم تنطبق صفات النبى التى سمعتها من ابن عمها الشيخ الجليل على أى ممن تهافتوا على خطبتها من سادات قومها ، وباتت تنتظر وعد السماء .

وكان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فى الحرم ، ففتحت أبواب الدور وتدفقت النسوة إلى البيت العتيق ، وخرجت خديجة ومن حولها إماؤها إلى الكعبة ترفل فى ثياب من حرير يتألق وجهها بالنور ، ودخلت من باب إبراهيم تحس إحساساً غامضا أن القدر يخبىء لها شيئاً رائعاً لا تدرى ما هو ولكنها تستشعر أن فيه تحقيق الآمال العريضة التى باتت تتخايل لها فى يقظتها ومنامها .

وطافت بالبيت سبعا ثم وقفت عند الملتزم بين الحجر الأسود والكعبة وراحت تدعو الله وتبتهل إليه . إنها لم تسأله لأول مرة أن يبارك لها فى تجارتها بل كانت تسأله فى حرارة وصدق أن يحقق لها أحلامها .

وبين إساف ونائلة نحرت القرابين ووزعت لحومها على الفقراء ، وارتفعت الشمس فى كبد السماء وراحت تميل نحو الغرب ، والتف النسوة حلقات حول الموائد التى مدت ورحن يتناولن غداءهن .

وجاء يهودى وقال :

ـــ يا معشر نساء قريش !

ورن الصوت فى جنبات الحرم فالتفت النسوة إليه وقد أصخن السمع إليه ، فقال :

— يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبى قرب وجوده فأيتكن استطاعت أن تكون فراشا له فلتفعل .

وثار النسوة فرماه بعضهن بالحصباء ، وألقى عليه أخريات سيلاً من الشتائم والسباب وقبحنه وأغلظن له ، بينا خفق قلب خديجة فى شدة فذلك الحديث أهاج ذكرياتها ، إنه أعاد إلى ذهنها حلمها الذى رأته وذلك الحديث الشجى العذب الذى دار بينها وبين ابن عمها ورقة بن نوفل حول خاتم الأنبياء .

أعلن اليهودى على الملأ أن نبيا قرب وجوده وهو يدعو من استطاعت من نساء قريش أن تكون فراشا له أن تفعل ، وهى قد رأت فى منامها أن الشمس هبطت من سماء مكة لتستقر فى دارها ، وقد فسر لها ورقة ذلك الحلم بأن نور النبوة سيشع من دارها ، إن ذلك كله ليس عبثا ، إنها تحس فى أغوار نفسها أن رؤياها حق . وأن نبوءة اليهودى صدق ، وأن ما قصه عليها ورقة من بشارات فى التوراة والإنجيل بالنبى المنتظر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إن ذلك كله حقيقة ساطعة ، ترى متى يتحقق الحلم الجميل !

٤

أصبح الناس بعكاظ يوم هلال ذى القعدة ، فراح رجال عبد الله بن جُدعان يجمعون من القبائل أسلحتهم حتى لا يكون بينهم قتال كقتال الفِجار الذى وقع فى الأشهر الحرم ، ثم نزل الناس على مراعيهم وراياتهم منحازين فى المنازل يضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها . وكان لكل قبيلة حكم يحكم فى قضاياها ، وكان حكام قريش فى ذلك اليوم أبا طالب فى بنى هاشم ، وحرب بن

أمية فى بنى أمية ، والعلاء بن حارثة الثقفى حليف بنى زهرة فى بنى زهرة ، والوليد بن المغيرة بن عبد الله فى بنى مخزوم ، والعاص بن وائل فى بنى سهم ، و لم يكن من هؤلاء مملكا على بقية قريش وإنما ذلك بتراض من قريش لما فيه من حسم مواد الشر .

وكان حكم تميم أكثم بن صيفي ، وكان فصيحا عالما بالأنساب ، وكانت أقواله تذهب فى قومه مذهب الأمثال فهم يحفظون له قوله فى وصيته لبنيه : تبارّوا فإن البزيبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه . إن قول الحق لم يدع لى صديقا . الصدق منجاة . لا ينفع التوقى مما هو واقع . وفى طلب المعالى يكون العناء . الاقتصاد فى السعى أبقى للحمام . من يأس على ما فاته ودع بدنه . ومن قنع بما هو فيه قرت عينه . التقدم قبل التندم . أن أصبح عند رأس الأمر أحب إلىّ من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك . ويل من عالم أمر،ومن جاهله . يتشابه الأمر إذا أقبل ، وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق .

البطر عند الرخاء حمق . والعجز عند البلاء أفن (نقص) . لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير . لا تجيبوا فيما لم تسألوا عنه . ولا تضحكوا مما لا يضحك منه . تناءوا فى الديار ولا تباغضوا ، فإنه من يجتمع يتقعقع عمده ، ألزموا النساء المهانة . نعم لهو المرأة المغزل . حيلة من لا حيلة له الصبر . إن تعش ترَ ما لم تره . المكثار كحاطب ليل . من أكثر أسقط . لا تجعلوا سرا إلى أمة .

وكان عامر بن الظرب العدوانى من حكام قيس ، وكان العرب لا تعدل بفهمه فهما ولا بحكمه حكما وكان من الحنفاء . وكان يقول :

ـــ إنى ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ،

ولا جائيا إلا ذاهبا ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء .

وكان قد زوج ابنته من ابن أخيه عامر بن الحارث بن الظرب ، فلما دخلت عليه نفرت منه فشكا إلى أبيها ، فقال :

ــ لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك ، وقد خلعتها منك بما أعطيتها .

فكان هذا أول خلع فى العرب .

كان عامر فى خيمته يقضي بين قومه إذا ما تشاجروا فى الفضل والمجد وعلو الحسب والنسب ، قد التف الناس حوله ، بينا كان المتلمس بن أمية الكنانى يسير فى السوق وحده ، فقد تفرقت عنه العرب حين وقف فى فناء الكعبة يخطب ويقول :

ــ أطيعونى ترشدوا .

ــ وما ذاك ؟

ــ إنكم قد تفردتم بآلهة شتى وإنى لأعلم ما الله راض به ، وإن الله تعالى رب هذه الآلهة وإنه يحب أن يعبد وحده .

وكان فى السوق عبيد بن الأبرص وهو من الحنفاء المتشائمين المؤمنين، بالمنايا وبالمحتم المكتوب ، وقد قال :

من يسأل النـاس يحرمـوه	وسائـــــل الله لا يخيب
بـــالله يـــدرك كل خير	والقـول فى بـعضه تلغيب
والله لـــيس لـــه شريك	علام ما أخفت القلوب (١)

وقال فى المنايا :

فأبلـغ بنـيّ وأعمامهـم	بـأن المنايـا هـى الـواردة

---

(١) انظر التذييل .

لها مـدة فنفـوس العبـاد إليها وإن كـرهت قـاصدة
فـلا تجزعـوا والحمـام دنـا فللمـوت مـا تلـد الوالـدة

كانت سوق عكاظ تموج بالتجار والشعراء والأحناف والنصارى واليهود والصابئة والمجوس والمشركين وطلاب اللهو والباحثات عن الذهب ، وكانت كل طائفة تجد فى حلقات السوق بغيتها . واجتمع الشعراء فى خيمة النابغة الذبيانى ينشدون الشعر ويتفاخرون بقبائلهم ويثيرون الخصومات ويوقظون ما نام من أحقاد ، وكان بين الشعراء حسان بن ثابت شاعر الخزرج وقيس بن الحطيم عدوه اللدود شاعر الأوس والخنساء شاعرة العرب ، فمال حسان عليها وقال :

ـــ اهجى قيس بن الحطيم .

فقالت :

ـــ لا أهجو أحدا أبدا حتى أراه .

فأشار حسان إليه وكان قاعدا فى الشمس ملتفا فى كساء له ، فذهبت إليه ونخسته برجلها وقالت :

ـــ قم .

فقام وكان قيس مقرون الحاجبين أدعج العينين أحمر الشفتين براق الثنايا كأن بينها برقا ، ما رأته حليلة رجل قط إلا ذهب عقلها ، فقالت له :

ـــ أدبر .

فأدبر ، ثم قالت :

ـــ أقبل .

فأقبل ، وكأنها تستعرض عبدا تشتريه ، ثم عاد إلى حاله نائما فقالت :

ـــ والله لا أهجو هذا أبدا .

وجاءت القبائل بالرجال والفتيان والفتيات الذين سلبوهم حريتهم فى الغارات

التى شنوها على القوافل والقبائل ليبيعوهم بضاعة فى السوق ، وجاء بنو القين ابن جسر بالنساء والرجال والغلمان الذين انتزعوهم من بنى معن لما أغاروا بخيلهم عليهم ، وكان فيهم زيد بن حارثة بن شراحيل فتى فى العاشرة من عمره ، قد علا ذل الأسر وجهه وانقبض قلبه ، بعد أن كان لا يعرف إلا خفق السرور أيام أن كان يمرح طليقا فى طيىء ثم يعود ليرتمى فى أحضان أمه سُعدى أو ليلصق صدره بصدر أبيه حارثة الحنون .

وارتفعت أصوات الذين كلفوا ببيع العبيد تجلجل فى جنبات السوق فكانت كأسواط تلهب ضمائر الأحرار الذين أمسوا رقيقا بين غمضة عين وانتباهتها ، فقد فقدوا حريتهم لما انقضت عليهم الخيل وانتشلهم الفرسان انتشال النسور الجوارح دون ذنب جنوه .

وجاء الرجال من كل حدب وصوب ينظرون فدبت المنافسة بين تجار العبيد فراح كل منهم يعدد مناقب سلعته ، وتهافت الرجال على شراء الإماء والرجال الأشداء ذوى السواعد القوية وأصحاب الحرف ليعملوا للسادة المترفين ، ويقدموا آخر النهار ثمرة جهدهم لمواليهم لينفقوا ما جاءهم فى يسر على البغايا والقمار .

وعرض بنو القين بن جسر زيد بن حارثة للبيع ، فأخذ حفنة من الرجال يتزايدون عليه وكان فيهم حكيم بن حزام ، وكان حريصا على أن يشتريه وما كان يدرى لذلك سببا ، وقد انتهى الأمر بأن ابتاع حكيم زيد بن حارثة أخذه بستمائة درهم! وصار زيد بن حارثة مولى لحكيم بعد أن كان الابن المدلل لأبيه وقرة عين أمه سُعدى ، وأصبح ذليلا بعد أن كان عزيزا طليقا كفراشة فى دور بنى طيىء .

وراحت أيام عكاظ تمر والشعراء ينشدون قصائدهم ويهجون منافسيهم ،

وقام عبد الله بن الزبعرى السهمي وراح يهجو بني قصي فدب الرعب في قلوب قومه ، خشوا من هجاء الزبير بن عبد المطلب فهو قذع الهجاء ، ولو هجا بني سهم فسيذهب هجاؤه في القبائل ، فرأوا أن خير ما يفعلونه أن يدفعوا ابن الزبعرى برمته إلى بني قصي يفعلون به ما يرضيهم .

وجاء بنو سهم بعبد الله بن الزبعرى ودفعوه إلى عتبة بن ربيعة فأخذه إلى بني هاشم وكان فيهم حمزة بن عبد المطلب ، فلما رأى حمزة أن من هجاهم أصبح في أيديهم أطلقه وكساه ، فقال ابن الزبعرى :

لعمرك ما جاءت بنوبكر عشيرتي

وإن صالحت إخوانها لا ألومها

فود جُناة الشر أن سيوفَنا

بأيماننا مسلولة لا نشيمُها

فإن قُصيا أهل عز ونجدة

وأهل فَعال لا يرام قديمها

همْ منعوا يومَي عكاظ نساءنا

كما منع الشول الهجان قرومها[1]

وانتهت أيام الحج وكان الزبير في الطائف ، فلما عاد إلى مجالس بني هاشم وسمع بما كان من ابن الزبعرى وهجوه لقصي وأن حمزة أطلقه وكساه ، قال :

فلولا نحن لم يلبس رجال

ثياب أعزة حتى يموتوا

---

(١) القروم : جمع قرم وهو الفحل . والشول الهجان : النياق الكريمة .

ثيـــــابهمُ سمالٌ أو طمـــــار
بها دسم كما دسم الحمــــــيت[١]
ولكنـــــا خلقنـــــا إذ خلقنــــا
لنـــا الحبرات[٢] والمسك الفتـــيت

٥

عاد محمد من عزلته إلى الحرم بعد أن فكر فى الذات العليا فازداد النور العقلى فيه تألقا وسمت حرية عقله وكملت إرادته ، بينا تقيدت حرية جسده فنأى بذاته عن التردى فى خطايا قومه ، فالخطيئة جهل وعدم اكتراث ، وقد أشرق وجهه بنور العلم وتحلى بإرادة حرة مبدعة جعلته يهتم بالوجود ويعتقد اعتقادا راسخا بإمكان النهوض بقومه بل بالبشرية كلها .

سلَّحته عزلته وتأمله فى الكون ومحاولة اتصال روحه بروح الوجود الدائمة بمكارم الأخلاق ، فاشتهر بين قومه بالصدق والأمانة والسمو عن مواطن الزلل حتى عرف بالأمين ، فإذا أقبل على قوم قالوا : جاء الأمين . وإذا أدبر قالوا : ذهب الأمين . وإذا فعل شيئا قالوا : فعل الأمين ، وكان يقابل الناس بوجه متطلق فأحب قومه فيه تلك البشاشة وفتحوا له قلوبهم .

إنه فطر على النزوع إلى الاندماج فى الله ، إلى رغبة فى الخلود ، فليس أمامه إلا سبيل واحدة هى السير فى الطريق المؤدى إلى الله . وإن ما يشجعه على تحمل ما فى ذلك الطريق من مشاق وألم وحرمان أنه أصبح يستشعر أن العناية الإلهية

---

(١) السمال والطمار : الأثواب الخلقة البالية . والحميت : وعاء السمن .

(٢) الحبرة : ثوب يمانى من قطن أو كتان مخطط .

ترعاه ، وأنها تأخذ بيده إلى أعتاب الأسرار ، وأنها بلطفها ستكشف له عن جوهر الحقيقة وقدرة الله المطلقة .

كانت أيامه كلها صراعا بين الروح والجسد . جهادا لسيطرة العقل على المادة وفتح نوافذ النفس لأنوار اليقين ، وقد تحقق له ما أراد له الله ، فقد ارتفعت روحه على جسده ، وفتحت نوافذ نفسه لأنوار العلم والحكمة ، وصارت هناك صلة باطنية عميقة بينه وبين ربه ، ولم يبق إلا أن يندمج فى دنيا الناس يمارس البيع والشراء ويرصد عن كثب ما فى البشر من خير وشر ويعد خير إعداد للنهوض برسالة السماء ، فجعل الحق يمهد له الدواعى والبواعث والصوارف لتتحقق إرادة الله ومشيئته .

وانتهى من طوافه فغادر الكعبة قاصدا بيت عمه أبى طالب ، فقد شب فى ذلك البيت الكريم مع أبناء عمه طالب وجعفر وعقيل ، وكان عمه يفضله على بنيه ويحس فى أعماقه أن سيكون لابن أخيه شأن عظيم ، وقد سمع أبو طالب ما بشر به الكهان والعرافون من نبوءة محمد ، ولكن أبا طالب كان يؤمن فى قرارة نفسه أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا ، فكان يعرض عن فكرة النبوة ويرى ابن عبد الله بعين خياله سيدا فى قومه كجده عبد المطلب ، وإذا ما شطح به الخيال يراه كقصى وقد جمع فى يده السقاية والرفادة والحجابة والسدانة والندوة والمشورة واللواء والسفارة والأيسار ، وكل ما فى بيوت قريش من شرف .

وكانت ابتسامة ساخرة ترف على شفتيه كلما فكر فى أن الأيسار قد تصبح يوما فى يد ابن أخيه ، فقد اشتهر عن محمد إعراضه عن الأزلام والقداح وكراهيته الشديدة للميسر ، وكانت تلك الابتسامة تزداد اتساعا إذا خطر على ذهنه أن الأموال المحتجزة قد تنتقل يوما إلى محمد ، فتلك الأموال

كانت للآلهة يصرف بعضها فى شراء القرابين للأرباب وينفق بعضها فى صيانة الأصنام أو جلب أصنام أُخر أو عمارة البيت ، وقد عرف عن محمد مقته لأصنام قومه وبغضه الشديد لها .

وبلغ محمد دار عمه فألفى أبا طالب وأخته عاتكة بنت عبد المطلب يتحدثان ، وكانت عاتكة قد تزوجت أبا أمية بن المغيرة فربطت الأسباب بين بنى هاشم وبنى مخزوم ، كما شدت أختها صفية الأواصر بين الهاشميين وبنى أسد لما تزوجت العوام بن خويلد أخا خديجة ، وكان لعاتكة ابنان فى مثل سن محمد سمت أحدهما عبد الله والآخر زهيرا ، وكانا يحبان ابن خالهما حبا شديدا ، فما جاء محمد بعد بما يفرق به بين الأب والابن والزوج والزوجة وما يثير حفيظة من أحبوه .

وألقى محمد على عمه وعمته تحية الصباح ، وما كاد يستقر إلى جوارهما حتى التفت إليه أبو طالب وقال :

ــ أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرانها فيتجرون لها فى مالها فيصيبون منافع ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال محمد فى اقتضاب :

ــ فلعلها أن ترسل إلى فى ذلك .

وفطنت عاتكة إلى أن محمدا تأبى أنفته أن يعرض نفسه على أحد حتى لو كانت خديجة بنت خويلد التى يهرع إليها الرجال ليكون لهم شرف الاتجار لها فى مالها ، والتفتت إلى أخيها وقد ألقت إليه سمعها لتنظر ما يقول فقال أبو

طالب :

ـــ إنى أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمرا مدبرا .

فأطرق محمد و لم ينبس بكلمة ثم دار على عقبيه وانصرف ، وعاتكة ترقبه فى إكبار فقد أرضى كبرياءها أن ابن أخيها لا يريق ماء وجهه فى الطلب ، إنه عرف فى مكة كلها بالأمين ، أتجد خديجة خيرا منه لتضع بين يديه أموالها ؟ ولكن من أدرى خديجة أن محمدا يطلب عملا ؟ إن كان محمد يجد حرجا فى أن يفاتح بنت خويلد فى هذا الأمر فأى حرج فى أن تذهب هى إلى خديجة وتقص عليها ما دار بين أبى طالب وابن أخيه ؟

ونهضت عاتكة وانصرفت من دار أبى طالب وقد اتخذت سمتها إلى دار خديجة ، فلما جلست إليها راحت تقص عليها ما دار بين أبى طالب ومحمد بن عبد الله وهى ترنو إليها فى إعجاب ، فقد رزقت خديجة صباحة الوجه وخلقا جميلا يأسر الألباب ، وما انتهت عاتكة من حديثها حتى قالت خديجة فى صوت صادق :

ـــ ما علمت أنه يريد هذا .

كانت خديجة تعرف محمدا ﷺ حق المعرفة فعمته صفية زوجة أخيها العوام ، وقد ترامت إليها سيرته العطرة فودت لو أنه عمل لها ، ولكنها كانت تعتقد أن فى تجارة بنى هاشم منفسا له ، وما درت أن كثرة العيال قد ذهبت بتجارة أبى طالب ، وأن أبا لهب قد أعرض عن التجارة وانغمس فى اللهو والشراب ، وأن حمزة قد شغل بالقنص عن التجارة ، وأن العباس يفضل أن يخرج فى تجارته على أن يبعث رجالا يتجرون له فى ماله .

وأرسلت خديجة إلى الأمين فمشى إليها يتقلع كأنما ينحط من صبَب ، ذريع الخطوة ، سائل الأطراف ، حتى إذا ما بلغ دارها هبط بضع درجات ثم

سار خلف إحدى إمائها حتى دخل مكان الضيافة .

كانت الغرفة مستطيلة قد وضعت فيها أرائك غطيت بطنافس فاخرة وقد زينت بطرف جلبت من أسواق بصرى وأسواق مكة وأسواق اليمن ، كان المكان ينم عن غنى صاحبته ورفيع ذوقها .

وساد السكون برهة ثم مزق غلالته وقع أقدام متئدة قادمة ، إنها خديجة ولا ريب قد أقبلت على الرجل الأبى الذى كره أن يعرض نفسه عليها وانتظر حتى أرسلت إليه ، وفتح الباب ومس أذنيه صوت رقيق وهى تلقى عليه التحية ، فرد عليها التحية فى هدوء وقد غض الطرف .

وجلست خديجة تحادثه ، كان فتى فى الخامسة والعشرين بعيد ما بين المنكبين غزير الشعر تلمس جُمَّته شحمة أذنيه ، شثن الكفين والقدمين ضخم الكراديس — أى ملتقى العظام — أدعج العينين أهدب الأشفار ، وكانت خديجة فى السابعة والعشرين [(١)] وضاءة يشع من عينيها بريق الفطنة والذكاء بصيرتها نافذة . وكانت أحكامها على الناس أقرب إلى الإلهام .

وطال الحديث بينهما ، إنه ضليع الفم يتكلم بكلام بين فصل مفسر ، إذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلَبها وإذا تحدث صحب كلامه بما يوافقه من حركتها ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت ، منطقة سليم وخلقه قويم .

كان محمد جميل الخلقة جميل النفس فاستشعرت خديجة بروحها تنجذب إليه ، وأحست أنها تتحدث إلى شخصية فذة تختلف كل الاختلاف عن كل من عرفت من سادات قومها وأشرافهم ، فهو نسيج وحده لا يسع المرء إلا أن

---

(١) انظر التذييل

يعجب به وتنبهر لجلالة ذاته لأول وهلة .

وقالت له خديجة فيما قالت :

— إنى دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك .

وانصرف محمد وخديجة مأخوذة بقوة شخصيته ، يرن فى أذنيها صوته عذبا حازما فيه سحر ، فحديثه ينسكب من الأذن إلى القلب ويتغلغل فى أغوار النفس ويشيع فيها ثقة وطمأنينة وسلاما .

إنه لم يملأ عينيه منها ، كان يطرق وهو يحدثها ، وكان كيِّسا فى كل تصرفاته يستأذن إذا دخل ويستأذن إذا ما هم بالانصراف ، يتحدث فى تواضع الواثق دون تكلف أو حذلقة بل يطلق نفسه على سجيتها ، وإن نفسه حلوة تشرح الصدور وتفتح مغاليق الأفئدة .

وأحست خديجة سعادة غامرة لذلك اللقاء . ولم تكن سعادة فتاة غريرة التقت لأول مرة بفتى الأحلام ، بل سعادة امرأة مجربة بذل لها سادات قومها الأموال لتقبل أن تكون لأحدهم زوجة ، ولكنها عزفت عنهم جميعا فلم تجد فى كل من تقدموا لخطبتها من يستطيع أن يحقق آمالها الكبار ، ولكنها وجدت فى ابن عبد الله شيئا مشرقا زاخرا بكنوز نفيسة تفوق كل كنوز قريش وأموالها .

إنها غنية ومالها ممدود فلم تكن فى حاجة إلى ثرى من أثرياء مكة يكدس ذهبه وفضته إلى ذهبها وفضتها ، بل كانت فى حاجة إلى رجل يسمو على أقرانه بكرم أخلاقه وحميد صفاته ، ولقد بلغها عن محمد صدق حديثه وعظم أمانته ولكنها كشفت فى هذا اللقاء عن معدن نفيس نادر هو جوهر مكارم الأخلاق .

إنه على خلق عظيم ، وورث الأريحية عن بنى هاشم وارتفع فوق كل بنى هاشم ، فلطالما التقت بأبى طالب والزبير وأبى لهب وحمزة وآل عبد المطلب أجمعين وأحست نحوهم إكبارا لجميل شمائلهم ، إلا أنها لم تحس مثل تلك الروعة التى غمرتها فى أثناء ذلك الحوار الذى دار بينها وبين محمد ، تلك الروعة التى لا تتلاشى وتتبخر بل تتغلغل فى سويداء القلب تغرس بذور الأمل .

إنه على خلق قويم .

والتقى محمد بعمه أبى طالب وقال له ما كان بينه وبين خديجة دون أن يتهلل بالفرح ، فهو لا يفرح بما أتاه ولا يأسى على ما فاته وإن كان يستشعر فى أعماقه شكرا لذات الذوات ، فقال أبو طالب فى انشراح :

— إن هذا لرزق ساقه الله إليك .

٦

كانت خديجة فى شرفتها ترقب رجالها وهم يضعون السلع على ظهور الجمال ، فكانت ترى محمد بن عبد الله وهو يعاون عبيدها ويربت على الإبل فى حنان دافق فتحس كأنما رقته قد أهاجت مكامن الرقة فى نفسها ، فإذا بكنوز فؤادها تنتشر فى جنباتها فتملؤها حبا لكل ما تمد إليه عينيها ، بل لكل ما تنبض به الحياة .

وراح محمد يغدو ويروح بين رجال القافلة ، وعينا خديجة لا تفارقانه فيزداد إعجابها بذلك الفتى الذى يخرج فى تجارتها لأول مرة ومع ذلك تطغى شخصيته على رجالها جميعا ، حتى غلامها ميسرة يبدو إلى جواره قميئا ،

فعظمة ابن عبد الله قد بهرت أنظار خديجة فلم تعد ترى فى المكان إلا ضياءه .

كانت خديجة ذات بصيرة نفاذة ففطنت إلى أن محمدا طراز وحده من الرجال ، صاحب شخصية قوية فى رقة ، حازمة فى غير قسوة ، كيسة فى غير ضعف ، فطرت على مكارم الأخلاق ، تستولى على مجامع القلوب دون تكلف أو عناء كأن اللطف الإلهى قد اختاره ليقود الناس إلى مصير أبدى سعيد بعيد عن الشقاء .

إن مجرد رؤيته من بعيد يهز أوتار فؤادها ، وإن صدى صوته لا يزال يتردد فى عين ذاتها مذ ذلك اليوم الذى جلست فيه إليه تعرض عليه أن يعمل لها وأن تعطيه ضعف ما تعطى رجلا من قومها ، وإن إشعاعات من روحه القوية تتدسس إلى روحها فتفيض جوانبها بسعادة ونشوة وفرح وإحساسات صافية ناعمة قد انسكبت من عالم علوى غير عالمها الأرضى فى وجدان وجدانها .

وعجبت لنفسها لأن التطلع إلى فتى بنى هاشم يخرجها من ماديتها ويرفعها إلى عالم مجنح تهيم فيه الروح طليقة حرة تنزع إلى غايات سامية ما كانت تخطر لها على قلب وهى ترصد رجالها وهم يقومون بتجهيز القافلة . إنها كانت كلما خرجت لها قافلة لا تتمنى إلا أن يعود إليها غلامها ميسرة بما حقق من أرباح وأن يشنف أذنيها بأحاديث التجارة والتجار ، أما فى ذلك اليوم فلم يخطر لها على بال ؛ كل ما كانت ترجوه أن يعود إليها ميسرة بأنباء محمد بن عبد الله ، فهى تحس بأن سيكون له شأن فى العرب ، فصار أملها أن يحقق محمد ما يحب من نجاح وأن تتفتح السبل أمام إرادته الحرة المبدعة .

وتم تجهيز القافلة ، وقبل أن تنطلق ذهب ميسرة إلى سيدته ليتلقى منها آخر أوامرها فألفاها شاردة فى سعادة تبدو على وجهها ، فقال فى صوت خافت أقرب إلى الهمس :

— مولاتى !

فالتفتت إليه خديجة فقال :

— أوامر مولاتى .

وهمت بأن توصيه بمحمد ولكنها أمسكت لسانها والكلمات تتراقص على شفتيها ؛ ثم قالت فى اقتضاب :

— باسمك اللهم نسير ، بارك لنا فى رحلتنا

وعاد ميسرة ليخرج بتجارة خديجة إلى سوق حباشة ، ومحمد بن عبد الله إلى جواره مرفوع الرأس عليه مهابة وورع وجلال وكأنه قد ولد ليكون زعيما فى قومه ، وظلت خديجة ترقبه وهى حالمة حتى غابت القافلة عن عينيها .

وعادت خديجة إلى مخدعها فراحت الأفكار تنثال على رأسها وكانت تدور كلها حول ابن عبد الله الذى أسرها بعذب حديثه وفضل منطقه وفصاحته وروحه القوية التى تبهر النفوس ، ولم تستطع أن تستقر فى دارها فخرجت إلى دار أخيها حكيم بن حزام .

كان حكيم يتأهب للخروج إلى السوق فهو رجل تاجر لا يدع سوقا بمكة ولا تهامة إلا حضرها ، وكان إلى جواره زيد بن حارثة مولاه الذى اشتراه من سوق عكاظ ، وكان زيد غلاما أفطس الأنف إلا أن روحه جذابه تتفتح لها القلوب .

ودخلت خديجة وحيت ابن أخيها فهرع حكيم إلى عمته يرحب بها ، ولما وقعت عيناها على زيد سألته عنه فقال لها :

— هذا غلام ابتعته من سوق عكاظ .

واستمرا يتجاذبان أطراف الحديث حتى أعد حكيم بن حزام كل شىء

ليخرج إلى سوق حباشة أعظم أسواق تهامة كلها ، فعادت خديجة إلى دارها وفى رفقتها زيد بن حارثة بعد أن وهبه لها ابن أخيها .

وبلغ حكيم السوق . فلما رأى عامر بن ظرب العدوانى حياه ، وإذا برجل من رجال قافلته ينشد شعر ذى الأصبع العدوانى فى مدح قومه :

ومنهم حكم يقضى فلا ينقض ما يقضى

فالتفت حكيم إليه وقال :

ـــ صدق . إن عامر بن ظرب لا يرد قضاؤه . ما يكون بين العرب نائرة ولا عُضْلة [١] فى قضاء إلا أسندوا ذلك إليه ثم رضوا بما قضى فيه .

وراح رجال قافلة حكيم يقصون الحكم الذى حكم به عامر وذاع أمره بين قبائل العرب ، قالوا : اختصم إليه فى رجل خُنثى له ما للرجل وله ما للمرأة ، فقالوا له :

ـــ أتجعله رجلا أو امرأة ؟

ولم يأتوه بأمر كان أعضل منه ، فقال :

ـــ حتى أنظر فى أمركم ، فوالله ما نزل بى مثل هذه منكم يا معشر العرب !

فاستأخروا عنه . فبات ليلته ساهراً يقلب أمره وينظر فى شأنه لا يتوجه له منه وجه . وكانت له جارية يقال لها سُخيلة ترعى عليه غنمه وكان يعانيها إذا سرحت فيقول .

ـــ صبحت والله يا سُخيل !

وإذا أراحت عليه قال :

ـــ مسيت والله يا سُخيل !

وذلك أنها كانت تؤخر السرح حتى يسبقها بعض الناس . وتؤخر الإراحة حتى يسبقها بعض . فلما رأت سهره وقلة قراره على فراشه قالت له :

---

(١) عضلة : مشكلة غامضة .

ـ مالك لا أبالك ! ما عراك فى ليلتك هذه ؟

ـ ويلك ! دعينى ، أمر ليس من شأنك .

وبعدت عنه جاريته ، ثم عادت إليه وقالت :

ـ ما عراك فى ليلتك هذه ؟

فقال فى نفسه : « عسى أن تأتى مما أنا فيه بفرج » فقال :

ـ ويحك ! اختصم إلى فى ميراث خنثى ، أأجعله رجلا أو امرأة ؟ فوالله ما أدرى ما أصنع وما يتوجه لى فيه وجه .

ـ لا أبا لك ! أتبع القضاء المبال ، أقعده فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة . فهى امرأة :

ـ مسّى سُخيل بعدها أو صبّحى ، فرجتها والله .

وحطت قافلة حكيم وذهب يجوس خلال السوق فرأى ميسرة غلام عمته خديجة ومعه محمد بن عبد الله ، فذهب إليهما فألفاهما قد ابتاعا بزا من بزّ لجَند[1] وغيره مما فى السوق من التجارة ، فاشترى منهما بزا وراح يحادث ميسرة وابن عبد الله ويرقبهما ، فملأ الإعجاب بفتى بنى هاشم جوانحه .

وانقضت أيام السوق الثمانية ، وقفل ميسرة عائدا إلى مكة وهو مأخوذ بخلق محمد قد ملئت نفسه إعجابا بحسن تصرفه ، وكان فرحه برفقته أشد من فرحه بالأرباح الحسنة التى تحققت فى هذه الرحلة .

ودخل الرجال الحرم وطافوا بالبيت قبل أن يدخلوا دورهم ، وما انتهى الطواف حتى هرع ميسرة إلى دار خديجة فلما رأته خفت لاستقباله وقد انتشر فى صدرها شىء من القلق واللهفة ، ودهشت لذلك الذى اعتراها فما أكثر ما عاد إليها ميسرة بالأرباح والأنباء دون أن تضطرب أو تختلج منها خالجة .

---

(١) البز : الثياب . الجند : من أعمال اليمن .

وراح ميسرة يتحدث عن التجارة وعن الربح الحسن الذى تحقق فى الرحلة وخديجة تتململ فى جلستها كأنما تحثه أن ينتهى من ذلك الحديث وأن يخوض فى حديث الفتى الذى خرج معه فى تجارتها لأول مرة ، وكأنما قد قرأ غلامها ما يدور فى رأسها فراح يقص عليها فى إسهاب ما كان من محمد بن عبد الله وهى تصغى إليه فى اهتمام ، يعكس وجهها الجميل الصافى ما يعتمل فى صدرها من انفعالات .

وراح يصف لها خلقه ، إنه تاجر صادق لا يخلف أبدا ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت ، عزيز فى غير قسوة ، كفء لأعظم الأعباء وأفدح الخطوب ، إذا تكلم أسر القلوب ، وإذا قال فقوله الفصل ، لا يدلس ولا يغش ، إذا كان فى البضاعة عيب أبرزه ، إنه الأمين حقا وصدقا .

واستمر ميسرة يتحدث عن ابن عبد الله فى حماسة وخديجة تلقى إليه سمعها وقد انداحت فى جوانبها غبطة وسرت فيها نشوة وطار بها الخيال لتهيم فى الرؤى العذاب التى أوحى بها الحديث عن الأمين : محمد بن عبد الله .

٧

كان القصر خفيف البناء رشيقه ، له خمس قباب تحملها أعمدة فارعة ، فى وسطه محراب ، عليه المعبد قد حمل على أعمدة ؛ إنه قصر دهقان قرية جى من أصبهان .

وفتح باب فى القصر وخرج منه سلمان الفارسى وانطلق إلى حيث كان أبوه الدهقان ، فما أن وقعت عينا أبيه عليه حتى أشرق وجهه بالابتسام وخفق فؤاده بالحب وقال فى رقة :

— كيف أصبحت يا سلمان ؟

وجلس سلمان إلى جوار أبيه يرشف من دنان الحنان ويصغى إلى أعذب الكلام ، فقد كان من أحب عباد الله إلى أبيه الشيخ الذى كان يرى فيه وارث الأرض ووارث مجد السماء ، فقد اجتهد سلمان فى المجوسية حتى كان قاطن النار المقدسة التى يوقدونها ولا يتركونها تخبو أبدا .

وغادر سلمان مجلس أبيه وذهب إلى بيت النار ليرتل الأدعية المقررة للأوقات الخمسة المحددة فى النهار ، ولما انتهى من دعاء مجد النار أخذ كتاب « الأوستا » كتاب زرادشت المقدس الذى فاض بالأساطير والخرافات لما طال على الناس الأمد ، وراح يقرأ فيه قصة بدء الخليقة :

« ظل زروان الإله الأقدم يقدم القرابين زهاء ألف سنة لكى يكون له ولد يسميه أهورا مزدا ، ولكنه فى آخر الأمر أخذ يشك فى فائدة ما قدم من قرابين ، وحينئذ ظهر ولدان فى بطنه [١] أحدهما أهورا مزدا لأنه قدم القرابين ، والثانى أهريمن لأنه شك فيما يفعل ، فوعد زروان من يبدأ بالمثول أمامه منهما بملك الدنيا ، فشق أهريمن بطن أبيه ومثل له فسأله زروان :

— من أنت ؟

فأجابه أهريمن :

— أنا ولدك .

فقال زروان :

— إن ولدى ذكى الرائحة نورانى ، وأما أنت فظلمانى عفن .

---

(١) أو فى بطن زوجه خوشيرك (حسب الأناهيد) .

وفى تلك اللحظة مثل أهورا مزدا منورا ذكى الرائحة فعرف زروان أنه ولده ، وقال له :

ــ إنى كنت أقدم القرابين حتى الآن من أجلك ، فمنذ اليوم تقدمها أنت من أجلى .

ويتقدم أهريمن ليذكر أباه بوعده ، فيقول :

ــ وعدت أن تنصب من يمثل أمامك قبل أخيه على ملك الدنيا .

فقال زروان :

ــ سأهبك حكما مدته تسعه آلاف سنة .

وظل العالمان ، عالم أهورا مزدا عالم النور ، وعالم أهريمن عالم الظلمات ، متجاورين فى هدوء ، والعالمان لا متناهيان من جوانب ثلاثة ، ولكن كلا منهما يحد الآخر فى الجانب الرابع ، فعالم النور فى الجانب الأعلى وعالم الظلمات فى الجانب الأسفل وبينهما فراغ مملوء بالهواء .

ويعيش خلق أهورا مزدا ثلاثة آلاف سنة بالقوة ، وبعد ذلك يرى أهريمن النور ويضمر إبادته ، فيبادر أهورا مزدا الذى يعلم الغيب بأن يعرض عليه حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة ، فيقبل أهريمن وهو لا يعرف غير الماضى .

وينبئه أهورا مزدا بأن المعركة تنتهى بهزيمة عالم الظلمات ، فيفزع أهريمن فيسقط فى الظلمات ويبقى فيها مشلولا ثلاثة آلاف سنة ، فيبدأ أهورا مزدا بخلق الدنيا ، فلما أتمها خلق الثور الأول ، ثم خلق الإنسان الأول ــ كيومرد ــ الذى هو أول البشر . وحينئذ ألقى أهريمن بقوته ضد خلق أهورا مزدا فنجس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات . فأقام أهورا مزدا خندقا أمام السماء ولكن أهريمن يكرر هجماته وينجح أخيرا فى قتل الثور

وكيومرد . وكانت بذور كيومرد مخبأة فى الأرض فنتج منها عند انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوجين من البشر هما « مشيك » و « مشيانك » ، وبدأت بذلك فترة اختلاط الخير بالشر ، النور بالطين .

وأخذ البشر يلعبون دورا فى الحرب بين مملكتى النور والظلمة ، وذلك بانضمامهم حسب أعمالهم إلى جانب الخير أو جانب الشر ، فمن تبع منهم الصراط المستقيم يمر سالما بعد الموت على الصراط « جينوت » ثم يدخل الجنة ، وإذا مر على الصراط أحد الأشرار يدق الصراط ثم يدق حتى يصير كالسيف القاطع فيهوى المجرم إلى جهنم حيث يلقى من العذاب ما يعادل سيئاته .

أما من تعادلت موازينه وكانت حسناته مساوية لذنوبه ، فإنه يقيم فى الأعراف حيث لا عقاب ولا ثواب .

وبعد ثلاثة آلاف سنة من خلق العالم يظهر زرادشت فيهدى الناس إلى الدين الحق . وحينئذ لا يبقى للعالم فى الوجود غير ثلاثة آلاف سنة ، ففى نهاية كل ألف يظهر مخلص « سوشيانس » يولد من بذور زرادشت المخبأة فى إحدى البحيرات . وفى اللحظة التى يولد فيها آخر المخلصين الثلاثة ، المخلص الحقيقى ، تبدأ المعركة الأخيرة فيبعث الأبطال والتنانين الشيطانية لكى يتقاتلوا ، وأخيرا يبعث الموتى جميعا ويقع النجم المذنب على الأرض فتشتعل وتذيب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب . وعلى الناس جميعا الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا هذا السيل ؛ الذى يكون للأتقياء كاللبن الساخن فيطهرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة .

وبعد المعركة الأخيرة بين الآلهة والشياطين ، تلك المعركة التى تنتهى بهزيمة الشياطين وهلاكهم ، يسقط الشر إلى الأبد فى الظلمات وتمد الأرض

وتبسط وتبقى الدنيا المطهرة إلى الأبد فى سكون لا يعكر صفوه .

وراح سلمان الفارسى يقرأ كيف ولدت الأجرام السماوية من زواج أهورا مزدا من أخواته ، وكيف ولد الآله ميترا ، آله العقد ونور الصباح ، الشمس التى لا تقهر من زواج أهورا مزدا من أمه نفسها : زواج زروان ، وراح يفكر فى ذلك الزواج الآلهى الذى جعل الإيرانيين يتزوجون من بناتهم وأمهاتهم وأخواتهم تشبهًا بآلهتهم .

كانت بذور الشك فى ذلك الدين الزرادشتى الذى فسد بما دخل عليه من أساطير وخرافات وشهوات قد بذرت فى صدر سلمان ، وكان يحاول أن يكتم أنفاس ذلك الشك الذى بدأ يعذبه ، ولكنه كان حر التفكير لا يعرف التعصب لدين الآباء بل كان يبغى وجه الحقيقة ، فأطلق لعقله العنان و لم يضع العراقيل فى وجه إرادته الحرة .

وقامت فى نفسه أسئلة راح يبحث فى بطون الكتب الدينية عن تفسير لها يطمئن إليه ذهنه المتوهج الوقاد : لمن كان يقدم الإله زروان القرابين إذا كان هو الزمان والمكان والقضاء والقدر والأول الذى لا أول قبله ؟ وكيف لا يعرف زروان وهو العالم بكل شىء ابنه أهريمان لما شق بطنه وخرج منه ومثل بين يديه فيسأله :

— من أنت ؟!

وأين كان زروان لما شب القتال بين توأميه ، وكيف حفر أهورا مزدا خندقا فى السماء ليصد هجوم أخيه عليه ؟ إنه رأى الخنادق تحفر فى الأرض ولكن عقله قصر عن تصور حفر الخنادق فى الهواء .

أسئلة كثيرة لم يجد لها أجوبة مقنعة فى بطون الكتب الدينية التى قرأها ،

وقصص تموج بها كتب المجوس لا يمكن إلا أن تكون من وضع البشر ، فمولد الآلهة لايفترق فى قليل أو كثير عن مولد الناس ، ونظرة الدين إلى المرأة هى نظرة الرجل إليها ، أحقا عندما أعطى أهورا مزدا المتقين النساء هربن وذهبن إلى أهريمان الشيطان . فلما منح أهورا مزدا المتقين الهدوء والسعادة منح الشيطان النساء السعادة أيضا ، وقد أذن لهن الشيطان أن يطلبن ما يردن ، فخشى أهورا مزدا أن يطلبن الاتصال بالمتقين فيحملهم العذاب ، فبحث عن وسيلة ليبعدهن فخلق الإله نرسائى رسول الآلهة ، ثم وضعه عاريا خلف الشيطان وذلك لتراه النساء فيشتقن إليه ويطلبنه ، فرفع النساء أيديهن إلى الشيطان وقلن له : يا أبانا الشيطان هب لنا الإله نرسائى ؟

إن عقله الحر لا يسيغ هذه القصة ولا القصص الخرافية الكثيرة التى تفيض بها الأوستا ، فهو يرى أثر الوضع والفلسفة فى كل ما يقرأ . ولم يستطع أن يهضم أن لزروان أقانيم خمسة : الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة ، وأن لإله الظلمات عوالم خمسة : هى الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة . ولم يستطع أن يوفق بين هذه الأقانيم والتثليث والتربيع فى ديانته ، واحتار فى الأوامر والنواهى الكثيرة التى ينوء بها البشر ، فقد كان عليه أن يصلى للشمس أربع مرات فى أثناء النهار وعليه أن يصلى للقمر وللنار وللماء ، وعليه أن يرتل الأدعية قبيل النوم وحين يصحو ، وفى أثناء الاستحمام والتمنطق بالحزام ، وفى أثناء الأكل وحين يذهب إلى الضرورة ، وإذا عطس ، وإذا حلق شعر رأسه أو قلم أظافره ، وحين يضىء السراج ، ولا يجوز أن تخبو نار البيت ولا يجوز أن تقع الشمس على النار ، ولا يجوز أن يقترب الماء والنار ، وينبغى ألا تصدأ آنية المعادن فهى مقدسة .

ضاق صدر سلمان بكل هذه الأوامر والنواهى ، وبالمراسيم الضرورية

للتطهير من لمس ميت أو امرأة حائض أو نفساء وخاصة إذا وضعت طفلا ميتا، ويتدخل الدين فى أقل أمور الحياة اليومية شأنا وتعرض الناس ليلا ونهارا لأن يقعوا فى الإثم أو النجاسة لأقل غفلة تبدو منهم . ضاق سلمان بكل هذه التنطعات وهو رجل الدين الذى أصبح قاطن النار التى توقد ولا يتركونها تخبو أبدا .

وقرأ فى الإضافات التى أضافها مانى إلى الأوستا : « إن الحكمة والأعمال هى التى لم يزل رسُل الله يأتون بها فى زمن دون زمن ، فكان مجيئهم فى بعض القرون على يدى الرسول الذى هو « البدْ » إلى بلاد الهند ، وفى بعضها على يد « زرادشت » إلى أرض فارس ، وفى بعضها على يدى « عيسى » إلى أرض المغرب ، ثم نزل هذا الوحى ، وجاءت هذه النبوة فى هذا القرن الأخير على يدى أنا « مانى » رسول إله الحق إلى أرض بابل » .

وطافت بذهن سلمان الأغنية التى تقول على لسان مانى : « إنى جئت من بلاد بابل لأبلغ دعوتى للناس كافة » وتذكر ما قاله مانى من أنه « الفارقليط » الذى بشر به عيسى ، وكيف أن منافسيه وأعداءه كذبوه ، فود سلمان لو درس دين عيسى ليكشف النقاب عن وجه الحقيقة .

وذات يوم أرسله أبوه إلى ضيعته ، وبينا هو فى الطريق مر بكنيسة للنصارى ومس أذنيه صلاتهم مسا رقيقا ، فسار إليها كالمأخوذ فيا طالما تمنى أن تتاح له فرصة مناقشة هذا الدين .

ودخل من باب الكنيسة وراح ينظر ما يصنعون ، فأعجبه ما رأى من صلاتهم وقال لنفسه :

— هذا خير من ديننا الذى نحن فيه .

واتصل برجال الكنيسة وراح يحاورهم ويصغى إلى ما يقولون وقد أفعم

بنشوة روحية أنسته الضيعة التي أرسله أبوه إليها . بل أنسته كل ما فى الدنيا إلا ذلك الحديث الذى أخذ بلبه ومجامع فؤاده .

وراح أبوه يغدو ويروح فى قصره فقد غابت الشمس ولم يعد سلمان ، واستبد به القلق فبعث فى أثره من يبحث عنه ويرى علة ذلك الغياب .

وأعجب سلمان أمر ذلك الدين الذى جاء به عيسى فقال :

ـــ أين أصل هذا الدين ؟

ـــ الشام .

ودخل الذين بعثهم أبوه فى أثره الكنيسة بعد أن أعياهم البحث عنه فألفوه بين يدى الرهبان وقد ألقى إليهم سمعه ولاح فى وجهه الاهتمام ، فنادوه فأفاق من نشوته ولاح الضيق فى وجهه كأنما هبط من السماء إلى الأرض .

وعاد معهم إلى القصر ، وما إن وقعت عينا أبيه عليه حتى قال فى غضب :

ـــ أين كنت ؟

فقال سلمان فى هدوء :

ـــ مررت على قوم يصلون فى كنيسة لهم فأعجبتنى صلاتهم ورأيت أن دينهم خير من ديننا .

وثار الدهقان وقد أحنقه أن ابنه الذى اجتهد فى المجوسية حتى صار قاطن النار ينطق ببساطة بهذا القول ، فراح يؤكد له أن الشيطان أضله وينصحه بأن يتوب عن فعلته الشنعاء ، إلا أن سلمان لم يستجب للنصح فراح أبوه ينهره ويهدده ويتوعده . ولم ينفع فى الراغب فى الحقيقة تهديد ولا وعيد ، بل أصر سلمان على أن دين النصارى خير من دين قومه ، فلم يجد أبوه إلا أن يجعل فى رجليه الحديد ويحبسه حتى يعود إلى ملة قومه وينسى تلك الأفكار المدمرة التى استولت على لبه .

و لم يحس سلمان قسوة السجن والقيود والأغلال فقد كانت روحه حرة طليقة تهيم فى الوجود ، كل ما كان يضايقه أنه لا يستطيع أن ينطلق إلى الشام مهوى ذلك الدين الذى تفتح له قلبه .

٨

انطلق محمد بن عبد الله من دار عمه أبى طالب ومشى يتقلع كأنما ينحط من صبب إلى دار خديجة ليخرج فى عيرها إلى الشام يتجر لها فى مالها . إنه خرج فى أول رجب مع غلامها إلى سوق حباشة بأرض اليمن بينه وبين مكة ست ليال فابتاعا منه بزا ورجعا إلى مكة فربحا ربحًا حسنًا وأنه أجر نفسه من خديجة سفرتين بقلوصين (الشابة من الإبل) . وقد انتهت السفرة الأولى وها هو ذا مقدم على الثانية هادىء النفس مطمئن البال ، فقد مارس التجارة من قبل وكان تاجرًا صدوقًا .

كان شريكًا للسائب بن أبى السائب صيفى ، وكان السائب إذا ما يحدث عنه الشريك لا يدارى (يرائى) ولا يمارى (يخاصم صاحبه) ولا يشارى[1] . إنه كان محظوظا فى سفرته الأولى وكان يأمل أن يزيد حظه فى سفرته هذه ، فهو من قريش وقريش تتمادح بكسب المال والنجاح فى التجارة .

وبلغ دار خديجة فراح مع غلامها ميسرة يعد العدة للرحلة الطويلة ، كان الجو حارًا والعرق يتفصد من الأجساد لكن الرجال كانوا فى غدو ورواح وقد

---

(١) المشاراة فى الأمر : المشاحة واللجاج فيه .

دب فيهم نشاط عجيب ، فابتسامة محمد الرقيقة وكلماته الحلوة ومعونته الصادقة تخفف عن نفوسهم وتمدها بقوة روحية تقهر كل تعب وتعلو على كل الصعاب .

ووقفت خديجة فى علية لها وإلى جوارها نفيسة بنت منية وبعض صويحباتها ومن خلفها الإماء ، وراحت ترقب رجالها وهم يجهزون القافلة فإذا بابن عبد الله يجذب إليه بصرها وانتباهها وخيالها .

وانتهى الرجال من تجهيز عيرات خديجة ، فذهب إليها غلامها ميسرة قبل أن يؤذن بالرحيل ومثل بين يديها يصغى إلى أوامرها ، فقالت له :

ـــ لا تعص لمحمد أمرا ولا تخالف له رأيا .

أحب ميسرة محمدا من قلبه لما خرج معه إلى سوق حباشة ، وكان يستشيره فى أموره كلها لما فطن إلى رجاحة عقله وحسن منطقه ، فما كان فى حاجة إلى وصية سيدته به ، بيد أن تلك الوصية قد كشفت عن مكانة محمد فى قلب خديجة ، فقد استطاع بعد سفرة واحدة أن يستحوذ على ثقتها ، ولم يعجب ميسرة لذلك فابن عبد الله أهل لكل ثقة ، إذا تحدث صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا اؤتمن أدى الأمانة ، فهو الصادق الأمين حقا .

وخرجت قافلة خديجة إلى حيث كانت قوافل قريش ، وكانت قافلتها تعدل قوافل قريش كلها ، وغص المكان بتجارة بنى هاشم وبنى أمية وبنى المغيرة وبنى تيم ، وكان أبو بكر فى قافلة قومه وكان ذلك مما سر له محمد فما كان الصديقان يفترقان وقد أحب كل منهما صاحبه حبا كبيرا .

وجاء أبو طالب والزبير وأبو لهب والعباس وحمزة والغيداق ورجال بنى هاشم ليودعوا الأمين ، وجعل عمومته يوصون به أهل العير ولو أنصفوا لأوصوه بهم ، فقلبه الكبير قادر على أن يسعهم جميعا .

وتعانق الرجال وخفقت القلوب فى الصدور وسالت العبرات على الخدود والوجنات ، وأذن بالرحيل ففصلت العير وانطلقت فى طريقها إلى الشام حتى أطبق عليها الأفق البعيد .

وانسابت القافلة فى ملكوت الله ومحمد وأبو بكر يسيران جنبا إلى جنب يرى كل منهما فى صاحبه الصديق الذى يتعاطف معه وينجذب إليه ويبادله حبا بحب . وكان أبو بكر يرى فى محمد قدوة تقتدى ويؤمن فى قرارة نفسه أنه فى هذه القافلة بل فى مكة كلها أجدر الناس بالاحترام وأولاها بالإجلال ، وكان محمد يحب فى أبى بكر دعته وتواضعه وشجاعته فى إبداء الرأى وعزوفه عن الشهوات وبعده عن الدنايا وحماسته للخير واستقامة ضميره ونقاء سريرته .

ونزلت القافلة منزلا فأخرج الكاهن تمثال الإله فراح رجال القافلة يطوفون به طوافهم بالكعبة ، ووقف محمد وأبو بكر بعيدا لا يتمسحان بالصنم ولا يطوفان به ولا يذبحان له ، وجعل ميسرة غلام خديجة يرقبهما و لم يبد فى وجهه الدهش ، فقد شاع فى مكة أن ابن عبد الله وابن أبى قحافة ممن يستخفون بالأصنام وبأحلام عابديها .

وخطر على ذهن أبى بكر ما كان بينه وبين أبيه لما ناهز الحلم . فقد أخذ أبو قحافة بيده فانطلق به إلى مخدع فيه الأصنام فقال :

— هذه آلهتك الشم العوالى .

وخلاه وذهب ، فدنا من الصنم وقال :

— إنى جائع فأطعمنى !

فلم يجبه ، فقال :

— إنى عار فاكسنى !

فلم يجبه ، فألقى عليه صخرة فخر لوجهه .

واستأنفت القافلة رحلتها فانطلق محمد فى أول الركب يقلب عينيه فى الكون بروح الإيمان والتدين فتمتلىء نفسه روعة وجلالا ويستشعر فى أعماقه أنه فى طريق الحقيقة وأنه قد وجد السبيل إلى إدراك المطلق ، إلى ينبوع السعادة الذى لا ينضب أبدا .

كان يسعد وهو فى الطريق بلذة صافية خالصة ، لذة روحية جعلته يتناسق مع الوجود ويوفق بين نفسه وبدنه ، بل يسمو بذاته فوق رغبات جسده ، فهو فى نزوعه إلى الموجود الأسمى ، إلى الحقيقة المقدسة ، يجعل كل المتاعب المادية دبر أذنه ويعلو على وجوده بفضل تحليقه إلى القوة المتعالية .

ونال التعب والكلال من الإبل والرجال ، ودب الإعياء فى بعيرين لخديجة فتخلفا عن الركب وتخلف معهما ميسرة وراح يحاول أن يحثهما على السير دون جدوى فخاف على نفسه وعلى البعيرين فانطلق يسعى إلى محمد فأخبره بذلك ، فأقبل محمد إلى البعيرين وراح يمسح بيده عليهما فى حنان دافق ، ثم وضع يده على أخفافهما فانطلقا فى أول الركب وميسرة يرنو إلى محمد وقد امتلأ قلبه حبا له وإعجابا به وثقة فيه .

ولاحت بصرى فى الأفق البعيد فصاح الرجال فى فرح :

ـــ بصرى ! بصرى !

وأغذ الركب السير حتى إذا ما بلغت القافلة صومعة نسطورا الراهب نزلت بالقرب منها ، وذهب محمد وصديقه أبو بكر إلى شجرة ونزلا فى ظلها ، ثم ذهب أبو بكر لقضاء حاجة وبقى محمد تحت الشجرة وحده .

وأطل الراهب على قافلة قريش ووقعت عيناه على محمد بن عبد الله فجعل يتفرس فيه ، فرأى شابا وسيما ، معرب الملامح ، أزهر اللون ، ربعة فى

الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالى العنق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين والقدمين ، يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، فأحس كأنما ألقى فى روعه أن ذلك النازل تحت الشجرة هو النبى الأمى الذى بشرت به الأنبياء . وأراد أن يتحقق مما ألم به ، فراح يتلفت بعينيه حتى رأى ميسرة ، وكان يعرفه ، فخرج إليه وقال :

— يا ميسرة . من هذا الذى نزل تحت الشجرة ؟

— رجل من قريش من أهل الحرم .

— أفى عينيه حمرة ؟

— نعم لا تفارقه .

ولم يتمالك الراهب أن انحدر إلى حيث كان محمد وقال له :

— باللات والعزى ما اسمك ؟

وتغير وجه محمد وقال :

— إليك عنى ثكلتك أمك .

وراح نسطورا يحادث محمدا ، يسأله ومحمد يجيب حتى قال نسطورا :

— يا محمد ، قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة ، فأوضح لى عن كتفك .

فأوضح له ، فإذا هو بخاتم النبوة يتلألأ ، فأقبل عليه يقبله ، فظن بعض القوم أن الراهب يريد بمحمد مكرا فانتضى سيفه وصاح :

— يا آل غالب . يا آل غالب .

فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية ، وجاء أبو بكر ينظر ما يريد ذلك

الراهب بحبيبه محمد ، وقالوا :

ـــ ما الذى راعك ؟

فلما نظر الراهب إلى ذلك أقبل يسعى إلى صومعته فدخلها وأغلق عليه بابها ، ثم أشرف عليهم وفى يده صحيفة فقال :

ـــ يا قوم ، ما الذى راعكم منى ؟ فو الذى رفع السموات بغير عمد إنى لأجد فى هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين ، يبعثه الله بالسيف المسلول وبالربح الأكبر ، وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجا ومن عصاه غوى .

وانفض القوم غير مكترثين بقول الراهب . بينا ظل صوته يرن فى أعمق أعماق أبى بكر ويتردد فى أذنى ميسرة غلام خديجة .

٩

كان موظفو المكوس الرومان واقفين على أبواب مدينة بصرى ، وكانوا تابعين لوزير مالية الإمبراطورية الرومانية فى عهد الإمبراطور موريقيوس الذى ألغى نظام المرتزقة فى جيشه ، وكان يحمى عاصمته القسطنطينية والبلاد الخاضعة للنسر الرومانى . وكان الجنود الرومان عند أبواب المدينة يلبسون مغافر من الفولاذ ودروعا من الزرد عليهم عباءات من التيل ، سلاحهم السيف والخنجر والقوس والكنانة والرمح .

وعند باب المدينة الذى ينتهى إليه الطريق القادم من غزة وقفت قافلة قريش ، وتقدم رجالها الذين يجيدون اللغة الرومانية من رجال الحكومة ثم

راحوا يلتمسون الإذن بالدخول ، فأقبل موظفو المكوس يحصون ما فى العير من سلع ويقدرون ما عليها من ضرائب ، فلما اطمأن الموظفون إلى أن عير قريش لا تحمل بضائع محظورا استيرادها لكيلا تنافس البضائع التى تصنع فى الإمبراطورية راحوا يجبون ما قدروا من ضرائب ، فتقدم ميسرة ودفع ما فرض على بضاعة خديجة وتسلم إيصالا ختم بختم الدولة الرومانية .

وانسابت قافلة قريش فى المدينة حتى بلغت السوق فحطت رحالها ، وراح الرجال يتلفتون ؛ كان العلم الرومانى يرفرف على المكان وواجهات المحال قد زينت بالنسر الرومانى ، وغصت السوق بالحرائر والديباج الموشى والأقمشة المقصبة ، ومنتجات الصياغ من أقراط وأساور وأكواب الذهب ، وطرف وتحف ، وبضائع هندية وحراب عربية وسيوف يمنية وطنافس فارسية ، وتوابل من الشرق ، وقد خضع كل ما فى السوق من واردات لرسم العشرة فى المائة الذى حصله جباة المكوس عند مدخل المدينة التى أصبحت تنافس القسطنطينية .

وفاضت حوانيت الصياغ بالناس ، ولم يكونوا جميعا من الراغبين فى شراء الحلى بل كان أغلبهم من المقترضين الذين كانوا يقترضون بفائدة ثمانية فى المائة ، ولولا أن الدولة شرعت هذه النسبة لأكل الرومان الربا أضعافا مضاعفة كما فعل المرابون العرب .

وسقط الليل فانسل بعض رجال القافلة إلى الحانات ودور اللهو يسكرون برشف الكئوس ورشف شفاه بنات بنى الأصفر ، واجتمع بعض الرجال برجال من الشام والروم وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث يروى كل منهم بعض أخبار بلاده وطرفا من أدب قومه ، وراح بعض القرشيين ينشدون الشعر الذى ذاع فى قبائل العرب ، وجعل من يجيدون اللغات يقومون

بالترجمة من لغة لأخرى .

كان فى السوق حلقات سمر وحلقات أدب وحلقات لهو وحلقات للمناقشات الدينية ، وقد عزف محمد عن كل هذه الحلقات وانتحى بعيدا ليخلو بربه يدعوه ويناجيه ، فهو يحس غنى فى قلبه وتفجر ينابيع الحكمة فى جوفه ونقاوة فى فؤاده كلما أسلم وجهه لرب العالمين .

كانت أصوات اللاعبين فى السوق تصل إلى سمعه . وضحكات الماجنين تجلجل فى سكون الليل ، وصيحات السكارى من الرجال والبغايا تهتك غلالات الصمت ، ولكن محمدا أعرض عن كل ذلك المجون فقد كان غارقا فى صلاة فى محراب الوجود ينعم بسعادة روحية صافية تفوق كل ما فى الأرض من نشوة مادية ، إنه اختار جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ، وهو سعيد بذلك الزهد والورع فقد استوى عنده حجر الدنيا وذهبها .

وكان بابتهالاته يقوّى غريزة النور الإلٰهى فى قلبه وينعم بلذة العلم والمعرفة ، وكان علمه يجعل دموع الخوف تنهمر من عينيه ، فهو أخوف أهل الأرض للقوة المتعالية ، فهو أعرفهم بنفسه وبربه ليس له منه ملاذ إلا أن يهرب منه إليه . وإن ذلك الخوف يحرق الشهوات ويؤدب الجوارح ويمحق الكبر والحقد والحسد ويشحذ المراقبة والمحاسبة والمجاهدة ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات .

وظل محمد وحده بين يدى ربه يناجيه والساعات تمر ، وهو غافل عن نفسه وعن كل ما حوله وقد صفا قلبه وملأت النشوة وجدانه حتى طاف به النعاس فنامت عيناه ولم ينم فؤاده .

وأصبح الصباح فدبت الحياة فى السوق فراح محمد وميسرة يبيعان السلع

التى خرجا بها ، وعلى مرمى حجر منهما كان النخاسون يبيعون العبيد والجوارى الذين جلبوهم من الروم ومن الفرس ومن الحبشة ومن قبائل العرب .

وجاء رجل إلى محمد ليشترى منه سلعة وكان بينهما اختلاف فيها ، فقال له الرجل :

— احلف باللات والعزى .

فقال محمد فى حزم :

— ما حلفت بهما قط .

وقرأ الرجل الصدق فى وجهه فقال :

— القول قولك .

كان ميسرة يرقبه فيزداد به إعجابا على مر الأيام ، فهو لين فى البيع لين فى الشراء تتفتح له قلوب الناس ، وقد ألقى الله محبة محمد فى قلب ميسرة فكان كأنه عبده يلبى له أية إشارة وهو راضى النفس مستريح الضمير .

وباع محمد وميسرة ورجال قافلة خديجة متاعهم وربحوا ربحا ما ربحوا مثله من قبل ، فالتفت ميسرة إلى محمد وقال :

— يا محمد ، اتجرنا لخديجة أربعين سفرة ما ربحنا ربحا قط أكثر من هذا الربح على وجهك .

وانتهت أيام السوق فانصرف أهل العير جميعا راجعين إلى مكة ، وانطلق محمد وأبو بكر فى أول الركب ، كانا يأخذان بأطراف الحديث تارة ويلتزمان الصمت طويلا يهيمان وراء ما يدور فى رأسيهما من أفكار ، كان محمد يفكر فى فاطر الأرض والسماء بينا كان أبو بكر يفكر فى حديث الراهب نسطورا وفى ذلك القول الغريب المثير الذى قاله .

إنه أعلن على الملأ أن محمد بن عبد الله هو رسول رب العالمين ، سيبعثه الله بالسيف المسلول وبالربح الأكبر ، فإن كان من فى القافلة لم يحفلوا بذلك القول ، فإنه قد حفر فى ضمير أبى بكر ، ولا غرو فأبو بكر يؤمن بالغيب فيحفل كثيرا بأحلامه وينشرح صدره إذا فسر أحلام الآخرين ولم يكن كأبى طالب يرى أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا بل كان على علم بأن كل الرسل كانوا من البشر .

وكان أبو بكر يلتفت إلى صديقه بين الفينة والفينة ويتفرس فى وجهه فيزداد إيمانا بقول نسطورا ، فالصدق فى محياه ، يعكس وجهه نقاء قلبه وتنم أفعاله عن خلق قويم ، بل خلق عظيم ، فإن بعث محمد بالرسالة لقد جعلت الرسالة حيث ينبغى أن تكون .

واستراحت القافلة فى غزة حيث قبر هاشم العظيم الذى ربط وشائج النسب بين بنى هاشم وبنى النجار من الخزرج وأقام جسرا من الصلات الطيبة بين مكة ويثرب ، وقد زاد تلك الصلة توكيدا جسد عبد الله الذى قبر فى دار بنى عدى بن النجار .

واستأنفت الرحلة حتى إذا ما بلغت القافلة أيلة (العقبة) نزلت بها وهى آخر منزل فى البلاد الخاضعة للنسر الرومانى ، فلما التقطت القافلة أنفاسها راحت تضرب فى البيداء حتى إذا ما بلغت مر الظهران ، وهو واد بين مكة وعسفان ، قال ميسرة لمحمد :

ــ هل لك أن تسبقنى إلى خديجة فتخبرها بما صنع الله لها على وجهك ؟

فركب محمد وتقدم حتى دخل مكة ساعة الظهيرة ، فطاف بالبيت ثم انطلق إلى دار خديجة ليخبرها بما ربحت .

كانت خديجة فى علية لها مع نساء ، فرأت محمدا حين دخل وهو راكب

على بعيره فخفق قلبها فى شدة ، وكأنما أرادت أن تؤكد لقلبها الواجف أنه هو . فأرته نساءها فقالوا إنه ابن عبد الله . فهرعت إليه لتستقبله وهى تضرب لا تدرى حقيقة ما اعتراها ، فلطالما عاد إليها الرجال من تجارتها بالأرباح دون أن تحس مثل هذه الإحساسات التى تهجس فى وجدانها .

ودخل عليها محمد ، إنه ظاهر الوضاءة أبلج الوجه وسيم قسيم فى عينيه دعج وفى أشفاره وطف وفى صوته صحل يخبرها بما ربحوا ، إنه ضعف ما كانت تربح . فبدا عليها السرور ، وتحدثت فأصغى ملتفتا إليها بكل جسمه ، فقد كان يحسن الإصغاء ويحسن الصمت ويحسن الكلام ، فإن صمت فعليه الوقار وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، تتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم .

وقالت :

— أين ميسرة ؟

قال :

— خلفته فى البادية .

فقالت فى لهفة :

— عجل إليه ليعجل بالإقبال .

كانت فى شوق لأن تسمع من غلامها ميسرة أخبار محمد وما فعل الأمين فى رحلته ، فقد فكرت فيه كثيرا مذ غادرها إلى أن عاد إليها ، فهى تحس إحساسا غامضا أن سيكون لابن عبد الله شأن عظيم ، شأن لم يبلغ مثله أحد من العرب .

ودخل عليها ميسرة فأقبلت عليه تسأله عن محمد ، فراح يقص عليها ما كان من نسطورا الراهب وما كان من الرجل الذى استحلفه فى البيع وما كان

من أمره مذ خرج معه إلى أن عاد إلى مكة . وما انتهى ميسرة من حديثه حتى ذهبت خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وأخذت تقص عليه ما حدثها به غلامها ميسرة ، فقال لها :

ـــ إن كان هذا حقا يا خديجة ، إن محمدا نبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر هذا زمانه .

١٠

شغلت خديجة بحديث ميسرة عن محمد بن عبد الله ، وبقول ابن عمها ورقة إن محمدا نبى هذه الأمة ، واحتل الحلم الذى رأت فيه الشمس تهبط من سماء مكة لتستقر فى دارها أقطار رأسها ، وراح صوت ورقة يرن فى أعماقها : « أبشرى يا بنة العم ، لو صدق الله رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك ، وليفيضن منها نور خاتم االنبيين » .

وسرت فى بدن خديجة قشعريرة ، ومدت بصرها إلى مكة من خلال نافذتها فإذا بها ترى بعين بصيرتها أن النور قد فاض من دارها ليغمر أم القرى وكل ما يمكن أن يتصوره عقلها من آفاق ، فتحركت فيها مشاعر امتزجت فيها الرهبة بالنشوة بالرجاء ، مشاعر تتفتح لها النفس وتلذ الروح ،

وملأت صورة محمد صفحة خيالها ، وما كانت صورة مادية جميلة يتحرك لها الجسد ؛ بل كانت أقرب إلى هالة من نور تشرح الصدر وتملأ النفس نقاء وضياء وتوقظ فى الوجدان عوامل الخير ، فهى تحس ذاتها تسمو لتحلق فى عوالم فاضلة حرة طليقة .

وأرهفت حواسها فراحت تفكر فى محمد نبى هذه الأمة ، وتسبر أغوار نفسها : أأحبت فيه الشاب الوسيم القسيم أم أحبت ذلك المجد المرتقب ؟ إنها كلما جلست إليه شعرت كأن نورا ينسكب فى جوفها ، وكلما ألقت إليه سمعها أحست الحكمة تملأ فؤادها ، فهى تحب فيه روحه القوية التى تبهر كل الأرواح وتجذبها إليها طوعا .

إنه خلق ليكون سيدا ، راعيا للبشر ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، فهو لطيف المحضر ، يصل الرحم ويصدق الحديث ، فهو أصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، لكأنما قد خلق من مكارم الأخلاق فهو على خلق عظيم .

وطافت بذهنها ذكرى يوم العيد الذى خرجت فيه نساء مكة إلى الكعبة ، لقد جاء فى ذلك اليوم يهودى إلى الحرم وقال : « يا معشر نساء قريش ، إنه يوشك فيكن نبى قرب وجوده ، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشا له فلتفعل » . ومذ ذلك اليوم وهى ترجو أن تكون له فراشا ، بل لقد ألقى فى روعها أنها زوجة ذلك النبى المنتظر .

إنها رأت الشمس تهبط إلى سماء بيتها قبل أن يرن صوت اليهودى فى جنبات البيت العتيق ببشارته ، فلم يكن حلمها استجابة لرغبتها بل كانت رؤياها صادقة نزلت من السماء تمهد لها الطريق الذى اختارته لها ، ثم جاء ذلك اليهودى ليؤكد فى نفسها حقيقة الحلم الذى فسره لها ورقة ابن عمها .

كانت تطلق لخيالها العنان ليحلق كيف يشاء وراء ذلك النبى الأمى الذى طالما حدثها عنه ورقة ، وما كانت تتصور شخصا بعينه ، ولكن بعد أن حدثها غلامها ميسرة عما فعله محمد فى أثناء الرحلة وعما قاله عنه الراهب نسطورا صارت ترى محمدا فى يقظتها ومنامها ، وأصبحت على يقين من أن

الله سيجعل رسالته فى ابن عبد الله ، فهو خير أهل مكة وأفضل أهل الحرم ، فإذا لم تكن النبوة فيه ففيمن تكون ؟ فهى لا ترى غيره يصلح لها ، وكل الرهبان والكهان قد بشروا به حتى ابن عمها الذى أنفق عمره فى النظر فى الكتب المقدسة قال لها إنه نبى هذه الأمة .

وملأتها رغبة فى أن تكون له فراشا لتحقيق رؤاها وأحلام يقـظتها ، وطفقت تفكر فيما تفعله ، أتعرض عليه نفسها كما عرضت ابنة عمها رقيقة بنت نوفل نفسها على أبيه عبد الله ؟ رأت رقيقة فى وجه عبد الله شيئا غامضا جذابا يستولى على لبها ويشدها إلى ابن عمها عبد المطلب ، فلما نذر أبوه أن يذبحه ذهبت نفسها شعاعا وكادت كبدها أن تنفطر أسى ، ولكن سرعان ما عادت إليها بهجتها لما علمت أن ربه قد قبل أن يفديه بمائة من الإبل ، وعاد إليها الأمل فذهبت إلى الفتى الجميل وعرضت عليه أن يدخل بها الساعة وله مثل الإبل التى نحرت عنه فداء . ولكن عبد الله تزوج آمنة بنت وهب فى تلك الليلة ، ومرت أيام الخلوة ثم جاء إلى رقيقة يعرض عليها نفسه فلم تجد ما كانت تجد فيه من جاذبية وسحر .. فقد ذهبت آمنة بما كان يتلألأ فى وجهه ، وإن خديجة لتفطن وهى فى شرودها إلى أن نور النبوة قد انتقل من عبد الله فى ليالى الخلوة إلى زهرة بنى زهرة ، آمنة بنت وهب .

إن كان ذلك الشرف قد فات رقيقة بنت نوفل فهى حريصة على ألا يفوتها شرف أن تكون فراشا لرسول الله ، ولا غرو فهى مفطورة على الدين غرس فيها ابن عمها ورقة بن نوفل شغفها بالأديان ، فكثيرا ما كان يروى لها ما يطالع فى كتب اليهود والنصارى وكان أقرب الحديث إلى قلبها حديث الدين .

إنها تخاف إن عرضت نفسها على محمد أن يفلت منها كما أفلت أبوه عبد الله من رقيقة بنت عمها من قبل ، وإن خير ما تفعله أن تبعث إليه من يشجعه على

خطبتها ، ولكنها لم تعد تطيق الصبر فقد عاد إلى قلبها نبضه وحرارته بعد أن أغلقته دون أشراف قومها الذين سعوا إليها يلتمسون منها أن تكون لهم زوجة .

أصبحت ترى أن محمدا كفء لها ، بل صارت تحس أنها أسيرة روحه القوية التي تخشع لها روحها وتتهلل بالفرح فى نفس الوقت ؛ إنها خشية المنتشي وخضوع المحب واستسلام الراغب فى الفناء فيمن يعشق .

وهفت روحها إليه . واستبدت بها رغبة عارمة تحرضها على أن تبعث إليه تناجيه وتفضي إليه بمكنون نفسها ، إنها لا تريد أن تطارحه الهوى فهى الطاهرة وسيدة نساء قريش ، بل تريد أن تحدثه حديثا فيه تلميح يحضه على أن يطرح حياءه ويقدم على خطبتها .

ونادت إحدى جواريها وطلبت منها أن تنطلق إلى دار أبى طالب وأن تطلب من محمد أن يوافيها ، فذهبت جاريتها إلى الدار وسألت عن محمد بن عبد الله ، فلما جاءها بلغته رسالة مولاتها .

وذهب محمد إلى عمه أبى طالب واستأذنه فى أن يتوجه إلى خديجة فأذن له ، وما كاد محمد يغادر الدار حتى نادى أبو طالب جاريته تبعة وقال لها .

ـــ انظرى ما تقول له خديجة .

وانسلت الجارية فى أثرة تترقب خشية أن يكشف أمرها .

وسار محمد إلى غرفة الاستقبال فهو يعرف طريقه ، فكثيرا ما كان يقول لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما وكان محمد يعجب بغنى نفسها وحسن خلقها .

وجاءت خديجة خافقة القلب مضطربة النفس ، ثم أخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها ثم قالت :

ـــ بأبى أنت وأمى ، والله لا أفعل هذا لشيء ولكنى أرجو أن تكون أنت النبى الذى سيبعث ، فإن تكن هو فاعرف حقى ومنزلتى وادع الإله الذى سيبعثك لى .

فقال محمد فى لهجة صادقة :

ـــ والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندى ما لا أضيعه أبدا ، وإن يكن غيرى فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا .

ووقفت تبعة تنظر وهى مأخوذة ، فقد خيل إليها أن نورا لطيفا يغمر المكان وأن عبيرا طيبا قد ملأ روحه وظلت فى مكانها مشدوهة لا تريم ، حتى إذا ما انصرف محمد وقد أطرق حياء رجعت إلى أبى طالب لتقص عليه ذلك اللقاء العجيب .

١١

جعل والد سلمان فى رجلى ابنه قيدا مخافة أن يفر إلى الكنيسة وأن يعتنق النصرانية ويهجر المجوسية دين الآباء والأجداد ، وقد وقر فى ذهن الأب أن اضطهاد ابنه الحبيب سيشفيه مما ألم به ، ولم يدر دهقان قريته العارف بالفلاحة وما يصلح الأرض أن القهر لا يصلح النفوس الكبيرة التى تلتمس وجه الحقيقة بل يزيدها عزما وإرهافا .

واتخذ سلمان من أحد خدم أبيه الذين كانوا فى غدو ورواح بين القصر الصغير والضيعة العظيمة ، صديقا كان يحمل إليه أنباء الكنيسة التى يمر عليها فى ذهابه وإيابه ، وذات يوم بعث سلمان إلى النصارى ، بعد أن برحه الشوق إلى الانطلاق إلى الشام أصل الدين الذى استولى على كل تفكيره ، فقال لهم :

ـــ إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم .

ومرت الأيام وسلمان لا هم له إلا التفكير فيما سمع من رهبان الكنيسة وفيما قرأ فى أوستا زرادشت التى زخرت بخرافات البابليين والإيرانيين لما طال على الناس الأمد ، فيزداد إيمانا بأن دين النصرانية خير من دين آبائه ، ويزداد شوقا إلى الهجرة إلى الشام فى سبيل أن يميط اللثام عن الحقيقة .

وجاء إليه صديقه وقال :

ـــ قدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى .

فبعث مع صديقه رسالة إلى الكنيسة :

ـــ إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم .

وراح التجار يبيعون منتجات الشام ويشترون حرير الصين والطنافس الفارسية والبضائع الهندية ، حتى إذا ما تأهبوا للرحيل بعث رجال الكنيسة إلى سلمان قائلين :

— إن تجار الشام يتأهبون للرجعة إلى بلادهم .

فألقى سلمان الحديد من رجليه وفر من بيت أبيه وكان أحب خلق الله إليه ، لم يزل حبه إياه حتى حبسه فى بيته كما تحبس الجارية ، وانطلق إلى الكنيسة خافق القلب تملأ جوانحه نشوة ، يستشعر أنه يستنشق أول نسائم الحرية الروحية ، فقد كان أسير نظام روحى وقد كسر القيود التى تشده إلى ذلك النظام ليختار بمحض إختياره ما تطمئن إليه نفسه من عقائد ، فالحرية لا تنفصل عن إرادة الحرية .

إن الحرية لا تتطور ولا تنمو إلا بالعائق والاختبار والتضحية ، فهى فى صميمها جهاد دائب وصراع مستمر من أجل التحرر ، وقد تخطى سلمان أول عائق قام فى سبيل تحرير ذاته من أسر نظام روحى موروث تختنق فى نطاقه كل حرية وكل شخصية ، فهو يريد أن يحقق ذاته ودون ذلك آلام وجهاد ومشقة ، وقد وطد النفس على أن يتحمل كل ألم وكل عذاب فى سبيل أن يصل إلى جوهر الحقيقة .

إنه يرفض حياته الناعمة ويضحى بضيعة أبيه العظيمة وينتزع ذاته انتزاعا أليما من أرض منبتها ليهيم فى الوجود ، مخلفا وراءه سعادة مادية رخيصة ميسورة فى سبيل الحصول على سعادة روحية عالية تتقاصر أمامها كل سعادة .

إنه يريد أن يتحرر من عبودية حبه لأهله . من عبودية حبه لأرضه ، من عبودية خضوعه لتقاليد مجتمعه ، من عبودية دين آبائه وأجداده ، ليعلو على نفسه حتى يصل إلى غاية غاياته ، إلى انتصاره الروحى .

وخرجت قافلة التجار النصارى قاصدة الشام ، وخرج سلمان الفارسى

معهم و لم يحس بالقلق ولا بدوار الحرية ، ذلك الشعور الحاد الذى يغمر الإنسان حينما يتحقق من أنه قد قذف به إلى سلوك سبيل بدون إرادته ، لأن سلمان قد اختار طريقه بمحض اختياره ومطلق حريته ؛ بل كان يستشعر انشراحا تغمره تلك النشوة التى يسعد بها الحاج المؤمن المنطلق إلى قدس أقداسه .

وانسابت القافلة بين السهول وفى البيداء فى طريق معبد مهدته الدولة الساسانية لضمان مواصلات سريعة مريحة بين الحكومة المركزية وإدارة الأقاليم ، وبين وقت وآخر كانت خيل البريد تمرق بالقافلة مروق السهم وكان بعض العدائين يسابقون الريح ، إنهم سعاة للبريد يستخدمون فى الأقاليم الإيرانية الخالصة حيث المسافات بين المحطات أقصر كثيرا جدا مما هى فى البلاد السورية أو العربية .

وكان سلمان يتلفت وهو مشدوه ، إنه يلقى بنفسه فى أحضان الطبيعة الواسعة لأول مرة بعد أن كانت كل دنياه منزل أبيه الدهقان فى قرية جى وضيعته والطريق بين الدار والضيعة والفلاحين الذين يعملون فى أرض أبيه كالرقيق ، والعبيد الذين يبذلون العرق والنفس فى سبيل أن يكنز سيدهم الدهقان الذهب والفضة .

ونزلت القافلة منزلا فى الطريق فإذا بموظفى الدولة الساسانية يحصلون المكوس ، فقد كان ذلك آخر منزل بين حدود الدولة الفارسية والدولة الرومانية ، والتف التجار النصارى فى جنح الليل فى حلقة راحوا يتحدثون فى أمور الدنيا والدين وسلمان يصغى إليهم ، فقد كانت دنيا جديدة تتفتح أمام بصره وبصيرته بجمالها وسحرها وحكمتها .

واستأنفت القافلة رحلتها فراحت تضرب فى الصحراء الواسعة المترامية ،

والشمس والقمر يتعاقبان فى القبة الزرقاء التى كانت توشى بسحب بيضاء وأفق أحمر وظلال داكنة لا تثبت على حال . فتتابع صور رائعة تبده العقول وتسبى الألباب ابتدعتها يد الفنان الأعظم .

وفى الواحات كانت ترتفع أشجار النخيل سامقة جليلة ، وقد هزت روعة تلك الأشجار قلب سلمان وكان أثرها فى نفسه أعمق من أثر أبراج الآلهة العالية التى رآها فى أرض بابل ، فقد رأى فى النخيل قدرة الله بينا لم ير فى الأبراج التى عرجت إلى السماء فى ثمان طبقات متدرجة غير قدرة الإنسان .

وراح سلمان يقلب وجهه فى الكون العريض وهو مشدوه تهز الخضرة وجدانه وتملأ الصحراء الجرداء قلبه خشية من رب الأرض والسماء ، وانسابت القافلة فى أرض الشام فاستشعر كأنما قد ملىء بروح الله ، فخر ساجدا فى محراب الرب ودموعه تتساقط على الأرض .

وجاس سلمان خلال الديار ينظر ويتلفت ويلقى سمعه إلى أحاديث الناس ، حتى إذا بلغ كنيسة عظيمة وقف عندها وقال :

ــ من أفضل أهل هذا الدين ؟

قالوا :

ــ الأسقف فى الكنيسة .

كان متعطشا إلى المعرفة فأراد أن ينهل من نبع العلم ، فلما أرشد إلى الأسقف ذهب إليه وهو مأخوذ بالصلوات الحارة التى كانت تتردد فى جنبات الكنيسة فيحسها شذى عطرا فى روحه الهفهافة التى تود لو تنطلق لتعانق كل الوجود .

وجاء الأسقف وهو يضطرب من النشوة فقال له :

ــ إنى قد رغبت فى هذا الدين ، فأحببت أن أكون معك وأخدمك فى

كنيستك فأتعلم منك وأصلى معك .

فراح الأسقف يصغى إليه ويتفرس فيه ، حتى إذا ما انتهى من حديثه قال له :

— ادخل .

فدخل سلمان وهو يكاد يطير من الفرح ، كل أمانيه قد تحققت ، فما كان يريد إلا العلم ووجه الحقيقة وقد ساقه الله إلى أفضل أهل النصرانية علما ، ويسر له أن يمكث فى الكنيسة لا يشغله عن عبادته شاغل بعد أن وهب له نفسه .

وراح الأسقف يلقى مواعظه على الناس فتطفر الدموع من العيون ، وكان سلمان أكثرهم بكاء ، فبيان الرجل يمس كوامن الرحمة فى النفوس ، وأمرهم بالصدقة ورغبهم فيها حتى جادوا بأموالهم عن رضا طمعا فيما وعدهم من ثواب فى الآخرة .

وجمع الأسقف الذهب والورق وسلمان يتهلل فرحا فسيدخل ذلك المال السرور على قلوب الفقراء والمساكين ، وذهب الأسقف بما جمعه إلى غرفته فحسب سلمان أن الرجل أمين على مال الله حتى ينفقه فى وجهه .

وجاء الفقراء إلى الكنيسة يلتمسون العون فلم يعطهم الأسقف شيئا ، ولم يخامر سلمان الشك فيه فلعله لسبب لا يدريه آثر أن يبقى ما عنده من أموال ليعطيها الفقراء فى المواسم والأعياد .

وراح الأسقف يلقى المواعظ ويجمع الذهب والورق ولا يعطى الفقراء شيئا ، وفطن سلمان إلى أنه رجل سوء وأنه يكتنزه لنفسه ، وقد تأكد له جشعه لما وجد أنه قد جمع سبع قلال من ذهب وورق .

أيكفر سلمان بذلك الدين لأن أسقفا قد خان الأمانة ؟ إن العيب فى

الرجل لا فى الدين ، وبقى سلمان على دينه يجتهد فى عبادته وإن ألقيت كراهية ذلك الرجل فى قلبه ، وتلقى سلمان درسا أن لا خير فى علم لا يصدقه عمل وأن علم العالم للناس أما فجره فعليه .

ومات الأسقف فاجتمع رجال الدين ليدفنوه بما يليق به من مراسيم ، فأضيئت الشموع وألقيت العظات وأقيمت الصلوات وسلمان يعانى صراعا رهيبا فى نفسه . أيتكلم أم يصمت ؟ أيفضح الرجل أم يستره ؟ وإذا ستره ألا يكون منافقا آثما فى حق الله ؟ ولم يستطع أن يطوى خداع الأسقف وفجره فتقدم وقال :

— إن هذا كان رجل سوء .

وصوبت أنظار الإنكار إلى سلمان ، ولاحت دهشة مشوبة بغضب فى الوجوه ، وقبل أن تنبعث أصوات الزجر قال سلمان فى انفعال :

— يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها . فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئا .

فقالوا له :

— وما علمك بذلك ؟

— أنا أدلكم على كنزه .

— فدلنا عليه .

وسار سلمان إلى غرفة الأسقف وهم خلفه فأراهم موضع الكنز ، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا ، فلما رأوها قالوا فى غضب :

— والله لا ندفنه أبدا .

وصلبوا أفضل أهل النصرانية علما ورجموه بالحجارة .

وجاء أسقف جديد ليملأ مكان الأسقف الراحل ، فراح سلمان يرقبه فى

حذر فألفاه يستغرق فى صلاته زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة ، يتهجد الليل ويجتهد فى العبادة بالنهار ، فأحبه حبا لم يحبه شيئا قبله ، وأقبل عليه متفتح النفس يحسب أنه قد بلغ غايته ، ولم يدر فى خلده أنه لم يقطع إلا خطوة على طريق الحقيقة الخالدة .

١٢

خرج الإخوة ياسر والحارث ومالك من مذحج باليمن قاصدين مكة فى طلب أخ رابع لهم ، وقد أخذوا ينقبون عن أخيهم دون جدوى ، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن وبقى ياسر فى أم القرى إلى جوار البيت العتيق ، ولما كان غريبا عن الديار فكان عليه أن يحالف أسرة من الأسر القوية ليكون فى جوارها وحماها ، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومى .

وأحب بنو مخزوم ياسرا ، وكان أبو حذيفة ينادمه ، وتوطدت أواصر الصداقة بينهما حتى إن أبا حذيفة زوجه أمة له يقال لها سُمية بنت خياط فولدت له عمارا ، فأعتقه أبو حذيفة ، وعرف عمار بن ياسر بمولى بنى مخزوم .

وشب عمار فى دور بنى مخزوم ، ولكنه لم يصادق فتيانهم فقد كان أبو الحكم بن هشام (أبو جهل) أسن منه ، وكان عمر بن الخطاب أصغر منه ، ووجد فى محمد بن عبد الله الصديق الذى تفتح له قلبه .

كان عمار ترب محمد ، وكان يرافقه فى غدوه ورواحه ، وفى ذات يوم بينا كان محمد وعمار يسيران أمام دار هالة بنت خويلد إذا بهالة تنادى :

ـــ عمار .. عمار .

فانصرف عمار إليها ووقف له محمد ينتظر أوبته فقالت :

ـــ أما لصاحبك هذا من حاجة فى تزويج خديجة ؟

فانبسطت أسارير عمار وخف إلى محمد وقال :

ـــ أما لك من حاجة فى تزويج خديجة ؟

فخفق قلب محمد ، ورفت بسمة حلوة على شفتيه فتألقت أسنانه المفلجة البيضاء وقال :

ـــ بلى لعمرى .

فعاد عمار إلى هالة فذكر ذلك لها فأسرعت إلى أختها تزف إليها البشرى ، فما أن مس صوت هالة أذنيها حتى راحت أهازيج الفرح تشدو فى جنباتها ، وحلقت رؤاها المجنحة فى عوالم من الأمل والنشوة ، فها هى ذى أحلامها توشك أن تتحقق . إنها رأت الشمس تنحدر من سماء مكة لتستقر فى دارها لتشع منها نورا على ربوع أم القرى وتغمر كل الآفاق من حولها ، وإن هى إلا أن يغدو محمد عليها إذا أصبحت ويخطبها حتى يتبدل الخيال حقيقة واقعة ، فقد وقر فى عين ذاتها أن محمدا هو النور الذى أشرق في منامها .

وجاء الليل ولم يغمض لخديجة عين ، كانت تفكر فى محمد وتتعجل النهار ، وتراه بعين خيالها وهو قادم إليها يخطبها فيخفق الفؤاد وترفرف الروح فى أجواء النشوة ويمتلىء الوجدان بحب صوفى ينزع إلى التعالى ، حتى إنها من فرط سعادتها كان يخيل إليها أنها ارتفعت عن الوجود ، وأنها لا تستنشق هواء الأرض بل إن شهيقها قد بات عبير مجد الدنيا .

ورن فى جوفها صوت غلامها ميسرة رنينا عذبا كأنه هديل الحمام : وإنه يتحدث عن محمد حديثا يقطر رقة وإعجابا ودهشة وإجلالا ، وإنه لمن عجب

أن يحب ميسرة محمدا كل ذلك الحب وأن يستولى على فؤاده وهو الذى ينافسه فى تجارة خديجة . إنه كان سيد القافلة قبل أن يعمل محمد لها وإذا بها تقول له بعد أن صار محمد من رجالها : لا تعص له أمرا ولا تخالف له رأيا . فلا يكتفى بأن يمتثل لما يؤمر به بل يطيعه كأنه عبده ، ويحبه حبا يدفعه إلى أن يتهدج صوته وهو يروى لسيدته حسن خلقه وبركاته وما تنبأ به نسطورا .

وطفا ما قاله نسطورا على سطح ذهنها : فوالذى رفع السموات بغير عمد إنى لأجد فى هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين . فسرت فى بدنها رعدة واشتد وجيب قلبها وأحست أنها كلها تخفق كجناح حمامة .

كانت تخشى أن يحقد ميسرة على محمد وأن يحسده ، وإذا بمحمد يستولى على قلب غلامها بل على أفئدة كل رجال القافلة ، وسيدة نساء قريش الحازمة الجلدة الشريفة ! إنه لعلى خلق عظيم .

وجاء الصباح وانتظرت خديجة أن يغدو محمد ليخطبها ولكن الوقت راح يمر دون أن يقبل محمد ، فلم يتطرق إلى ذهنها أنه زاهد فيها وهى التى يحرص كل أشراف قومها على نكاحها لو قدروا على ذلك ، بل عزت ذلك إلى ما تعرفه فى محمد من حياء .

وجاءت إليها صديقتها نفيسة بنت مُنية فراحت تقص عليها ما كان بين عمار بن ياسر وأختها هالة وما كان من انتظارها لمحمد ، ثم عرضت عليها أن تذهب إلى محمد خفية تسأله عما يمنعه أن يتزوج .

وخرجت نفيسة إلى دار أبى طالب واستأذنت فى أن تلقى محمدا ، فجاء إليها فقالت له :

— يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال :

ــ ما بيدى ما أتزوج به .

قالت :

ــ فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب ؟

قال :

ــ فمن هى ؟

قالت :

ــ خديجة .

قال :

ــ وكيف لك بذلك ؟

قالت :

ــ دعنى وأنا أفعل .

وعادت نفيسة إلى خديجة يتألق وجهها بالبشر وراحت تقص عليها ما كان بينها وبين محمد وخديجة تصغى إليها فى اهتمام ، حتى إذا ما قالت لها صديقتها إنه حريص على زواجها لم تستطع أن تتريث ؛ فأرسلت إليه مولاة لها تقول له : ائت الساعة .

كان محمد عائدا بعد طوافه بالكعبة فالتقى بكاهنة ، فلما رأته قالت :

ــ جئت خاطبا يا محمد .

لم يكن محمد قد أطلق لأمانيه العنان و لم يكن يفكر فى الذهاب إلى دار خديجة فحياؤه يمنعه ، وهو لا يدرى إن كانت هالة قالت ما قالت من تلقاء نفسها أم من وحى أختها ، وما كان يعرف أن خديجة قد أرسلت نفيسة دسيسا

إليه فقال :

— لا .

فتفرست فيه طويلا ثم قالت :

— ولم ؟ فوالله ما فى قريش امرأة تليق بجلالك وبهائك غير خديجة ، وإنها تراك كفئا لها .

وذهب فى سبيله فإذا بمولاة خديجة تلقاه وتلتمس منه أن يوافى مولاتها الساعة .

فانطلق محمد إلى دار خديجة فإذا بها تقول له :

— يا محمد ألا تتزوج ؟

قال :

— من ؟

قالت :

— أنا .

قال :

— ومن لى بك ؟ أنت أيم قريش وأنا يتيم قريش .

قالت :

— يا بن عم ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسِطَتِك [١] فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك . اذهب إلى عمك فقل له تعجل إلينا بالغداة .

---

(١) مأخوذة من الوسط ، والوسط من أوصاف المدح والتفضيل .

وجاء أبو طالب ومعه ابن أخيه فقالت له :

ـــ يا أبا طالب ، تدخل على عمي فكلمه يزوجنى من ابن أخيك محمد بن عبد الله .

فقال أبو طالب :

ـــ يا خديجة لا تستهزئى .

فقالت فى انفعال :

ـــ هذا صنع الله .

وجاء محمد وأعمامه أبو طالب وحمزة والعباس والزبير والغيداق ، وصديقاه أبو بكر وعمار بن ياسر ، ودخلوا على عمها عمرو بن أسد ، فإذا بابن عمها ورقة بن نوفل وابن أخيها حكيم بن حزام جالسين معه . وكان ابن أخيها الزبير بن العوام غلاما يلهو مع الغلمان ، وكانت أمه صفية وخالته عاتكة عند خديجة مع صويحباتها وإمائها ، وما كان أحد يقدر خطر تلك اللحظة مثل خديجة الطاهرة سيدة قريش ، فكأنما قد رفع عن بصيرتها الحجاب فرأت مستقبلها مع الأمين الذى تنتظر الأمم مبعثه .

وقام أبو طالب يخطب فقال :

ـــ الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه ، وجعله لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا أحكام الناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونشا .

فقام ورقة بن نوفل فقال :

ــ الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتهم وأنتم أهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، ورغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا علىّ معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله .

فقال أبو طالب :

ــ قد أحببت أن يشركك عمها .

فقال عمها :

ــ اشهدوا علىّ معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد .

ونحر محمد جزورين وأطعم الناس ، وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف . وفرح أبو طالب فرحا شديدا وقال :

ــ الحمد لله الذى حبانا بالخير ، ووهبنا النعمة ، ورزق ابن أخى بأحسن ما يرزق به عباده المخلصين .

ثم سكت قليلا .. وقال :

ــ ليكونن لهذين الزوجين شأن عظيم !!

١٣

رفرفت السعادة بأجنحتها على بيت خديجة ، فقد وجدت الطاهرة فى محمد خير الأزواج ، فهو لطيف المعشر، سابغ العطف يحيط به كل

إنسان وكل حى وكل شيء ، قلما يغضب وإن غضب لا يخنه حلمه ، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين من أثر الغضب .

إنه ليس بفظ ولا غليظ القلب ، قد وسع حبه جاريته بركة الحبشية فأخذها معه لما انتقل إلى دار الزوجية وأكرمها وغمرها بحنانه ، وفاض قلبه الكبير رقة مست قلوب أبناء خديجة فإذا ما جاءوا لزيارتها هرعوا إليه وارتموا فى أحضانه فيضمهم إلى صدره الحنون الذى يعطف على كل الوجود .

وكان هند ابن خديجة عند أمه بعد زواجها من الأمين ، فكان ربيب محمد سعيدا غاية السعادة أن يشب فى كنف أصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة .

ووسع حبه زيد بن حارثة ، ذلك الفتى الذى اشتراه حكيم بن حزام من سوق عكاظ ووهبه لعمته خديجة ، وقد تعلق محمد بزيد وأحب زيد محمدا حبا لم يحب أحدا مثله من قبل ، وقد فطنت خديجة إلى ما بين زوجها الكريم ومولاها من حب أبوى فوهبت لزوجها زيدا فأعتقه ، ولم يكتف بأن رد إليه حريته السليبة بل شرفه بأن نسبه إلى نفسه فكان زيد بن محمد ﷺ .

وكان الزبير بن العوام ابن أخى خديجة إذا ما جاء إلى دار عمته يهرع إلى محمد يصغى إلى عذب حديثه ، فلم يكن محمد زوج عمته وحسب بل كان ابن خالة عبد الله ، فصفية أم الزبير بنت عبد المطلب كانت عمة الرجل الذى لا يملك من خالطه إلا أن يحبه .

وكان فتيان بنى أسد يطوفون ببيت خديجة ، وكانت أسعد أوقاتهم تلك السويعات التى يمضونها مع محمد بن عبد الله . وكان فتيان بنى هاشم يهرعون إلى الفتى الهاشمى الذى تزوج أيم قريش ، فتوطدت صداقات بين بنى

هاشم وبنى أسد . وكان أقرب الجميع إلى قلبه عمه حمزة بن عبد المطلب فهو رفيق صباه وأخوه فى الرضاعة وفى الحزن الذى تجرعاه معا لما مات عبد المطلب ، وكان أبو سفيان ابن عمه الحارث يشبهه وكان لا يفارقه فى غدو ورواح .

وأحبت خديجة زوجها حبا ملك عليها كل مشاعرها . حب الزوجة لزوجها الكريم الذى تمثلت فيه مكارم الأخلاق وحب الأمل الحلو المرتجى ، فقد كانت على مر الأيام وطول العشرة تزداد يقينا بأن الرجل الذى اختارته لنفسها هو أصلح أهل الأرض لأداء رسالته والنهوض بأمانته .

وكانت خديجة تهيىء له كل أسباب الراحة والنعيم ، إذا أشار لبت إشارته متهللة النفس مرتاحة الضمير ، بل إذا فطنت إلى أن رغبة ما قد طافت برأسه فما أسرع ما تعمل على تنفيذها وما كانت تبخل بعواطفها ومشاعرها وأموالها .

ولم يركن محمد إلى حياة الدعة التى هيأتها له الزوجة المحبة الغنية الشريفة بل كان يخرج إلى الأسواق يتجر لها فى مالها ، حتى إذا ما فرغ من عمله اعتكف فى غرفة من غرف الدار خصصت لعبادته ، فقد كانت على علم بأن العزلة حبيبة إلى قلبه فكانت تهيىء له الجو المناسب للتدبر والتأمل والتفكير فيسود المكان هدوء وسكون ، حتى أنفاسها كانت تحصيها .

إنه فى عزلته يطلق روحه لتهيم فى الوجود وما وراء السماء ، ويفتح عين بصيرته ليرى ما لا تراه العيون . إنه بات على ثقة من أن وجوده إنما هو هبة من رب الوجود ، وأنه يجاهد لا ليلحق ذاته بذاته [1] بل ليوسع آفاق ذاته ويرتقى

---

(١) هذا ما يقول به الوجوديون .

بها حتى تصبح أهلا لتلقى الحكمة من فوق السموات ، فهو لا يحس وجوده بعيدا عن ربه بل هو ثمرة ذلك الكفاح الروحى الدائم ليتصل بذات الذوات .

إن الله هو الينبوع الذى يرشف منه ماء الحياة ، وهو غذاء روحه ومصدر كل قوة جياشة فى وجدانه ، فهو يستشعر فى أعماقه أنه يستطيع أن يقف فى وجه العالم بأسره ما دام مع الله وما دام الله معه وما دام سائرا فى طريق الله .

إنه وهو مع الله يعلو الوجود ويرى بنور الله ، فيكشف أول ما يكشف ذاته الغنية بالمشاعر والإحساسات الفقيرة إلى عون السماء ، فهو يسمو بروحه طمعا فى الوصال ، وإن الخير الأسمى الذى يعرج إليه ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى . إنه فى كل يوم وفى كل صلاة بل وفى كل سجدة يستشعر أنه قد قطع فى سبيل الغاية التى ليس بعدها غاية خطوة ، وهو يتذرع بالصبر ويفعم بالأمل ما دام على الطريق .

إنه اختار الله وإن الله قد اصطفاه ، فهو متجه بكل وجوده إلى الذات العلية والذات العلية تأخذ بيده وترعاه ، وهو باتصاله الدائم بالغنى الوهاب يكتنز فى نفسه كنوزا من الحكمة والعلم والرحمة التى يفيض بها عليه الغنى الوهاب ، ليغمر بها فى مستقبل حياته الناس والحيوان والأشياء .

إنه وهو فى خشوعه وورعه وتقاه يحس أن الله قد تجلى عليه بالبركات ، وأنه يمده بالقوة والنور ، ويحطم عنه كل قيود العبودية إلا العبودية لذاته ، ويمنحه الحرية الحقة . وقد عرف بفطرته السليمة أن غاية الحرية المطلقة أن يندمج فى الله وأن الخلود هو أن يذوب فى روح الوجود .

إنه يعيش فى عالم من النور ، وهو فى جهاد متصل لا ليشرق ذلك النور فى فؤاده وحده فما أيسر ذلك على من انتصرت روحه على جسده ، بل إنه يريد أن يشرق ذلك النور من قلوب البشر ، رحمة للعالمين .

ضرب على نفسه عزلة شاقة مضنية ، وفطم جوارحه عن الشهوات ، واجتهد ووصل الليل بالنهار فى التماس رضوان الله ليصنعه على عينه ، ليكون الإنسان الكامل ومبدع القيم والنبراس الذى يضىء طريق الله للناس أجمعين .

إن ربه هو ركنه الركين ، وهو ملاذه الأمين ، وهو نور لنور عقله ، وهو روح الروح ، وهو المستعان ، لا يعتصم بحبل غير حبله ، ما له من إلٰه غيره ، عليه يتوكل وإليه ينيب ، ومنه يرتجف خشية حتى لتقشعر منه الجلود ، وتتجلى عليه محبته حتى تتهلل النفس بفرح صاف فياض ، وينزل بها أمن يملأ الوجدان راحة وانشراحا .

ورث عن آبائه كل ما فيهم من نخوة وشهامة وكرم وخلق كريم ، ولكنه لم يكن ربيب بيئته ، فقد ظهر الفساد فى البر والبحر وراح القرشيون يقترفون المعاصى دون وازع من دين أو ضمير ، بينا أعرض عن جاهلية قومه وأسلم وجهه لله رب العالمين . وعبد آباؤه الأصنام والحجارة ولكنه تنكر لها وأبى أن يجعل لله أندادا ، ولم يرتض لنفسه أن يقول كما يقولون : وجدنا آباءنا لها عاكفين .

إنه يثور على دين قومه ويثور على عادات قومه ويثور على الفساد الذى استشرى فى قومه ، وإن كانت ثورته لا تزال مكبوتة فى نفسه فإنها يوم أن تبلغ ذروتها ستتفجر لتدمر حصون الشرك وأوكار الفساد وأنصار الرذيلة الذين ينشرون بين الناس الضياع والخسران المبين .

إنه يأبى أن ينعم بطمأنينة زائفة ، طمأنينة الإقرار بواقع الأمر الثابت الفاسد ، فهو يحس فى أعماقه أن عين وجوده يحتم عليه أن يقتلع كل جذور الفساد من الأرض الطيبة التى غرس البشر فيها الظلم والبهتان ، وأن أول ظلم بذر فى الأرض الشرك بالله ، وهو يرحب بكل تضحية فى سبيل القضاء على

ذلك الإثم الكبير .

إنه يشعر بالقلق ، وهو لا يخادع نفسه ليقضي عليه فقد عرف أن ذلك القلق هو الذى يحركه إلى غايته ، فالطريق أمامه ليس معبدا بل محفوفا بأشواك لا يخضدها إلا الأشواق .

قد فطن بتأمله وتفكيره وتدبره أن الكون متناسق متجانس ، وأن الإنسان بما يقترف من آثام يظلم نفسه ويسبب الإضطراب فى نسيج الوجود ، إنه علة شقائه وسبب تعاسته ، فلو سار على الجادة وقوى جوانب الخير فى وجدانه لتآلف مع ما حوله وفتح نوافذ ذاته للنور المنسكب من فوق السماوات لينير لبصيرته طريق الخير الأسمى . وسعادة الخلود .

إن الإنسان الشارد يصدع جدار الوجود ، وهو الدودة التى تنخر جوف ثمرة الإنسانية ، فلو أمكن هداية العصاة الآثمين إلى سواء السبيل لكان ذلك بمثابة بناء لبنات فى صرح مجد البشرية ، بل وضع أحجار الزاوية للسعادة الأبدية .

إن من يتنكب طريق النور فلن يجد إلا الظلام والصمت والضياع ، ظلام الليل السرمد وصمت الصحراوات المخيفة والهوات السحيقة وضياع القلق الموار والعدم والفناء والخوف الذى يخلع الأفئدة ، بينا يسعد من يسير فى طريق الله خالق الحقائق الأزلية ومبدع الخير بإشراق الروح ، وأنس القوة العلية الرحيمة التى تصاحبه ، وطمأنينة تشيع فى النفس تبعث الأمل والرجاء وتمنح السعادة التى ليس دونها سعادة ولا وراءها مرمى .

وأخذ القلق بمجامع نفس محمد وهو يتعبد فى غرفته بدار خديجة ، فهو يشعر بفداحة المسئولية التى يضعها على عاتقه لما يفكر فى هداية قومه الذين ظلموا أنفسهم وجعلوا مع الله إلها آخر ، أيستطيع وحده أن يقف فى

وجه تيار الجهل والفساد ، لا ليصد تدفق ذلك التيار بل ليحوله إلى قصد السبيل ؟ .

وحده ؟! لم يكن محمد وحده فى أية لحظة من ليل أو نهار مذ جاء إلى الوجود . إنه مع الله : ونور بصيرته ونور عقله ونور وجدانه وأنوار اليقين ، فقلبه المؤمن قد وسع الله بينا قد ضاقت عن أن تسع جلاله السموات والأرض وما بينهما .

وخرج محمد من حجرة عبادته مشرق الوجه متهلل النفس ووضع رداءه وجلس عليه ، فأقبلت خديجة هاشة باشة ، ثم راحت تحادثه حديثا رقيقا فانشرح صدرها ، فذلك الصحل[1] الذى فى صوته يمس أوتار فؤادها ، وتلك الحكمة المتدفقة من بين شفتيه تغمر روحها بسعادة عارمة مجنحة تسمو بها فوق وجودها الملموس .

وجاءت مولاة خديجة وقالت :

ـ حليمة السعدية .

فخفق قلب محمد حنانا وراحت الذكريات الحبيبة تطفو على سطح ذهنه ، ذكريات حبيبة وذكريات أليمة حفرت فى أعماق أعماقه . تذكر فى لحظة بيداء بنى سعد وأباه الحارث وإخوته الشيماء ونفيسة وعبد الله وجبال هوازن وأمه آمنة ، وسرعان ما احتلت صفحة ذهنه صورة أمه آمنة وهى مسجاة فى الصحراء ثم وهى تدلى فى حفرتها فى الأبواء .

كانت لحظة مفعمة بالمشاعر والإحساسات ، لحظة أحيت فى مثل لمح البصر أيام طفولته ومزجت بين صحراء بنى سعد والكعبة ومجلس جده عبد

---

(١) صحل : بحة أو خشونة .

المطلب ويثرب وقمة مأساة طفولته وهو فى طريقه إلى الأبواء وموت جده الحبيب .

وقامت خديجة وأدبرت لتنسل إلى غرفتها تاركة لزوجها حرية لقاء مرضعته التى طالما حدثها عنها حديثا يقطر حبا ورحمة ، وقبل أن تغيب فى الدار مس أذنيها صوت محمد الحنون وهو ينادى فى لهفة ووجد :

— أمى ! أمى !

فالتفتت خافقة القلب وقد تفجرت فى نفسها ينابيع الرقة والحنان والرحمة ، فصوت زوجها الصادق المعبر جعل كنوز فؤادها تتدفق بغير حساب ، فألفت محمدا يضم حليمة السعدية إلى صدره فى حب عميق ويمرر يده عليها فى حنان دافق وقد ترقرقت فى وجهه سعادة عارمة وتألق فى عينيه فرح فياض ، لكأنما كان يحتوى فى أحضانه آمنة بنت وهب وقد بعثت من القبور .

وعمد محمد إلى ردائه وبسطه لها فقعدت عليه ، وأقبل عليها بجسمه وكل مشاعره يرحب بها أحر ترحيب ويبش لها ويغمرها بوده الخالص ، فهز ذلك العطف وجدان خديجة فطفرت من مآقيها الدموع ، فانسلت إلى غرفتها تجفف عبراتها .

وفى غمرة اللقاء الحار والحنان السابغ نسيت حليمة آلامها وما جاءت من أجله ، بل كادت تنسى أن زوجها وابنها ينتظرانها عند الباب ، حتى إذا ما سألها محمد عن حالها راحت تشكو إليه قسوة الحياة والجدب الذى نزل بهوازن وضيق العيش ، وسألها عن أبيه الحارث وأخيه عبد الله فأنبأته أنهما فى الخارج ، فانطلق إليهما وعاد بهما وهو منبسط الأسارير ، ثم عمد إلى ردائه وبسطه فقعدا عليه إلى جوار حليمة وجلس أمامهم يصغى إلى أحاديثهم

وينفعل بها إنفعالا صادقا كريما .

وفاض عليهم من كرمه ، ثم ذهب إلى خديجة يحدثها فى تأثر بما ألم بحليمة من ضيق وما حاق بها من كرب فأعطتها عن طيب خاطر أربعين رأسا من الغنم والإبل ، وكانت خديجة متأهبة على الدوام لتجود بكل أموالها إرضاء لمحمد الأمل الحلو المرتجى ، فشكر لزوجه أريحيتها ثم انطلق ليضع بين يدى مرضعته ما جادت به خديجة .

وران على وجوه الحارث وحليمة وعبد الله فرح شديد ، وراح محمد يودعهم فى حب صادق وود صاف ووقف يرنو إليهم فى عطف وهم يسوقون أغنامهم حتى اختفوا عن عينيه فى دروب مكة ، وكانت خديجة ترقب زوجها العظيم وقد ملئت إعجابا بخلقه القويم ، ولا غرو فهو ربيب الخير الأسمى والجوهر الأسمى والحقيقة الأزلية ؛ رب العالمين .

١٤

كان الحارث بن كلدة الثقفى قد تزوج أخت آمنة بنت وهب فربط بين بنى ثقيف وبنى زهرة ، وقد كان محمد بن عبد الله ثمرة زواج عبد الله بآمنة ، وكان النضر بن الحارث ثمرة زواج الحارث بأخت آمنة ، فكان محمد والنضر ابنى خالة كما كان المسيح بن مريم ويحيى بن زكريا ، ولكن شتان ما كان بين محمد والنضر وما كان بين المسيح ويحيى ، فقد كان محمد ربيب السماء ، وكان النضر ربيب الأرض قد كرس حياته للطب والفلسفة ، بينا كان المسيح

وابن الخالة يحيى يسيران فى طريق واحد ، طريق النور يبشران باقتراب ملكوت السماء .

سافر الحارث إلى فارس وإلى اليمن وساح فى البلاد فى الوقت الذى طوى القبر عبد الله بن عبد المطلب ، وتعلم الطب وعرف الداء والدواء والضرب بالعود ، وقد وفد على كسرى أنوشروان قبل أن يذهب أنوشروان فى الغابرين ، وما كان بينه وبين كسرى قد تناقله الرواة كما يتناقلون الشعر ، فذاع فى القبائل وصار دستور العرب فى الطب ، وكان السمار فى ثقيف يقولون ويعيدون على مر الليالى ما كان بين طبيبهم وعاهل الفرس .

وفد الحارث على كسرى أنوشروان فأذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه منتصبا قال له :

— من أنت ؟

قال :

— أنا الحارث بن كلدة الثقفى .

فما صناعتك ؟

— الطب .

— أعرابى أنت ؟

— نعم من صميمها وبُحبوحة دارها .

— فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها وسوء أغذيتها ؟

— أيها الملك ، إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها

ويقيم عوجها ويسوس أبدانها ويعدل أمشاجها ، فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه .

ـــ فكيف تعرف ما توردہ عليها ، ولو عرفت الحلم لم تنسب إلىّ الجهل ؟

ـــ الطفل يناغى فيداوى ، والحية ترق فتحاوى [١] .

أيها الملك ، العقل من قسم الله تعالى قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم ، فكل من قسمته أصاب وخص بها قوم وزاد ، فمنهم مثر ومعدم وجاهل وعالم وعاجز وحازم وذلك تقدير العزيز العليم [٢] .

فأعجب كسرى من كلامه ثم قال :

ـــ فما الذى تحمده من أخلاقها ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟

ـــ أيها الملك ، لها أنفس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق الكلام من أفواههم مروق السهام من نبعة [٣]. رماتهم أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل المعين ، مطعمو الطعام فى الجدب ، وضاربو الهام فى الحرب ، لا يرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون

---

(١) التحوية : الفيض .

(٢) هذا الحوار يدل على أثر الوضع ، فكل ما فيه من وحى الإسلام وما كان الإسلام قد جاء زمن أنو شروان .

(٣) النبع : شجر تتخذ منه القسى وتتخذ من أغصانه السهام الواحدة : نبعة .

بفضل للأنام ، إلا للملك الهمام ، الذى لا يقاس به أحد ، ولا يوازيه سوقة ولا ملك !

فاستوى كسرى جالسا ، وجرى ماء رياضة الحلم فى وجهه لما سمع من محكم كلامه ، وقال لجلسائه : إنى وجدته راجحا ، ولقومه مادحا ، وبفضيلتهم ناطقا ، وبما يورده من لفظه صادقا ، وكذا العاقل من أحكمته التجارب !

ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال :

ـــ كيف بصرك بالطب ؟

ـــ ناهيك !

ـــ فما أصل الطب ؟

ـــ الأزم (الحمية) .

ـــ فما الأزم ؟

ـــ ضبط الشفتين والرفق باليدين .

ـــ أصبت ، فما الداء الدوى ؟

ـــ إدخال الطعام على الطعام هو الذى يفنى البرية ، ويهلك السباع فى جوف البرية .

ـــ فما الجمرة التى تصطلم منها الأدواء ؟

ـــ هى التخمة ، وإن بقيت فى الجوف قتلت وإن تحللت أسقمت .

ـــ صدقت ، فما تقول فى الحجامة ؟

ـــ فى نقصان الهلال ، فى يوم صحو لا غيم فيه ، والنفس طيبة والعروق ساكنة ، لسرور يفاجئك وهمّ يباعدك .

ـــ فما تقول فى دخول الحمام ؟

— لا تدخله شبعان ، ولا تغش أهلك سكران ، ولا تقم بالليل عريان ، ولا تقعد على الطعام غضبان ، وارفق بنفسك يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك .

— فما تقول فى الدواء ؟

— ما لزمتك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت ، وأن تركتها خربت .

— فما تقول فى الشراب ؟

— أطيبه أهنأه ، وأرقه أمرأه ، وأعذبه أشهاه ، لا تشربه صرفا فيورث صداعا ، ويثير عليك من الأدواء أنواعا .

— فأى اللحمان أفضل ؟

— الضأن الفتى ، والقديد المالح مهلك للآكل ، واجتنب لحم الجزور والبقر .

— فما تقول فى الفواكه ؟

— كلها فى إقبالها وحين أوانها ، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها ، وأفضل الفواكه الرمان والأترج ، وأفضل الرياحين الورود والبنفسج ، وأفضل البقول الهندباء والخس .

— فما تقول فى شرب الماء ؟

— هو حياة البدن وبه قوامه ، ينفع ما شرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله أمرأهُ ، وأرقه أصفاه .

— فما طعمه ؟

— لا يوهم له طعم إلا أنه مشتق من الحياة .

— فما لونه ؟

— اشتبه عن الأبصار لونه ، لأنه يحاكى لون كل شيء يكون فيه .

— أخبرنى عن أصل الإنسان ما هو ؟

— أصله من حيث شرب الماء .

— فما هذا النور الذى فى العينين ؟

— مركب من ثلاثة أشياء : فالبياض شحم ، والسواد ماء ، والناظر ريح .

— فعلى أىّ جُبل وطُبع هذا البدن ؟

— على أربع طبائع : المرة السوداء وهى باردة يابسة ، والمرة الصفراء وهى حارة يابسة ، والدم وهو حار رطب، والبلغم وهو بارد رطب .

— فلم لم يكن من طبع واحد ؟

— لو خلق من طبع واحد لم يأكل و لم يشرب و لم يمرض و لم يهلك !

— فمن طبيعتين لو كان اقتصر عليهما ؟

— لم يجز لأنهما ضدان يقتتلان !

— فحن ثلاث ؟

— لم يصلح موافقان ومخالف ! فالأربع هو الاعتدال والقيام .

— فأجمل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة .

— كل حلو حار ، وكل حامض بارد ، وكل حريف حار ، وكل مر معتدل ، وفى المر حار وبارد .

— فأفضل ما عولج به المرة الصفراء ؟

— كل بارد لين .

ـــ فالمرة السوداء ؟

ـــ كل حار لين .

ـــ فالبلغم ؟

ـــ كل حار يابس .

ـــ فالدم ؟

ـــ إخراجه إذا زاد ، وتطفئته إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة .

ـــ فالرياح ؟

ـــ بالحقن اللينة ، والأدهان الحارة اللينة .

ـــ أفتأمر بالحقنة ؟

ـــ نعم ، قرأت فى بعض كتب الحكماء أن الحقنة تنقى الجوف وتكسح الأدواء عنه ، والعجب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد ؟ وأن الجهل كل الجهل من أكل ما قد عرف مضرته ، ويؤثر شهوته على راحة بدنه .

ـــ فما الحِمية ؟

ـــ الاقتصاد فى كل شىء ، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ويسد مسامَّها .

ـــ فما تقول فى النساء وإتيانهن ؟

ـــ كثرة غشيانهن ردىء ، وإياك وإتيان المرأة المسنة فإنها كالشن [١] البالى تجذب قوتك وتسقم بدنك ، ماؤها سم قاتل ونفسها موت عاجل ، تأخذ منك الكل ولا تعطيك البعض ، والشابة ماؤها عذب زلال وعناقها غُنج ودلال ، فوها بارد وريقها عذب وريحها طيب وَهنُها ضيق تزيدك قوة إلى

---

(١) القربة الخلقة الصغيرة .

قوتك ونشاطا إلى نشاطك .

ــ فأيهن القلب إليها أميل ، والعين برؤيتها أسر ؟

ــ إذا أصبتها المديدة القامة، العظيمة الهامة، واسعة الجبين ، قنواء العزنين (الأنف) ، كحلاء لعساء (فى شفتها سواد) ، صافية الخد ، عريضة الصدر، مليحة النحر ، فى خدها رقة ، وفى شفيتها لعس ، مقرونة الحاجبين ، ناهدة الثديين ، لطيفة الخصر والقدمين ، بيضاء فرعاء ، جعدة غضة بضة ، تخالها فى الظلمة بدرا زاهرا ، تبسم عن أقحوان ، وعن مبسم كالأرجوان ، كأنها بيضة مكنونة ، ألين من الزبد ، وأحلى من الشهد ، وأنزه من الفردوس والخلد ، وأزكى ريحا من الياسمين والورد تفرح بقربها ، وتسرك الخلوة معها .

فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه وقال :

ــ ففى أى الأوقات اتيانها أفضل ؟

ــ عند ادبار الليل يكون الجوف أخلى ، والنفس أهدأ ، والقلب أشهى ، والرحم أدفأ ، فإن أردت الاستمتاع بها نهارا تسرح عينيك فى جمال وجهها ، ويجتنى فوك من ثمرات حسنها ، ويعى سمعك من حلاوة لفظها ، وتسكن الجوارح كلها إليها .

ــ لله درك من أعرابى ! أُعطيتَ علما ، وخصصت فطنة وفهما !

وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به .

كان هذا هو حديث الطب فى ثقيف وفى مكة وفى القبائل ، وكان الرواة يضيفون إليه تجاربهم على مر السنين . وكان حديث الجنس يستهوى الناس فأضاف الرواة ما شاءوا وشاء السامعون واستهواهم ، وكانت هذه الأحاديث وأمثالها هى الحكمة التى أوتوها ، وقد شب النضر بن الحارث ابن خالة محمد بن عبد الله فى هذه البيئة ، وسافر كأبيه فى البلاد ، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة ، وعاشر

الأحبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة ما وصل إلى علمه ، واطلع على علوم الفلاسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه ما كان يعلمه من الطب ؛ فامتلأ النضر بن الحارث بن كلدة الثقفى غرورا ، حتى ظن أنه أفضل أهل أبيه وأمه ، بل أفضل شباب العرب أجمعين . وما كان يرضى لنفسه أن يقارنها بابن خالته الذى عرف فى قومه بالأمين ، والذى ذاع فى القبائل نبأ زواجه خديجة بنت خويلد ، من رفضت كل سادات قومها الذين تقدموا لخطبتها .

إنه وإن كان فى دهش لذلك الزواج إلا أنه أرجعه إلى جمال ابن خالته ، فما وجد سببا آخر يجذب أيم قريش الشريفة الغنية العفيفة نحو يتيم قريش الذى لا مال عنده ولا أمل فى سؤدد أو سلطان ، فقد كان يقيس الرجال بمقياس مادى وما كان صاحب نفس شفافة ليعرف حقيقة الأرواح .

كان محمد وابن خالته النضر يجتمعان فى المواسم وفى المناسبات التى تجمع بين أفراد الأسرة الواحدة ، وكان محمد منطويا على نفسه يلوذ بالصمت إعراضا عن اللغو ، يغلبه حياؤه بينما كان النضر مزهوا بنفسه وبعلمه الأرضى الذى حصله فى رحلاته وحكمته التى كسبها من قراءة كتب حكماء الفرس وفلاسفة اليونان ، فكان يتيه بعلمه على قومه ، وكان غاية ما ينتظره لمثل محمد ابن خالته أن يصير تاجرا صادقا بعد أن اشتهر بأمانته ، وما كان يتصور أن ذلك الرجل الذى يعيش فى قوقعة ذاته يمكن أن يصبح ذات يوم سيدا من سادات دار الندوة كحكيم بن حزام أو أبى الحكم بن هشام أو أبى سفيان بن حرب ، ولو دار بخلده أن السماء تدخر ابن خالته لأجل رسالة عرفها البشر لمات كمدا ، ولكفر بخالق الكون ، ولتمنى من كل قلبه أن تخر السماء على الأرض . فأين علم ابن عبد الله من علمه ؟ فما خطر له على قلب

أن هناك من يتلقى الحكمة من الله ، فقد كان ربيب الوجود ، وما استطاع أن يسمو يوما فوق واقعه ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

١٥

ظهر هلال شهر رمضان فى السماء ، فراح محمد بن عبد الله يتأهب للانطلاق إلى غار حراء ليعتكف شهرا يعبد الله فيه على دين أبيه إبراهيم ، وما كان محمد وحده يرقى إلى حراء فى ذلك الشهر بل كان كثير من الحنفاء يتحنفون فيه كل على قدر جهده واجتهاده ومحبته للذات العلية . ولنور اليقين الذى أشرق فى قلبه .

كانوا يتحنثون للخروج من الحنث وهو الإثم ، بينما كان محمد بن عبد الله يتحنث حبا فى الله ، لتزداد أنوار عشقه إشراقا ، بعد أن عرف الله وأحبه وصار الأنس به قرة عينه ولذة قلبه ونور بصيرته ووجدانه .

وراحت خديجة تعاونه وتعد له ما قد يحتاج إليه طوال ذلك الشهر الذى سيجاور فيه فى الغار ، وهى منشرحة النفس ، فقد رأت فيه مذ ذلك اليوم الذى دخل فيه عليها أنه تلك الشمس التى رأتها فى منامها تنحدر من سماء مكة لتستقر فى سماء دارها وتشرق منها لتغمر الدنيا بنورها ، وكان إيمانها بعظمة زوجها يربو على مر الأيام ، لم يخب حبها له يوما بل كان تقديرها لخلقه العظيم يزداد كلما طالت عشرتها له ، فقد كانت تكشف كل يوم جديدا من جوهره الثمين وكنوز نفسه التى كانت تفوق كنوز أنفس أهل الأرض جميعا ، ولا غرو فقد كانت ترى فيه ربيب السماء .

وغمرتها نشوة عارمة وهى تغدو وتروح تجهز له زاده ، فقد فاضت منه روحانية انسابت إلى روح زوجه جعلتها ترى فيه كمال نفسها وسعادتها وعين ما تتمنى من بهجة وفرح نفسى فياض فى دنياها التى كانت تخفق قبل أن تراه بالقلق والألم والحيرة والعذاب .

وجدت فيه المرفأ لسفينة حياتها المضطربة ، والواحة التى تستظل بها بل تستقر إلى جوار نبعها الصافى بعد رحلة طويلة شاقة فى صحراء قاسية جافة تهب عليها العواصف والأعاصير ، وكانت تحب مالها فقد كانت تؤمن أنه عصب وجودها وتاج حياتها ، فإذا بها بعد أن ألقت سمعها إلى محمد لم تعد تحفل بأموالها فهى عرض زائل عجزت عن أن تجلب سعادة فى تلك الأيام التى أمضتها مع زوجين من أشرف قومها ، مثل السعادة التى تشيع فى جوانبها وهى إلى جوار محمد الحبيب ، إنها جعلت الماديات دبر أذنها وتحت قدمها بعد أن ذاقت حلاوة الروحانيات .

أحبت فيه علمه وعقله وشجاعته وتقواه وكرمه ومروءته وخلقه القويم حتى جاوز حبها له حد العشق فباتت على استعداد لتنفق جميع مالها لنصرته والذب عنه ، بل إن روحها تهون فى سبيل مبادئه الصالحة التى يستمدها من الخير الأسمى ، وروح الروح .

أحبت خديجة الله وكانت تستشعر سعادة عارمة كلما سمعت حديث ابن عمها ورقة بن نوفل عن الله ورسله وأنبيائه ، وقد أصغت إلى زوجها وهو يحدثها عن الله فأحست كأنما أسجاف الظلام ترتفع عن قلبها ليشرق بالنور ، وكانت كلما ازدادت معرفة بالله ازدادت حبا لزوجها ويقينا بأن محبتها له إنما هو عين حب الله ، فمحب الحبيب حبيب ، ولا محبوب عند ذوى البصائر إلا الله ولا مستحق للمحبة سواه .

كانت خديجة أول مريدة فى مدرسة ابن عبد الله فتعلمت على يديه أنه لا وجود لها من ذاتها وإنما وجودها ودوام وجودها وكمال وجودها من الله وإلى الله وبالله ، فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ولا فى ذاته ، بل هو عدم صرف لولا فضل الله ، وأن ليس فى الوجود شىء له بنفسه قوام إلا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به ، يستمد منه الحياة والوجود .

عرفت خديجة ربما بعد أن فتح محمد أعين بصيرتها على النور فأحبته ، وعرفت منه حقيقة الدنيا وجوهرها الزائف فزهدت فيها ، واشتغل بحبها لله فذهلت عن المحسوسات بعالم الملكوت الذى أصبحت تهيم فيه وتحلق لتسعد بنشوة الروح والأنس بذات الذوات .

وألهم محمد صفات ربه قبل أن يوحى إليه ، فكان يحدث خديجة عن الجمال المطلق ، الواحد الذى لا ند له ، الغنى الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا يفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلى الذى لا أول لوجوده ، الأبدى الذى لا آخر لبقائه ، المنفرد بالعزة والجبروت ، ذى الفضل والجلال الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول ، فأحبت خديجة ربها لذاته وتعظيما لجلاله ، فغرست فى قلبها غريزة النور الإلهى فهى على نور من ربها ، فأصبحت تدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة ، وصارت لذتها وبغيتها فى إشراق نور اليقين فى فؤادها .

صارت ألذ المعارف عندها وأطيبها وأشهاها العلم بالله ، وأصبح حديث محمد عن الله أجدر ما يعظم به فرحها وارتياحها واستبشارها ، فاضحت لذة المعرفة عندها أقوى من سائر اللذات ، فكانت لا تضيق بحب

زوجها للعزلة بل كانت تهيىء له كل سبل الراحة ، فقد كانت على يقين من أنه فى جهاد ليتحقق له الوصال فتنسكب الحكمة فى فؤاده من فوق السموات .

وكان محمد يكشف لها عن بعض ما عرفه من أسرار ملك الله قبل أن يعرف ما الكتاب وما الإيمان ، فكانت تتهلل بالفرح وتمتلىء بالنشوة وتستشعر أنها تزداد كل يوم قربا من الله وشوقا إليه ، فهى فى الطريق إلى أن ينتهى صفاء قلبها إلى غايته التى ليس فوقها غاية ولا دونها منتهى .

نجح محمد فى أن يطهر قلبها من غير الله ؛ فاتسع ليشرق بمعرفة الله وحبه ، فانقطعت شواغل الدنيا عن قلبها فراح فكرها الصافى يشتغل بالتدبر فى ملكوت الله فيما ألقى محمد بذوره فى أعماق أعماقها فصارت ترى آيات كمال قدرة الله فى السموات وفى الأرض وفى كل ما تمد إليه البصر ، وفيما تراه بعين بصيرتها التى قويت حتى أصبحت قادرة على رؤية بعض ما وراء الحجاب .

أضحت ترى أن كل ما فى الوجود من فعل الله ، وعرفت أنه من فعل الله فأحبته من حيث أنه أثر من آثاره جل شأنه ، فلم تكن ناظرة إلا فى الله ولا عازمة إلا بالله ولا محبة إلا لنوره وجلاله ، ففنيت عن نفسها فى الله ، وباتت ترقب ما بشرت به من إشراق النور من دارها .

كانت خديجة تحس شوق محمد إلى ربه ، فهو فى شوق حار إلى استكمال الوصال ، وهو يجتهد ليتمم الله له نوره ، وقد أصبحت على يقين أن الله يحب محمدا أحب محمد لربه بل أشد ، فلا شك أن الله محب لمن أحبه ، ومؤنس لمن أنس به ، وصاحب لمن صاحبه ، وإن ربه ليقذف من نوره فى قلبه فيفيض عليها بذلك العلم الذى يثير دهشتها وعجبها ، فما يحدثها به

محمد يفوق فى روعته أحاديث ورقة وعبيد الله ابن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل ، بل وكل من كان على دين من أهل الكتاب .

إن الله جعل لمحمد واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه ، وقد تولى الله أمره ظاهره وباطنه ، سره وجهره ، فهو المشير عليه والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه ، والموحش له من غيره . والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

إن ثمار محبة محمد لربه تظهر فى قلبه ولسانه وجوارحه ، فهو يقوم الليل إلا قليلا حبا فى لقاء الحبيب ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، وإنه ليلقاه وهو فارغ القلب عن الشواغل ليكون كل قلبه لله لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، قد غلب حب الله على قلبه فأحب جميع خلقه ، وقد أحبته خديجة لله ورأت فيه كمال خلق الله .

إنه يتلذذ بالخلوة بربه وينعم بمناجاته ، وإنه ليأنس بالله فى غدواته وروحاته ، فى يقظته ومنامه ، وصارت الخلوة والمناجاة قرة عينه لا يطمئن قلبه إلا بذكر الله فشعت منه روحانية ملأت فؤاد خديجة نورا وأملا ورجاء وحبا فتعلمت أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، فكانت تكثر من مناجاة ربها تسأله أن ينزل السكينة على قلبها لتزداد إيمانا مع إيمانها .

وأتمت خديجة تجهيز زاد زوجها ومحمد يحنو على زيد ويسبغ على ابنها هند بن أبى هالة عطفه ، فأحست الدموع تبلل روحها ، فرحمته تمس أوتار قلبها ، إنه عظيم وهو على خلق كريم ، قد زاده الله من فضله حتى إنها لم تخالجها ريبة لحظة واحدة مذ عاشا معا تحت سقف واحد أنه المرتقب والموعود والمنتظر .

وحمل محمد زاده وودع خديجة وداعا رقيقا ، فسيمكث فى جوار ربه شهرا لا يشغل قلبه شاغل سواه ولا يفكر إلا فيه ولا يناجى إلا إياه ، وسيعيش معه وبه وله ، يفتح فؤاده لتنسكب فيه بعض حكمة الحكيم ، ويتزود من التقوى خير الزاد ، ويتهلل بفرح الأنس به والسعى للوصال .

وغادر محمد الدار وقبلته ذات الله ، وقد هاجت نار الحب والشوق فى صدره وانبعث القلب إلى الطلب ، واستبشر وفرح بقرب الانفراد والخلوة بذات الذوات ، فهى رأس العبادة وينبوع السعادة ومباشرة روح اليقين .

وراحت خديجة تتبعه بنظرها وهى خافضة القلب وملأ جوانحها استبشار وأمل ورجاء ، وغاب عن عينيها فى الظلام إلا أنها كانت تراه ببصيرتها كالنور فى سويداء الفؤاد . إنه هائم فى ملكوت الله ، قاصد وجه الله ، ومن يطرق الباب يفتح له ، وإنه لدائم الطرق على باب الله ، وإنه لواصل فمن قصد وصل إلى الغاية واطمأن قلبه إلى بلوغ المرام .

١٦

وفى سكون الليل طاف محمد بالبيت سبعا وقد قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والجاه والرفقاء والأصدقاء إلى الله . هجر زوجه الحبيبة وجاهها العريض والراحة التى يسرتها له ، وفارق آل عبد المطلب الأعزاء ، وأبا بكر الصديق الذى قلما أن يفترق عنه وابنى عمه الحبيبين جعفر ابن أبى طالب وأبا سفيان بن الحارث ، وكل الرفقاء والأصدقاء فى سبيل وجه الله .

وما أتم طوافه حتى انطلق فى الظلام إلى غار حراء مع الحنفاء من قريش الذين اعتادوا أن يتحنثوا فيه طوال شهر رمضان ، ولم يكن يفكر مثلهم فى وعورة المرتقى ، فقد غاب عن كل ما حوله إلا ربه بعد أن بذرت فى وجدانه من طول سهره مع الله بذور الإرادة والإخلاص ، فكان وحده عرضة لمهاب نسائم الرحمة وهو يشتد على الصراط المستقيم .

وبلغ مدخل الغار فألقى نظرة على مكة فبدت فى عينيه كأنها ذرة فى ملك الله ، وقلب وجهه فى الأرض والسماء فامتلأت جوانبه خشية امتزجت بفرح واستبشار ، وسرعان ما أحس أن عالمه أوسع من العالم الأرضى ، أنه ملكوت الأرض والسماء ، أنه دنيا المحسوسات ودنيا الغيب والروح ، وأن خفقة واحدة من روحه فى دنيا الله ألذ من كل لذات الحواس .

كان قد تعلم من أنسه بالله بأنها نفسه إن لم يشغلها شغلته ، فلم يدع قلبه فراغا لحظة من ليل أو نهار ، فهو مشغول بالله وهو يقظان ولا يغفل قلبه عن

ذكر الله إذا نام ، فهو يعيش بالله ولله وفى الله ، فهو أنفاسه التى تتردد فيه وهو خفقات قلبه ورفرفات روحه قد سرى فى ضميره مسرى الدم .

ودخل الغار وقد ران عليه ظلام ثقيل وضربت الوحشة فى جنباته ، ولكنه لم يحفل بالظلام فقد بات يرى بنور الله ، ولم يعد يستشعر وحشة بعد أن ذاق حلاوة الأنس بالله .

آثر العزله وجلس للمراقبة والذكر والفكر وراح ينظر إلى الله والنظر يحرك القلب إلى ذكر الله . فصفت نفسه وانبعث الابتهال وروح السجود من كل جوارحه ، فاختلجت خواطره بالذكر وفاضت عيناه بالدمع ، فانقطعت عن قلبه جواذب الدنيا لينجذب إلى السماء .

وفى لحظة من كرم الله وفيضه انكشف فى قلبه من أسرار الله فى ملكوت السموات والأرض ما لا ينكشف لعابد صادق فى سنوات طوال ، فقد استطاع بحسن نيته أن يستدر أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت . وأن يستقبل نفحات ربه المباركة أحسن استقبال وقد نزلت عليه من السماء كما ينزل الرزق على العباد .

وامتلأ حكمة من ربه فأشرقت أنوار المعارف من باطن قلبه ، فهو يذكر الله فيذكره الله ويفيض عليه من كرمه ، وكان لسانه الذاكر وقلبه الشاكر وصبره فى الله ومصابرته بالله ورباطه مع الله مفاتيح السعادة التى أنزلت الرحمة على فؤاده .

إن الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء ، وهجران الخلق فى حب الحق شديد ، والسير مع النفس إلى الله صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . ولما كان يطلب بقاء لا فناء فيه ، وعزاً لا ذل فيه ، وأمناً لا خوف فيه ، وغنىً لا فقر فيه ، وكمالاً لا نقصان فيه ،

وملكاً تضيق به أرجاء الأرض ، فقد صبر على طول المواظبة حتى صار يعبد الله على الرضا ، ثم انقلب الصبر والرضا إلى حب شديد حتى أصبح لا يحتمل العيش بعيدا عن الله ، فصار الله هو نور عينيه وفؤاده وبصيرته ، والهواء الذى يملأ فراغ قلبه ، وحديث النفس فى العزلة واختلاج الخواطر فى النوم واليقظة ، وجيشان العواطف ونور اليقين .

ماتت أمه وهو صغير فعرف الألم ولكنه صبر ، ومات جده عبد المطلب وفاض دمعه بيد أنه امتثل لأمر الله لم يجزع ولم يشق الجيوب بل طوى نفسه على ألم . وسار فى الطريق وشب موفور الصحة جميل الخلقة عذب الحديث : تتلهف المجالس على صحبته ، وتزدان به ليالى السمر ، كثير العشيرة من أكرم أسرة فى قريش ، إلا أنه ضبط نفسه عن الاسترسال وراء بواعث الهوى والركون إلى موفور الصحة والانهماك فى ملاذ قومه حتى المباحة منها ، فقد كان على يقين أن ذلك يخرجه إلى البطر والطغيان وتنكب الطريق .

وما أيسر الصبر على البلاء وما أصعب الصبر على العافية ، إنه تزوج خديجة الغنية الشريفة التى أحبته من كل قلبها ووفرت له أسباب الراحة والدعة ، فلم تفتنه أموال خديجة ولم يبطر جمالها على قلبه وهو الرجل القوى الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين ، فلم ينهمك فى التنعم واللذة واللعب ، ولم يركن للدعة بل هجر كل مباهج الدنيا فى سبيل وجه الله ، فصبر على فتنة الضراء وفتنة السراء على السواء ، ولم تلهه آلام الدنيا ومباهج المحسوسات عن ذكر ذى الجلال والإكرام .

إنه صبر ثم عمل الصالحات ثم راح يعبد الله على الرضا ، ثم هام فى المحبة متعرضا لنفحات ربه وجذباته فألهم حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات ، وأن خير لباس هو لباس الإيمان

يرجو الله ألا ينزعه عنه أبدا .

عرف أن النعمة من المنعم وأن النعم كلها من الله المقدس الذى لا مقدس غيره ، فكان يفرح بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام ، وكان أكثر فرحه بما يرد من الله إلى قلبه فذلك يقربه إلى ربه ، وغايته التوصل إلى القرب منه والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام ، وكان يعمل بموجب ذلك الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، فكان يضمرر الخير لكل خلق الله فى قلبه ، وكان لسانه لا يكف عن أن يلهج بشكر الله ، وكانت جوارحه تنأى عن كل ما يغضب مكارم الأخلاق ، حتى إن عينيه كانتا تستران كل عيب تريانه ، وأذنيه تستران كل عيب تسمعانه ، وكان يشكر الله بلسانه وجوارحه وأفعاله ، حتى يفنى نفسه ولا يرى غير الله .

لم تصبح النعمة عنده كل خير ولذة وسعادة ، بل كل سبب يوصله إلى الله ، فالعلم وحسن الخلق وقمع الشهوات وإنفاق المال حبا لله ، ولذة النظر إلى وجه الله ، ولذة العقل ، وكل ما يزيد بالإنفاق ، نعمة تستوجب الشكر ، حتى يرزقه الله تمام النعمة .

وراح آناء الليل وأطراف النهار يتطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، فانبعث القلب إلى الطلب ، وتأججت فى وجدانه أنوار الأشواق والإشراق ، وامتلأ بفرح فياض واستبشار بالأنس بالله ، فعظم نعيمه ولذته وأحس بكل كيانه أن ذات الذوات يرعاه ، فلم تعد شهوته إلا الانفراد بروح الوجود والخلوة به .

وتعاقب الليل والنهار وهو مستأنس بالعظيم المتعال ، قد صفا السود واستغرق فى عذوبة الذكر ، وانجلت لبصيرته حقيقة الأمر ، فباشر روح اليقين ، واستلان ما استوعر المترفون ، وصحب الدنيا ببدن روحه معلقة

بالمحل الأعلى ، فصار جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ، ولذة معرفتها أغلب على فؤاده .

إنه هتك حجب الوجود بالصبر والرضا والشوق والشكر والأنس ، وتغلغل فى الغيب حتى دنا من اللب ، وعرف الجوهر الأسمى بعد أن طابت سريرته وأضاءت بصيرته بنور اليقين ، ولا غرو فهو ربيب الله يصنعه على عينه ليكون رسوله الكريم إلى الناس أجمعين .

وانقضى شهر رمضان وقد نسى محمد دنياه بالذكر والشكر والابتهال والسجود ، فأحس أنه قد ترقى فى معارج القرب درجات وأنه دنا فاقترب من روح الروح ، واستشعر أن رب السماوات والأرض رب العالمين قد تجلى عليه بالبركات فسكب الحكمة فى قلبه ، فأشرق ضميره بنور يبهر أنوار الشموس ، إنه فرح بما آتاه الله ، مستبشر بفضله ، فقد بات يستشعر أن نفسه قد ازدادت قوة بعد ذلك الشهر المبارك الذى سعد فيه بالأنس بربه ، وأن دعائمها قد قامت على تقوى من الله ورضوان .

وانقلب الذين كانوا يتحنثون فى غار حراء إلى أهليهم لتشغلهم أموالهم وأهلوهم عن نور النور ، بينا محمد ينحدر فى الجبل وهو متهلل بالفرح قد تعلق كل كيانه بربه ، وانجذب إلى السماء لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ويهديه ربه صراطا مستقيما .

وانطلق إلى مكة تخفق فى جنباته محبة وعشق للذات العلية ، تهيم روحه لتعرج إلى الكمال الأسمى ، حتى ذهل عن نفسه وعن كل ما حوله ، وشغل بذلك الفرح والاستبشار والإشراق الذى ومض فى وجدانه فأنار اختلاج خواطره وسويداء قلبه وكل كيانه .

ووقعت عيناه على الحرم والناس تطوف به ، وحمام الحمى يرفرف من

حوله مع الطائفين ، والشمس ترتفع إلى السماء تبعث أشعتها الحارة اللافحة تشوى الجلود ، وتفصد العرق من الأبدان تكاد تزهق الأرواح ، فراح يوسع من خطوه تضطرب روحه بنشوة صافية وقد هفت إلى أول بيت وضع للناس ، وبدا كل شيء جديدا لعين بصيرته كأنما يراه لأول مرة ، فالبيت غارق فى أنوار سماوية تغذى الوجدان وتضفى على النفس رحمة وأمنا وسلاما ، والكون من حوله يسبح لملك الناس تسبيحا يستشعره فى أعماق قلبه وإن لم تلتقط ذبذباته أذناه ، ولا عجب فقد صار يرى بالله ويسمع بالله ويفكر بنور الله .

طاف سبعا مع الطائفين وقد أشرقت سريرته بإحساسات صافيه انبعثت من كنوز معارفة التى استمدهامن خزائن الملكوت ، وربت بطول السهر مع الله والأنس به وفاضت بالبركات ، وربت بطول السهر مع الله والأنس به وفاضت بالبركات فجعلته يسمو إلى الكمال المطلق ، وينشرح صدره للنور المتدفق فى فؤاده من فوق الطبيعة من وراء حجب الغيب ، وكان سروره فياضا حتى إنه لم يحس حر الشمس فقد استظل بظل الله .

وخرج من الحرم بعد أن استمتع بلذة معرفة الله ، وهى لذة سرمدية تزكو على مر الأيام وتزداد تألقا واشتعالا ، إنه عرف كمال الحب فصار الله محبوب قلبه ومعبود فؤاده ومقصود روحه ، فإذا طرب لطيب أصوات الطيور ، وإذا سعد بروح نسيم الأسحار ، فهو متفرح بجلال خلق الله ، فقد صار الله قبلته وصارت لذته إدامة النظر فى وجهه وكان ذلك فوزا عظيما .

ووقف أمام دار خديجة وطرق الباب ، وسرعان ما انفتح عن جارية من جوارى الطاهرة وسيدة نساء قريش ، وما أن وقعت عيناها عليه حتى صاحت فى فرح معلنة قدوم سيدها الكريم . وتردد صوتها فى جنبات الدار

كأجمل بشرى ، فهرع زيد بن محمد وهند بن هند وأمه خديجة وبركة الحبشية لاستقبال محمد الحبيب ، وفاضت الأشواق فانهمرت دموع الفرح من العيون فقد عاد إلى الدار روحها ونورها . وأطالت خديجة النظر إلى الأمين فرأت وجهه يتألق بنور انبهر له فؤادها قبل بصرها ، فذكرها ذلك الضياء بحلمها الذى رأت فيه الشمس تنحدر من السماء لتستقر فى سماء دارها . إنه لم يرتب قلبها لحظة فى أنه تأويل رؤياها ، ولكنها كانت على يقين وهى مستبشرة بالنظر إليه أنه من يرتقب ابن عمها ورقة بن نوفل ظهوره ، وأنه من بشَّر به كهان العرب ورهبان النصارى وأحبار اليهود .

١٧

راح أبو سفيان يطوف بالبيت قبل أن يخرج إلى الطائف ، فبنو أمية وبنو ثقيف حليفان بينهما مودة ، وكانت الزيارات مستمرة بين سادات الأمويين والثقفيين ، ومما زاد الصلات الطيبة بين الحيين أن عروة بن مسعود الثقفى صار عظيم ثقيف وكانت أمه من بنى عبد شمس .

وكانت الزيجات المتبادلة بين قريش وبين الثقفيين تشد الأواصر بين القريتين مكة والطائف ، فالحارث بن كلدة طبيب العرب تزوج أخت آمنة بنت وهب ، وقد أنجب النضر الطبيب والفيلسوف الذى ساح فى الأرض وراح يروى ظمأه إلى المعرفة من فلاسفة الفرس والرومان واليونان ، فراح يتيه بعلمه المستورد على الجميع ، وما كان يخطر له على قلب ابن خالته محمد بن عبد الله ، فما كان محمد يعرف القراءة ولا الكتابة ، فمن أين لمن كان مثله العلم الذى يجعله ندا لفيلسوف ثقيف !

وتزوج مسعود الثقفى من بنات عبد شمس وأنجب عروة ، فشب ابنه سيدا مطاعا فى قومه حتى صار سيد ثقيف ، فاشتد هوى الثقفيين إلى بنى أمية فحالفوهم دون بنى هاشم ، ومما زين ذلك الحلف أن أبا سفيان بن حرب كان صاحب لواء قريش كلها فلا تشن حرب إلا بأمره ، فهو مركز القوة فى قريش بينا كان للهاشميين رفادة الحجيج وسقايتهم ، وفى ذلك مغرم لا مغنم ما وراءه إلا الشرف وحسن الأحدوثة .

وراح أبو سفيان يتمسح بأصنام مكة ، فهو يتقرب إليها لتوفيه أجره فى الدنيا ولأن أباه حرب بن أمية كان يعبدها ، وهو لا يستطيع أن يتصور أن أباه

حربا كان على ضلال ، إنه يعيش فى الدنيا دون أن يجد الحياة لغزا أو سرا ، فهو لا يجهد نفسه فى البحث عن سر الحياة ولا يفكر فى أن يغير الدنيا ، فهو يسعد بأيامه فقد كان كل ما يبغيه أن يستمتع باللذات الحسية ، فهو مؤمن بالمادية الأرضية ونزعة إشباع اللذة .

كان لا يأبه بالخلق ولا مكارم الأخلاق ، فهو يريد مالا ممدودا يحسب أن ماله أخلده ، لا يقلقه من أين جاء ، ويريد أن يستمتع بالنساء وما جال بخاطره أبدا تنظيم الحياة الجنسية ، بل كان يشبعها أينما حل فى مكة أو ثقيف أو يثرب أو دومة الجندل أو فى الحيرة أو الشام ، وما طمع فى سيادة قومه إلا ليشبع نهمه إلى القوة والسلطان .

كانت المادية تسدل ستائرها السود على أفق الحياة فى مكة ، قد اضطرب فيها التوازن الاجتماعى ، فالعبيد يكدحون وينفقون الجهد والعرق فى سبيل إغناء السادة وما أقل ما كان يعود عليهم من ثمار كفاحهم ، إنهم يئنون تحت أقدام الأشراف ، ولكن أبا سفيان كان فى أذنيه وقر فما كان يسمع الأنين ، ولا يحس مأساة العبيد ، ولا يرى استشهاد الإنسانية الذى يقع تحت بصره وسمعه .

وكانت الثروة مكدسة فى أيدى نفر قليل من قومه بينما كان كل الناس يقاسون الحرمان ، فلم تحن منه التفاتة إلى سوء توزيع الثروة فى قومه ، وكان كل ما يفعله أن يطعم الفقراء حتى لا يذهب بنو هاشم بالشرف وحدهم .

وكان الربا الفاحش ينقض ظهر المجتمع المكى ، فلم يخطر له على قلب ، وهو سيد قومه أن يستنكر ذلك الاستغلال البشع بل كان يراه أمرا مشروعا ينبغى حمايته ، وكانت الثارات تزهق أرواحا بريئة والحروب بين القبائل تشن لأتفه الأسباب فانعدم الاستقرار فى أحياء العرب وساد قانون الغاب ، فلم

يتحرك لحقن الدماء و لم يرأن قافلة الحضارة المكية التى يقودها منطلقة إلى الهاوية ، فقد أسدلت المادية حجابا على بصره وبصيرته فعاش بنفسه ولنفسه ، وليضرب الآخرون فى تيه الحياة أو لينزلوا فى أعماق القبور .

إنه مرتبط بالأغنياء ، وكانت الحكومة فى مكة حكومة الأغنياء يحكمونها من دار الندوة وما كان يدخل تلك الدار فقير ، فكانت رابطة المال وحدها هى رابطة الإنسان بالإنسان ، فكانت عقدة المال هى الحاكمة للفوضى التى نظمت حيثما اتفق ، فلم يلتفت أبو سفيان لظلم الفقراء . و لم ير فى العدوان عليهم عدوانا على الإنسانية جمعاء .

كانت السعادة المادية هدف الحياة وغايتها ، فانفصمت عرى الروابط الإنسانية وانقلب الناس جميعا الذين لا يتطلعون إلى ما وراء الطبيعة إلى عبيد للمال ، فانعدم انسجام الجماعة وانطلقوا فوق قبور الأخلاق والقيم الإنسانية الخالدة إلى سراب الحياة ، لا يعرفون التقاء السماء بالأرض ولا الخير الأسمى ولا السعادة الحقة .

وخرج أبو سفيان من الحرم وهو يحس حرية مالك العبيد ، إنه إذا أمر صدع المكيون لأمره ، وإذا أشار لبوا إشارته ، فهو سيد مطاع فى قومه ، ولكنه كان فى أعماقه يرتجف من الحرية الحقة ، فهو عبد لدين آبائه ، أسيرلتقاليد أجداده ، أعمى لا يقوى على أن يرى ما فوق رأسه ، فبصره مشدود إلى الأرض بسلاسل المادية التى تعلّم أن تكون غايته التى ليس وراءها مرمى .

وكان كل علمه يقوده إلى الجهل فهو يعرف القراءة والكتابة ، فأبوه حرب بن أمية كانت له صحبة ببشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فقد كان يتاجر عندهم ، فتعلم حرب منه الكتابة ، فمن

البَتراء عاصمة النبطيين انتقلت الكتابة إلى كل بلاد العرب الشمالية ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب فتعلم منه أبو سفيان وكثير من بني أمية فكثر لذلك الكتاب فيهم ، ولكنه لم يستخدم ذلك العلم إلا فى حساب الربا وأرباح التجارة ومكاتبة العبيد ، ولم يفتح له سبيل الحرية المطلقة ولم يقده إلى طريق الله بل قاده فى الطريق المنحدر إلى الهاوية ، إلى الظلام الثقيل .

وكان كل ما يعرفه من أمر الدين أن اللات والعزى ومناة بنات الله يشفعن إليه ، وما كان يلتمس من الآلهة إلا أن ترزقه بالأموال وبما يشبع نهمه إلى الشهوات ، أما الموت فما كان يعتقد أنه يقربه من الله فهو يؤمن ألا حياة بعد حياته الدنيا ، فكان حليف اللذات الجسدية وما ذاق أبدا طعم أية لذة روحية ، فهو غارق فى الجهل والفساد قد كتم فى وجدانه أنفاس بصيص النور الإلهى الذى يولد مع الإنسان .

ووصل إلى الطائف وراح يسرح الطرف فى بساتينها وعيونها وفواكهها المختلفة الألوان ، وفى الجداول المنحدرة من الجبال فأحس نشوة عابرة ، فقد كان يرى الجمال بنور عينيه ، فلو أنه درب بصيرته على النظر وراء الحجب لرأى جمال الجمال ، ولا ستشعر بجلال الجلال ، ولنعم بنشوة يسعد بها الفؤاد على الدوام ، ولبذرت فيه بذور الفرح والاستبشار ، ولعرف الفناء عن النفس وحلاوة الوصال .

وذهب إلى معبد اللات وطاف بالصنم طوافه بالحرم ، وقدم القرابين ووضع فى الغبغب خزانة الصنم شيئا يسيرا ، فلم يستطع أن ينتصر على بخله حتى وهو بين أكبر بنات ربه .

وانتهى من الدعاء والابتهال ثم انطلق إلى دار عروة بن مسعود الثقفى سيد

بني ثقيف ، فرحب الرجل بسيد بنى أمية أجمل ترحيب وقدم إليه الشراب فى أوانى من الذهب ، وقامت القيان بالرقص والغناء ، فقد كان عروة يجتهد فى أن تكون لياليه أروع من ليالى عبد الله بن جدعان .

ومرت ليال مترعة باللذة ولكنها لم تكن مثل الليالى التى أمضاها فى ضيافة الحارث بن كلدة طبيب العرب ، فقد كان الحارث يُقعد مولاته سمية للبغاء ، وكانت فتاة حلوة ظريفة وقد مال إليها قلب أبى سفيان فكان يكثر الدخول بها والتردد عليها ، فحملت ووضعت ما فى بطنها ثم أرسلت إلى أبى سفيان وقالت :

ـــ هذا ولدك .

فانكره أبو سفيان و لم يقبل أن يلحقه به كما فعل العاص ابن وائل يوم أن وضعت النابغة عمرا وقبل العاص عن رضا بنوة عمرو بن العاص ، وأقسمت سمية:

ـــ واللات والعزى إنه ابنك يا أبا سفيان .

وأبى أبو سفيان أن يلحق زياد بن سمية بنسبة ، وجاء علماء قيافة البشر من يستدلون بهيئة الإنسان وشكله على نسبته وأكدوا أن زياد ابن أبيه أبى سفيان ؛ ولكنه لج فى الخصام وأصر على إنكار ذلك النسب .

كان موقفه مشينا ، إنه وهو السيد العظيم لم يصل فى شجاعته الأدبية إلى ما وصل إليه عبد من عبيد الحارث بن كلدة ، فقد دخل الأزرق مولى الحارث بسمية فلما أنجبت منه سلمة لم يحاول الأزرق أن يفر من فعلته فرار الجبناء كما فعل سيد بنى أمية ، بل أقر بسلمة وعرف منذ ولادته بسلمة بن الأزرق .

كان أشراف مكة وأشراف الطائف يُكرهون فتياتهم على البغاء ليجلبن لهم الأموال من الدعارة وما كان ذلك يخدش شرف السادة . وكان كثير من العُهار يروغون من ثمرة متعهم ، وكان أبو سفيان عاهرا وما كانت مثل هذه المراوغات تسىء إلى العلاقات بين مولى البغى وطالب اللذة ، فقد ظلت الصلة وطيدة بين أبى سفيان وبين الحارث بن كلدة حتى بعد أن أنكر بنوته

لزياد ابن جاريتهم سمية .

وجاء أبو سفيان إلى دار الحارث فاستقبل بالترحيب وحرص على ألا يرى سمية ولا ابنها ، ودخل على النضر بن الحارث فألفاه غارقا فى كتب الفلسفة والطب ؛ كان عاكفا على كتاب يفرق بين الصحة الروحية والصحة الجسمانية ويتحدث عن أطباء يمارسون علاج الروح وآخرين صناعتهم علاج الجسد ، فالعناية بالناحية الروحية كانت تدخل فى ممارسة الطب .

كان الحارث يقرأ : هناك ثلاث طرق للعلاج ، فما لا تنجع فيه الأدوية يشفى بالحديد (الجراحة) ، وما لا ينجع فيه الحديد يشفى بالكى ، وأما المرض الذى لا يمكن علاجه بالكى فأنه مستعص لا علاج له ، وقبل أن ينتهى من قراءته مس أذنيه صوت أبى سفيان يقول :

— عم مساء .

فرفع النضر بن الحارث ابن خالة محمد بن عبد الله رأسه ، فلما رأى أبا سفيان نحى الكتاب جانبا وقام إليه يعانقه ، وجلس الرجلان يتسامران وما حدَّث النضر ضيفه حديث الفلسفة ، فأبو سفيان يراها صعلكة فكرية وشعوذة ذهنية ، فهو لا يؤمن إلا بالمال الذى يزيد به ماله ، وبالجسد الذى يضمه إلى جسده ، وبأصحاب النفوذ الذين يدعمون سلطانه ، فهو فى قرارة نفسه يرى أن الفُجر دهاء ما دام يصل به إلى غايته .

وانتهت زيارة أبى سفيان لدار أشهر أطباء العرب فانطلق إلى دار صديقه أمية بن أبى الصلت أقرب الثقفيين إلى قلبه ، فهو نديمه ورفيقه فى تجارته ، فما انطلق إلى الشام أو إلى اليمن فى تجارة إلا كان أمية رفيق رحلته .

كان أمية قد قرأ فى الكتب أن نبيا يبعث فى الحجاز من العرب ، وكان يرجو أن يكون هو فلما رأى فيه بعض أحبار اليهود ورهبان النصارى بعض صفات

ذلك النبى المنتظر ، هجر شرب الخمر ومجالس عبد الله بن جدعان ولبس المسوح تعبدا وتجنب الأوثان وصام والتمس الدين طمعا فى النبوة .

كان يلتمس النور من الكتب و لم يطهر قلبه من الدنيا ، بل كان يجلس إلى نساء ثقيف يحدثهن عن نفسه وأنه النبى الموعود ، و لم يكن فكره صافيا ولا ذكره دائما ، ولم يعرف لذة النظر المستمر فى الله وفى ملكوت سمواته ، و لم يعرف ربه بربه بل عرفه من خلال الكتب .

إنه يفكر كثيرا فى تجارته فهى شغل قلبه وحظ نفسه ومدار تفكيره ، فإن فكر فى الله ساعة فهو يفكر فى شهوات الدنيا ساعات ، فقعد عن أن يسمو إلى آفاق الاتصال بذات الذوات ، فلم يشرق نور اليقين فى قلبه وإن داعب فكره كما تداعبه عرائس الشعر وشيطان القريض .

إنه كالفراش يتهافت على ضوء السراج وهو يحسب أنه يطلب النور ، فهو لا يحب الله لذاته بل طمعا فى النبوة التى تهفو إليها نفسه ؛ فأن يكون نبيا أعظم من أن يكون شاعرا مجيدا ، فالنبوة أخلد على الزمن من كل شعر الفطاحل والفحول ، وإن ذلك الجهل سيلقى به فى نار شهوة الرئاسة والسلطان وخلود الذكر ليخسر الدنيا والآخرة .

وما إن رأى صديقه أبا سفيان حتى أقبل عليه مستبشرا وقد طوى الكتب السماوية ونسى الله وراح يحدث صديقه وشريكه حديث التجارة وقد ألهته التجارة والبيع عن ذكر الله ، وفى الليل اجتمع السمار فقام ابن أبى الصلت ينشد شعره وقد انتفخت أوداجه غرورا .

وقبل أن تنتهى زيارة أبى سفيان للطائف اتفق مع صديقه الذى ينتظر النبوة أن ينطلقا إلى الحيرة ليوطدا الصداقة بينهما وبين ملك الحيرة ، فالنعمان حاكم قوى يكسبهما تأييده قوة وعزة ويزيد فى هيبتهما ، وما فكر ابن أبى الصلت

الذى تهفو نفسه إلى أن يكون رسول الله فى أن يتوكل على الله وأن يعتمد فى دينه ودنياه على شديد القوى .

١٨

كانت قصور الأكاسرة والقياصرة والملوك قبلة العرب الذين ينشدون ملكوت الأرض ، فكان كبار التجار والشعراء يشدون الرحال إلى الحيرة ملتمسين الجوائز أو القرب من النعمان ملك العرب العظيم ، وكان أصحاب الأطماع من أمثال أبى سفيان وأمية بن أبى الصلت يرون فى النعمان خير مؤيد فهو مفتاح قلب كسرى ملك ملوك الأرض ، وكان آخرون يهرعون إلى القسطنطينية ابتغاء وجه إمبراطور الدولة الرومانية .

خرج عثمان بن الحويرث يوم أن طمع فى أن يملك قريشا حتى قدم على قيصر وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم ببلاده ، فذكر له مكة ورغبه فيها وقال : تكون زيادة فى ملكك كما ملك كسرى صنعاء . فملكه قيصر على العرب وكتب له إليهم ، فلما قدم عليهم قال : إن قيصر من قد علمتهم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم ، وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم ، وإنما آخذ الجراب من القَرَظ والعكة من السمن والإهاب فأجمع ذلك ثم أبعثه إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشآم فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه .

فلما قال لهم ذلك خافوا قيصر وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم فأجمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاج عشية وفارقوه على ذلك ، فلما طافوا عشية

بعث الله عليه ابن عمه أبا زمعة الأسود بن المطلب بن أسد ، فصاح على أحفل ما كانت قريش فى الطواف : يا آل عباد الله ، ملك بتهامة ! فانحاشوا انحياش حمر الوحوش ثم قالوا : صدق واللات والعزى ! ما كان بتهامة ملك قط . فانتفضت قريش عما كانت قالت له ولحق بقيصر ليعلمه ، فكلم تجار من قريش بالشآم عمرو بن جفنة ملك غسان فى عثمان بن الحويرث ، وسألوه أن يفسد عليه أمره ، فكتب إلى ترجمان قيصر يُحوِّل كلام عثمان ، فلما دخل عثمان على قيصر يكلمه قال للترجمان :

— ما قال ؟

— مجنون يشتم الملك .

فأراد قتله وأمر به فدُفع ، إلى أن مر برجل من أصحاب الملك فتمثل ببيت شعر ، فكلمه عثمان بن الحويرث وقال له :

— إنى أرى لسانك عربيا فمن أنت ؟

— رجل من بنى أسد ، وأنا أكره أن يزروا بنسبى .

— فما دهانى عنده ؟

— الترجمان ، كتب إليه عمرو بن جفنة أن يحول كلامك .

— فكيف الحيلة فى أن تدخلنى عليه مدخلا واحدا وخلاك ذم .

— أفعل .

فاحتال له حتى دخل عليه ، ودعا له قيصر الترجمان فقال له عثمان :

— إنى أفجر الناس .

فأعلم ذلك الترجمان قيصر .

— وأغدر الناس .

فأعلمه الترجمان قيصر أيضا .

— وأكذب الناس .

فذكر ذلك الترجمان لقيصر ، ثم أهوى عثمان فتشبث بالترجمان فقال قيصر :

— إن له لقصة ، فادعوا لى ترجمانا آخر .

فدعوه له فأفهمه قصته ، فعاقب قيصر الترجمان الأول وكتب لعثمان بن الحويرث إلى عمرو بن جفنة أن يحبس له من أراد حبسه من تجار قريش ، فقدم على ابن جفنة فوجد بالشام أبا أحيحة سعيد بن العاص وابن أخته أبا ذيب فحبسهما ، فوقعت العداوة بين عبد شمس وبين بنى أسد .

كان العالم منقسما إلى معسكرين : معسكر تحت حكم الفرس ومعسكر تحت حكم الرومان ، وكان الناس خارج هاتين الكتلتين هواهم مع كسرى أو مع قيصر ، وكانت ميول سادات العرب منقسمة فبينا فريق يميل إلى قيصر ويرجو منه الخير ، كان فريق آخر يميل إلى كسرى ويؤم الحيرة بل وينطلق إلى إيوان كسرى ويذهب فى تملقه إياه أو الإعجاب به إلى أن يفرض على قومه دين المجوسية .

ولم تقف أطماع أبى سفيان وشريكه أمية بن أبى الصلت عند قصر الخورنق بل عزما أن ينطلقا إلى العراق إلى قصر كسرى ، فخرج أبو سفيان فى نفر من قريش ومن ثقيف فوجهوا بتجارة إلى العراق ، فقال أبو سفيان :

— إنا نقدم على ملك جبار لم يأذن لنا فى دخول بلاده فاعدوا له جوابا .

وكان فى القوم غيلان بن سلمة الثقفى وكان أحد حكام قيس ، فقال :

— أنا أكفيكم على أن يكون نصف الربح لى .

— نعم .

واستأذنوا على كسرى فأذن لهم فى الدخول حتى كان بينهم وبينه شباك ،

وتقدم غيلان وكان جميلا فقال له الترجمان :

ـــ يقول لك الملك كيف قدمتم بلادى بغير إذنى ؟

فقال غيلان :

ـــ لسنا من أهل عداوتك ولا تجسسنا عليك وإنما جئنا بتجارة ، فإن صلحت لك فخذها وإلا فائذن لنا فى بيعها ، وإن شئت رجعنا .

فإنه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى فخر ساجدا ، فقال له الترجمان :

ـــ يقول لك الملك ما أسجدك ؟

ـــ سمعت صوتا مرتفعا حيث لا ترفع الأصوات ، فظننته صوت الملك فسجدت .

فشكر له ذلك وأمر بمرفقة فوضعت تحته ، فرأى فيها صورة الملك فوضعها على رأسه فقال له الحاجب :

ـــ إنا بعثنا بها إليك لتقعد عليها .

ـــ قد علمت ، ولكنى رأيت عليها صورة الملك فوضعتها على أكرم أعضائى .

فاستحسن كسرى ذلك أيضا ثم قال له :

ـــ ألك ولد ؟

ـــ نعم .

ـــ فأيهم أحب إليك ؟

ـــ الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم .

ـــ أنت حكيم من قوم لا حكمة فيهم (١) .

---

(١) ارجع إلى كتاب « سعد بن أبى وقاص » للمؤلف ، قارن بين وفود العرب قبل الإسلام وبعده .

وبعث كسرى معه من يبنى له أطما بالطائف ، فكان أول أطم بنى بالطائف ، ولم يقف نفوذ الفرس عند هذا الحد ، فقد اعتنقت تميم المجوسية وعبد التميميون النار وقالوا كما قال الفرس : إنها أعظم العناصر جرما ، وأوسعها خيرا ، وأعلاها مكانا ، وأشرفها جوهرا ، وأقدرها ضياء وإشراقا ، وألطفها جسما وكيانا ، والاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع ، ولا كون للعالم إلا بها ، ولا حياة ولا نمو ولا انعقاد إلا بممازجتها .

وكانوا يحفرون أخدودا مربعا فى الأرض ويؤججون النار فيه ، ثم لا يدعون طعاما لذيذا ولا شرابا لطيفا ولا ثوبا فاخرا ولا عطرا فائحا ولا جوهرا نفيسا إلا طرحوه فيها ، تقربا إليها وتبركا بها .

وكانوا يحضون على الأخلاق الحسنة وينهون عن الكذب والحسد والحقد واللجاج والبغى والبطر ، فإذا تجرد الإنسان عنها قرب من النار وتقرب إليها .

ولم يكتف بنو تميم بعبادة النار بل أخذوا عن المجوس الزواج من المحارم ، فتزوج حاجب بن زرارة ابنته ثم ندم ، وسمى لقيط بن زرارة بنته دختنوس مستعيرا ذلك الاسم من الفرس ، ثم تزوجها ومات عنها فقال وهو يجود بأنفاسه :

يا ليت شعرى عنك دختنوس

إذا أتاها الخبر المرموس

أتحلق القرون أو تميس

لا ، بل تميس إنها عروس

كانت العرب شيعا متفرقين وفرقا مختلفين ، فالنصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وبنى الحارس بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية فى تميم ، وكان عدم الإيمان بالآخرة والربوبية فى قريش وقد أخذوا ذلك من الحيرة ، وكان بنو حنيفة قد اتخذوا إلها من تمر خلط

بسمن فعبدوه دهرا طويلا ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ، فقال رجل من تميم :

أكلت ربها حنيفة من جو
ع قديم بها ومن إعواز

كان العرب قبائل متنافرة لم يتفقوا فى دين ، وكانت قبلة كل قبيلة عرشا من عروش القياصرة أو الأكاسرة أو قصرا فى غسان أو الحيرة أو ملكا فى دومة الجندل أو الحبشة ، وكانت قلوبهم مختلفة لم يتفقوا فى الدين أو الاعتقاد ، فكانت قبائل تشد الرحال إلى اللات والعزى ومناة ، بينما كانت القبائل التى تدين بالمجوسية تحتفل بيوم النيروز ويعتقدون أنه اليوم الذى خلق الله فيه النور . وكانت القبائل التى تدين بالنصرانية تحتفل بيوم ، « البشارة » وهو يوم بشارة جبريل لمريم بميلاد عيسى عليه السلام ، وبعيد الشعانين وهو ركوب المسيح الأتان ودخوله القدس والناس يرحبون به بهز سعف النخل ، وبالفصح وهو يوم قيام المسيح بعد الصلب ، وبخميس الأربعين وهو يوم رفع المسيح إلى السماء ، وقد وعد حوارييه فى ذلك اليوم بإرسال (الفراقليط) ، وبعيد العنصرة وهو اليوم الذى حلت فيه روح القدس فى تلاميذه وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة ، وراح كل منهم إلى بلاد لسانه يدعوهم إلى دين المسيح عليه السلام .

واحتفلت القبائل التى دانت باليهودية بأعياد اليهود ، فكانوا يصومون الصوم العظيم ومدته خمس وعشرون ساعة ، يبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين وتختم بمضى ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر وهو تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام ، وكانوا يحتفلون بعيد المظال وعيد الفطير وعيد الأسابيع ، وهو عندهم اليوم الذى خاطب الله تعالى فيه بنى إسرائيل ، وعيد الفوريم وهو عيد إستر التى لعبت بعقل أخشويرش

إمبراطور الفرس فكتب لليهود بالأمان ، وهو عيد سرور ولهو وخلاعة يهدى بعضهم فيه إلى بعض ويصورون من الورق صورة عدوهم هامان ويملئون بطنها نخالة وملحا ويلقونها فى النار .

قبائل متنافرة لو أنفق زعيم ما فى الأرض جميعا ما ألف بين قلوبهم ، ومجتمع مريض يُكرِه فيه السادة إماءهم على البغاء ليملئوا خزائنهم ذهبا وفضة ، وشرك بالله ، واختلاط بين الآلهة والأوثان ، وعصبية للقبيلة بغيضة ، ووأد للبنات ، وقتل للأولاد خشية إملاق ، وإراقة دماء الأبرياء للأخذ بالثارات ، وعبيد يخرون صرعى تحت الأقدام ، وظلم للضعفاء والفقراء وتمزيق لأواصر الأخوة الإنسانية ، واطلاق عنان الشهوات ، وإباحة للحرية الجنسية وحرية التجارة وحرية الاستغلال ، وقافلة الجاهلية منطلقة إلى الهاوية .

إن قوانين الطبيعة كلها تؤكد أن هذا المجتمع المريض سائر فى طريق الموت فهو ينتحر بيده ويتحلل من داخله ، وما من قوة فى الأرض بقادرة على أن تصف له الدواء ، وما من رجل واحد بمستطيع وحده أن ينتشل ذلك المجتمع الذى يتردى فى الهاوية ، فلولا أن تتداركه رحمة من ربه لأدركه البوار .

إن الله ليدخر لجزيرة العرب التى تموج بالإحن والمثالب والجور أفضل رسالة ، ليشع النور من بلاد الظلمات ، ليكون ذلك آية من الله ، وإنه سيوحى إلى عبده محمد بن عبد الله بدين الإنسانية ، ليبرأ المجتمع المشرف على الهلاك من أمراضه بفضل الله وعنايته ليبزغ من أرض الرذيلة فجر التاريخ الجديد .

١٩

كان محمد يرابط مع الله على الدوام ويسير فى رفقته فى الليل أو فى النهار ، فى البيت أو فى الطريق أو فى الحرم أو فى الأسواق ، قد صبر على العزلة والانفراد وصبر على مخالطة الناس وأحب كل خلق الله ، فأشرقت أنوار المعارف من باطن فؤاده .

إنه قد اختبر عمق الحياة الباطنية وذاق حلاوة الأنس بالله والانجذاب إلى السماء ، وراح يرقب نموه الروحى وهو متهلل بالفرح مفعم بالاستبشار ، فهو يستشعر أنه قد مر على الجسر الذى يفصل بينه وبين الذات العلية حتى صار الله حديث النفس فى العزلة وفى مجتمعه الصغير وفى الخضم الزاخر بالناس وحيثما كان .

إنه يحس رحابة فى نفسه وحرية مطلقة استمدها من الجوهر الإلهى ، فهو لا يستشعر عبودية إلا لله ، فليس لأحد عليه سلطان إلا رب العالمين ، وما كانت الحرية التى ألهمها حرية هدامة تنخر فى قلب الوجود ، بل كانت حرية لا ترى كمال الحرية إلا فى أن تصبح كل البشرية حرة ، لتندمج فى صميم الضرورة الإلهية الصالحة الخيرة ، وذلك هو طريق الخلاص .

إن الصبر مع الله شديد ولكن الاندماج فى الله يزيل الحجب عن أسرار ملكوت الأرض والسماء ، ويسمو بالبشرية إلى ما وراء دنيا الحقد والحسد والظلم والطغيان . ويمد الناس بقلوب جديدة ناصعة تستبشر كل يوم بل كل لحظة بالمكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت .

إنه أحب النزوع إلى السماء . وإنه واقف على أعتاب الأسرار الإلهية قد عرف معنى السعادة الحقيقية ، ولكنه كان يحس فى صميم ذاته أن سعادته ناقصة لأنه لا يستمتع بطعم السعادة الكاملة إلا بسعادة الآخرين ، فهو لا يعيش لنفسه بل فطر على أن يبذل نفسه للعالمين .

إنه وهو فى عزلته يعيش مع الله بعقله ووجدانه وبصره وبصيرته ، وإنه وهو فى تعاطفه مع البشرية يعيش مع الناس وهو فى صحبة ربه بكل كيانه وجوارحه وعواطفه ومشاعره ، فهو فى رفقة الله على الدوام سواء أكان وحده أم مع الأغيار ، فى يقظته أو فى منامه ، فهو قاصد وجه الله ، وقد كساه ربه تقى وورعا وجلالا فانجذبت إليه قلوب الناس وانشرحت الصدور بحبه .

إنه يرغب فى الخير رغبة صادقة ، لنفسه ولمجتمعه وللبشرية جمعاء ، قد ألهم أن خير الأرض كلها إن هو إلا قبس من الخير الأسمى ، فهفت روحه إلى أن ترشف من النبع الصافى ، من ينبوع كمال الكمال ، فراح يستعين بالله ليصل إلى الله ، وإن الله ليأخذ بيده بقدرته اللامتناهية ليضعه على ذروة البشرية ، رحمة للعالمين ، فقد خلقه الله ليكون رسوله ومبشرا بدينه القويم .

شاءت الحكمة الإلهية أن يترقى محمد إلى الروحانيات وأن تلقى المعارف فى روعه على مر الأيام والسنين ، حتى إذا ما حان أوان نزول الروح الأمين عليه بأمر ربه يكون قد تأهب لذلك الحادث الجلل الذى تتزلزل له النفوس وتنفطر له القلوب ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

كان يفكر فى الغدو والآصال فى ملك الله فيصفو قلبه وتبذر بذور الحكمة فى وجدانه وتربو خزائن علمه ، وكان ينظر بعقله فى حقائق السموات والأرض فيرى كمال خلق الله وبهاء وجه الله وعظمة ملك الله وقدرة الله ، وأنه سخر كل شىء بمقدار وأن ليس لأحد فضل إلا من فضل الله ولا سلطان لعبد

من عباده إلا بتمكين الله له .

كان فيض من النور ينسكب فى قلبه من فوق السموات ، وكان تياره متصلا غير مقطوع يزيد الفؤاد إشراقا حتى تحين لحظة التنوير ، تلك اللحظة التى تسمو فيها روح محمد الأمين بإذن الله لتصبح أهلا للاتصال المباشر بروح القدس ، ليبلغ الناس رسالة السماء البلاغ المبين .

إعداد وجهاد ، وصبر على البلاء وصبر على العافية ، وأنس بالله ورحمة من الله ، وسمو وارتقاء ، وقصد ووصول واتصال ، وفرح واستبشار ودموع ، وتأديب من الله حتى تتحقق إرادة العليم الخبير .

وتأهب القرشيون للخروج إلى الأسواق ، فراح رجال ينزعون أسنة الحراب ويطوون السيوف حتى لا تراق الدماء فى الأشهر الحرم ، وراح رجال وعبيد يجهزون قوافل التجارة ، وجعل محمد يعد العدة للانطلاق إلى سوق مجنة فقد فطن منذ نعومة أظفاره أن الأسواق موائد الله يبسط الرزق عليها لمن يشاء ، فلم يركن إلى أموال خديجة ويعتزل الدنيا لعبادة ربه ، فقد نفث فى روعه أن العمل عبادة فكان يمشى فى الأسواق يبتغى من فضل الله .

والتقى بأبى بكر صديقه الذى يحبه ويألفه وينجذب إليه ، وراحا يتحاوران حوارا صادقا عميقا كله طهارة وسمو لا يتناسق مع مبازل القوم وجهلهم ، ووقعت عينا محمد على الطير تغدو فى طلب الرزق فانبسطت أساريره . فذلك الغدو الرقيق حرك قلبه إلى ذكر الله وزاد تألق أنوار اليقين فى صميم وجوده .

وكان يقرب أبا بكر إلى قلب محمد تواضعه وعزوفه عن الشهوات وحماسته لما فيه الخير والصلاح واستقامة ضميره ، واستخفافه بالأصنام وبأحلام عابديها ، وذهنه المتفتح للفهم والتفكير الرصين ، وإيمانه بالغيب

وقد قاده ذلك الإيمان إلى تفسير الرؤى والأحلام ، ووقر فى ضميره أن عجزه عن إدراك كنه الله إدراك .

وحطت القافلة فى السوق ، وظهرت مواكب الشعراء ، فهرع الغاوون إليهم وهاموا معهم فى الوديان يلقون إليهم أسماعهم ، وراح الشعراء يقولون ما لا يفعلون والناس بهم منفعلون قد امتلأت أفئدتهم بنشوة عارضة زائفة .

وبدأ البيع والشراء فأطل الجشع من العيون وبرز التنافس الخسيس بين التجار ، وطغت شهوة المال على أفعال الرجال والنساء ، وغصت السوق بمن يعيشون لأنهم يملكون وبمن يعيشون لأنهم يخضعون ، وتكدس الذهب والفضة لدى كبار التجار من قريش ، إنها كنوز ولكنها مثقلة بدموع العبيد .

وجاء الليل فدبت الحياة فى خيام صاحبات الرايات الحمر ، وكان أغلبهن من إماء السادة جاءوا بهن ليمارسن البغاء ابتغاء جمع المال لعبيد المال ، فقد صار المال معبود الجميع تنحر على مذبحه القيم الإنسانية المقدسة ، ويطلق له بخور الشهوات ، ويغسل بأنبذة الشام والخمور المجلوبة من كل مكان ، ويفرش له الطريق بدماء الضحايا وأنات المظلومين ودموع المساكين وقهقهات الطاغين .

وفى منتصف الليل بين الضحكات الماجنة والأنات المحزونة قام المجوس من تميم للصلاة الأولى ، فقضوا ساعات فى تلاوة الأناشيد يسترضون بها شياطين الظلام قبل انبثاق النور الأعظم عند الصباح ، كانوا يؤدون الصلاة بألسنتهم بينا كانوا أشحة على الخير قدت قلوبهم من فولاذ ، بل كانت أقسى من الفولاذ .

كان دين زرادشت قد فسد فقد امتزج دين التوحيد بالتنجيم والخرافة بالعبادة ، وصار أهورامزدا إلٰه النور والنار المقدسة ، وبنيت لها بيوت وصار

لها كهنة وأدعية وطقوس وعبدت لذاتها ، ونسى عبادها الله الذى دعا إلى عبادته نبيهم الذين ظلموه .

وكان الذين اعتنقوا اليهودية من العرب يمشون فى الأسواق يأكلون الربا ويبخسون الناس أشياءهم ويستعلون على من عداهم ، فقد لقنوا أن الإله ملك لهم دون سائر عباده ، فقد جمدت اليهودية على النصوص وتحولت من دين يدعو إلى عبادة إله واحد إلى تنطع فى التفسير والتأويل حتى عبد اليهود أنفسهم غرورا .

كانوا فى شقاء روحى وتمزق وجدانى بين آراء الربانيين وآراء القرائين لا يدرون إلى أى فريق من الفريقين يميلون ، ومن أى منهل ينهلون ، وقد كثرت شروح التوارة وتضاربت وماجت بالأساطير .

وكان الذين اعتنقوا النصرانية يتأرجحون بين مذهب النساطرة ومذهب اليعاقبة قد لقنوا مبادىء تناقض روح الإنسانية ، فبولص الذى سلب عرش السيد المسيح يقول : « إنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان : واحد من الجارية والآخر من الحرة ، لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد ، وأن الذى بالحرة فبالموعد .. » إنه يدعو إلى التفرقة والعصبية ، يدعو إلى ما لا يدعو إليه إله رحيم ، فما كان الله ليسبغ رحمته على قوم لأنهم ولدوا من حرة ، وما كان ليقفل أبواب رحمته فى وجه أقوام لأنهم ولدوا من جارية !

نجح بولص فى أن يفسد الإسلام الذى دعا إليه السيد المسيح ، كما نجح الأحبار وحكماء صهيون فى أن يطمسوا معالم الإسلام الذى جاء به موسى عليه السلام ، وطمس المجوس معالم دين زرادشت ، فتقطعت أواصر الأخوة العالمية ، وقلعت من الأرض جذور التعاليم الإلهية التى أنزلها الله على رسله لسعادة البشر .

كان الخلاف بين أهل الكتاب من العرب محدودا بينا كان مشتعل الأوار فى الدولة الرومانية وفى الدول التى تدور فى فلكها ، فكنيسة الإسكندرية تكفر كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية وتطرد أتباعهما من حظيرة الإيمان ، وترمى كنيسة القسطنطينية كنيسة الإسكندرية بالكفر والإلحاد ، وقد نشبت الفرقة والعداوة بين أصحاب الديانة الواحدة ، وتنكبت المذاهب كلها سواء السبيل بعد أن صار الدين تعصبا وطقوسا وقشرة رقيقة تكسو سطح القلوب ، بينا كانت الضمائر فاسدة ، والآثام ترتكب على أعين الناس ، والقيم الإنسانية تحرك فى أتون الأنانية وتذرو هشيمها رياح الشهوات .

شغلت الأفئدة بحب الدنيا عن الله ، فاندلعت ألسنة الجشع ، وقوى سلطان المال ، واشتد نهم الشهوات وظمأ الأجساد إلى الحرام وسواعد جنود الشيطان ، واتسعت عيون الحسد ، وضاقت الصدور بالأحقاد ، فغرقت البشرية فى بحر الضلال .

وراح سوس الفساد ينخر فى دين الفرس وتهاوت عليه مطارق المفسدين باسم الدين فترنح ثم تهاوى لما شاعت فيه شيوعية المال والنساء بعد دعوة مزدك ، وقد حاول كسرى أنو شروان أن يقتلع أشجار الرذيلة التى غرسها من زعم أنه « الفراقليط » بيد أن ملك الملوك كان أعجز من أن يقضى على ما شاع فى النفوس من تنافر وتناحر وبغضاء وانقسام وعدوان وكراهية وطمع ونفاق ومادية طاغية .

ظهر الفساد فى البر والبحر ، واتبع الناس أهواءهم وصارت أفئدتهم هواء لا وازع من دين أو ضمير أو من قانون يحترم مكارم الأخلاق ، قد قست قلوبهم وطبع الله على أفئدة الكافرين ففقدت الثقة فى كل شىء ، وأكدت حوادث الوجود حاجة الدنيا إلى الإيمان : إلى رسالة من السماء تنتشل البشرية

التى تتمرغ فى الحضيض .

وتصرمت أيام سوق مجنة فانتقلت جموع الناس إلى سوق ذى مجاز ، فراح الشعراء يتفاخرون ويؤججون نيران العداوة بين القبائل ، ثم أقبل الناس على البيع والشراء حتى إذا ما مالت الشمس للغروب عاد رجال كل قبيلة إلى رايتهم ، فعاد القرشيون ليجتمعوا تحت الراية التى رفعها أبو سفيان .

ومدت الموائد التى زخرت بما لذ وطاب فانكب الناس على الطعام يلتهمونه فى نهم ، بينا اكتفى محمد بلقيمات يقمن صلبه ، فقد عرف أن امتلاء المعدة يلصقه بالأرض ويشد روحه بأثقال تعوقها عن أن تحلق لتنجذب إلى السماء ، وهو لا يطيق أن تمر لحظة دون أن ينظر إلى وجه ربه .

وتكونت حلقات السمار وانغمس الناس فى لهو لا حدود لحريته لا تقف أمامه سدود من حياء ، يسارعون فى الإثم والعدوان ويفسدون فى الأرض قد ضلوا عن سبيل الله وران على قلوبهم ظلام ثقيل .

وانسل محمد بعيدا عن مذبح الفضيلة ، بعيدا عن الأنفاس الضالة التى لوثت نقاء ما خلق الله ، حتى إذا ما واجه الصحراء ووقعت عيناه على تلألؤ النجوم فى السماء وزفير النسيم وحنان الصمت ورقة السكينة أحس أنه فى محراب الله ، فخر ساجدا لله رب العالمين .

وشد الناس الرحال إلى سوق عكاظ ، واجتمع الشعراء فى خيمة النابغة الذبيانى ليحكم بينهم ، وقد جاء حسان بن ثابت وغريمه قيس بن الحطيم من يثرب ، وجاء شعراء طيء وعبس وقيس عيلان وكندة وتميم وغطفان وهوازن ليتفاخروا ويتنابذوا بالألقاب وليهجو بعضهم بعضا ، أو ليتغزلوا فى كرائم النساء دون حياء فيذهب شعرهم فى القبائل .

وكان بعض الشعراء يفضلون أن يذهبوا إلى حيث كانت قريش لينشدوا

أشعارهم بين يدى أبى طالب والزبير بن عبد المطلب وحمزة والعباس وأبى سفيان وحكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة وأبى الحكم بن هشام وسادات أهل الحرم ، فقد كانت قريش تعلق فى الكعبة ما تجيزه من الشعر إلى جوار هبل إله الشعر العظيم ، وإنه لفخر ما يدانيه فخر أن يكون شعر شاعر من المعلقات .

ودبت الحياة فى سوق الرقيق فارتفعت أصوات الدلالين تنادى على رجال من الروم والفرس والعرب ، وعلى نساء بيض وسمر وسود ، وعلى غوانى راقصات ومغنيات ، وعلى ولدان من كل الأعمار ، فقبائل العرب كانت يغير بعضها على بعض أو تقطع طريق القوافل أو تغير على تخوم الدول الكبرى وتحمل الأسرى إلى الأسواق ليباعوا بيع الرقيق .

وجاء اللصوص إلى السوق العظمى بما سرقوه من متاع وعرضوه على الوافدين من كل فج عميق من الجزيرة العربية ، ونشطت حركة البيع والشراء والطواف بالعبيلات بالليل والنهار ، وتحريك الشفاه بصلوات تتراقص على أطراف الألسن دون أن تنبع من صميم القلوب .

واجتمع السمار للشراب وللعب الميسر واللهو ، وأطل الجشع من عيون الرجال وتراقصت الشهوة فى عيون النساء المتطلعات إلى الثراء ، وكانت السوق تموج بالباحثات عن الذهب من صواحب الرايات الحمر والمتعطشات إلى المغامرات ، فأريقت دماء الفضيلة على الأرض التى كانت طاهرة قبل أن تدنسها أقدام المفسدين .

وانتهت أيام سوق عكاظ بما فيها من ظلم وعدوان وفسق وتمزيق أواصر الأخوة البشرية واضطهاد للإنسانية والحط من قيمة الإنسان ، فانطلقت جموع العرب إلى مكة للطواف ببيت أبيهم إبراهيم وتأدية مناسك الحج الأعظم .

كانوا يزحفون إلى بيت الله وقد شغلت قلوبهم بالدنيا ، يفكرون فيما حققوا من أرباح أو ما حملوا من أوزار ، وكانوا فرحين بما ارتكبوه من خطايا ، بينا كان محمد يسير وقد نزع الله عنه الوحشة وأسكن الغنى قلبه ، لأنه لم يجعل بينه وبين ربه عالما يحجبه عن حبه ، فأنار الله قلبه وأضاء سريرته .

ووقف الحمس عند الطريق المؤدية إلى الكعبة يكرون ثيابهم الطاهرة للأغنياء ، بينا راح الفقراء يخلعون ثيابهم التى اقترفوا فيها المعاصى ويلقونها على الأرض ليطوفوا عرايا ، وفى الليل خلع النساء ثيابهن وذهبن إلى الحرم للطواف .

تقاليد ابتدعها الحمس ما أنزل الله بها من سلطان ، وما جاء بها أبوهم إبراهيم يوم أن شرع الحج وقام بتأدية مناسكه ، ولكن طال على العرب الأمد فقست قلوبهم ودسوا فى الدين القويم الخرافات وأشركوا بالله وجعلوا له أندادا .

وخرج الناس من الحرم ليؤدوا الحج فى منى والمزدلفة فما كانوا يذهبون إلى عرفة ، فضجت جنبات الجبال والوديان بتلبية الشرك .

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

كانت تلبية تمزق كيان محمد ، فهو يضيق بتلك التلبية الظالمة التى جعلت مع الواحد الأحد إلها غيره ، وقد ضاق صدره من قبل بالجشع المادى الذى تبدى فى كل الأسواق وبالفسق وبالظلم وبالعدوان وبالرذائل التى كانت ترتكب فى كل مكان ؛ ولكن ماذا يستطيع محمد أن يفعل وحده لتقويم كل ذلك الاعوجاج ؟ إنه لا يستطيع إلا أن يستنكر ذلك بقلبه فما كان يتصور أنه قادر على أن يقف فى وجه تيار الفساد الجارف الذى غمر الحياة فى كل بلاد

العرب ، فتغيير ما جبلت عليه نفوس عرفت حرية الانطلاق وحرية الاضطهاد وحرية الطغيان وحرية الرذيلة شيء فوق طاقة البشر .

إنه شيء لا يقدر عليه إلا الله ، خالق تلك الأنفس الذى ألهمها فجورها وتقواها ، وإن محمدا الذى يقف مكتوف اليدين أمام سطوة الشرك بالله وسلطان المال وعصبية القبيلة وبطش الأقوياء ، لسوف يقف كالطود الأشم فى وجه ذلك التيار الفاسد لا ليصده وحسب ، بل ليغير مجراه إلى مجرى الخير والفضيلة وكرامة الإنسان ، يوم أن يؤيده الله بسلطانه ويبعثه رسولا للرحمة والمحبة وكرامة الناس أجمعين .

٢٠

كان بيت خديجة غارقا فى الصمت لا صوت ولا نأمة ، فمحمد رب البيت فى غرفته يناجى ربه ويدعوه ويحمده ، وقد جلس زيد بن حارثة وحده شاردا فرأى يوم أن خرج مع أمه ليزورا أهلها فأصابته خيل من بنى القين بن جسر فباعوه بيع الرقيق .

وترقرقت الدموع فى عينيه فهو يحن إلى أهله ، فصورة أمه سُعدى تملأ أقطار رأسه وتتخايل له فى نومه ويقظته ، وطيف أبيه حارثة لا ينثنى عن خياله ، وملاعب صباه حبيبة إلى نفسه حتى إن فؤاده يهوى دواما إليها ، وطالما تمنى أن يكون له جناحان ليطير إلى وطنه .

ورأى نفسه وهو يعيش فى دار حكيم بن حزام حياة الرقيق ، كانت حياة قاسية مرة لوصيف لم يتجاوز الثامنة من عمره ، بعد أن كان يقضى نهاره فى حجر أم تغمره بحنانها ، وإذا ما ارتمى فى أحضان أبيه يمطره بقبلات رقيقة صادرة من قلب رحيم .

ورأى خديجة بنت خويلد وهى تدخل على ابن أخيها حكيم فيقودها إلى حيث كان الرقيق ، ورن فى جوفه صوت حكيم وهو يقول :

ــ اختارى يا عمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك .

ورأى خديجة وهى تجول بعينيها فى وجوه الرقيق ، وطافت به نسمة من السرور لما تذكر أن عينى خديجة ثبتتا على وجهه ، إنه قرأ فى عينيها بعض ما تزخر به كنوز قلبها من رقة ورحمة ، وقد ألقى فى روعه أن تلك اللحظة حاسمة

فى حياته وتمنى بكل كيانه لو يقع عليه اختيارها .

وزخر صدره بأمنية أن يتعلق بعنقها كما كان يتعلق بعنق أمه ، بيد أنه كبح جماح نفسه وإن رفت على شفتيه بسمة عبرت عن مكنون صدره ، وأحست خديجة انجذابا إليه فاختارت وما اختارت إذ اختارت ولكن الله اختاره .

ورأى نفسه وهو ينطلق إلى جوارها فى طرقات مكة ، وهو يهبط بضع درجات ليصل إلى باب الدار ، وهو يسير فى ممر طويل عن يمينه عند مدخله حجر كبير ، وهو يصعد بضع درجات ليجد نفسه فى دار مؤثثة بفاخر الرياش ، ولم يعجب فقد عرف أنها دار أغنى امرأة فى قريش .

وخفق قلبه بين جنبيه كجناح حمامة وغمره سرور وانشراح وبهجة وهو فى مجلسه ، فقد رأى بعين خياله أول مقابلة كانت بينه وبين محمد بن عبد الله زوج خديجة التى اختارته .

إنه أول ما رآه أحبه من كل قلبه واستشعر كأن بردا وسلاما وأمنا نزل على فؤاده ، وحدثه حديثا رقيقا فأحس كأنما حنان الأرض ينسكب فى وجدانه ، وطافت به رغبة أن يستظل بظله لينعم برقة شمائله وحنانه الدافق وقلبه الكبير .

إنه ليذكر أحداث ذلك اليوم بكل تفاصيلها فهو يوم فاصل فى حياته ؛ إن محمدا التفت إلى زوجه خديجة واستوهبه منها فوهبته له عن طيب خاطر ، وقد لاح أن السعادة ترفرف على البيت الذى تنبض جوانبه بمحبة عارمة .

وهزه فرح فياض لما تذكر ذلك اليوم الذى أعتقه فيه محمد ، فهو لم يكتف بأن رد إليه حريته بل تبناه فصار أمام المجتمع المكى المتغطرس زيد بن محمد ، زيد ابن الأمين .

وشطح خيال زيد فرأى نفسه وهو يهرع إلى الحرم فى كل آن يطوف بالبيت العتيق الذى كانت زيارته تتخايل لأفئدة قبائل العرب كل العرب ، فهو البيت

الجامع الذى انصهرت فيه لغة العرب الشماليين ولغة العرب الجنوبيين ولغة العرب فى كل بقاع جزيرة العرب ، فمن اختلاط عرب غسان وعرب الحيرة وعرب نجران وعرب قريش تكونت اللغة التى سينزل بها القرآن .

جاءت لغة قريش الرقيقة العذبة من الشمال ، من البتراء عاصمة مملكة النبط أحفاد إسماعيل ، لما فر النبطيون ولاذوا بالحرم عندما قوض الرومان مملكتهم القوية التى كانت تنافس الفرس والروم ، والتى امتدت من العراق إلى شمال دلتا النيل ، وذهب سفراؤها إلى روما وإلى عاصمة الفرس . وفى أول بيت وضع للناس اجتمعت قبائل العرب وتفاهمت بلغة أهل الحرم ، فتسربت اللغة المكية إلى كل اللغات العربية الأخرى حتى صارت اللغة واحدة يفهمها كل العرب ، وكان لرحلة الشتاء والصيف التى سنتها قريش أثرها فى وحدة اللغة ووحدة الفخر بلسان مبين ، فحلت اللغة محل العرش والدولة : ربطت بين القبائل المتنافرة ويسرت وحدة أحكام حكام القبائل فى الدية والخلع والمغارم كلها ، وقامت الأسواق التى كانت تقام فى مكة وتهامة وأرض اليمن وبصرى بأرض الشام بدور رائع فى وحدة اللغة ، التى كانت خير تمهيد لمطلع النور الذى أشرق من الحرم .

ورأى زيد بعين خياله موسم الحج وقد ازدحم الحرم بأناس من غسان ومن الحيرة ومن نجران ومن كل فج عميق من بلاد العرب ، و لم تستطع عين الصبى أن تميز بين العرب المتهودين ولا العرب المتنصرين ولا من دان منهم بديانة المجوس ، فقد كانوا جميعا فى عينيه عربا يقدسون البيت غاية التقديس .

لم يحاول اليهود أن يكشفوا للعرب عن سخف الجاهلية و لم يعملوا على نشر الهداية وإن كان دينهم قد جمد على النصوص ونخر فيه سوس الفساد ، و لم يكونوا قدوة حسنة لمن اتبع دينهم أو لمن عاش فى جوارهم من العرب ، فهم

فى شقاق دائم تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، يمارسون الدس بين قبائل العرب ويضنون بدينهم على الأمم ، فحضن إبراهيم لهم وحدهم ، بل لقد اختلفوا فيما بينهم حول ذلك النعيم ، كل شيعة تدعى أن الرقاد الآمن فى حضن أبى الأنبياء من نصيبها وحدها ، فلم يكترثوا لأمر المتهودين من العرب إلا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم فى الطريق فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق فى العادات والأخلاق والتقاليد .

ولم يستطع العرب المتنصرون أن يفهموا التثليث وفلسفة الأقانيم وأن الثلاثة أصبحوا واحدا ، وكادوا يضيعون بين الأريوسيين والنسطوريين واليعاقبة وما شاع من المذاهب فى كنائس روما والقسطنطينية والإسكندرية والرها ، لولا أنهم اعتنقوا النصرانية على مذهب الحنفاء الموحدين من العرب وكان اعتناقا مؤقتا ، فكل الذين دخلوا فى دين النصرانية من العرب الساكنين حول الحرم ما دخلوا فيه إلا انتظارا لذلك النبى الأمى العربى الذى بشرهم به رهبان الصوامع الذين كانوا منتشرين على طول طرق التجارة ، وما اختلف هؤلاء المتنصرون عن العرب الجاهليين الوثنيين فى الأخلاق والعادات والتقاليد .

وفتح باب الغرفة التى كان يتعبد فيها محمد فأفاق زيد من شروده فألفى محمدا يبتسم له فأحس كأن نورا يضىء جوانبه واستبشارا يشيع فى وجدانه وشيئا يجذبه إليه فيتقدم منه كالمسحور .

ومرر محمد يده على شعره فى حنان دافق ثم سارا معا إلى حيث كانت خديجة وابنها هند وبعض الإماء ، وزيد يعجب فى نفسه لأهل هذه الدار التى ليس فيها صنم من أصنام الآلهة ، وما دخل بيتا من بيوت سادات قريش إلا ووجد تماثيل لهبل أو اللات أو العزى أو مناة أو غيرها من الآلهة والقوم

يتمسحون بها التماسا للبركة !

ومدت المائدة وجلس محمد وخديجة وزيد وهند وبعض الإماء يتناولون الطعام فى جفان واحدة ، فاستشعر زيد غبطة ، فمحمد يطعمه من طعامه ويلبسه من لباسه ، وإنه لا يفعل ذلك لأنه تبناه بل إن هذه صفته مع كل من فى الدار من عبيد وإماء .

وطافت بذهن زيد فكرة أقرب إلى الإحساس ، إن أهل هذا البيت يختلفون عن كل من حولهم من العرب ، إنهم لا يعبدون الأصنام ولا يسجدون للأوثان ولا يقسمون باللات والعزى ولا ينطقون الفحش من القول ، إنهم واحة للأخلاق فى صحراء ماجنة كافرة ، وبدأت تتفتح لعين الصبى بعض حكمة وقوعه فى الأسر وبيعه بيع العبيد لهذه الأسرة الكريمة ، فربه قد أراد له أن يشب فى كنف رجل عظيم على خلق عظيم ليأخذ عنه أفضل ما تجود به البشرية .

وقام محمد وخديجة إلى غرفتهما ، وانسل زيد وهند إلى الخارج ليلعبا مع صبيان قريش عند الصفا ، وانبسطت أسارير خديجة ثم أفضت إلى زوجها بسرها . إنها حامل وإن هى إلا شهور حتى تضع ما فى بطنها ، وكانت تهتز طربا فلو أنها قد أنجبت من زوجيها السابقين ، إلا أنها تحس فى صميم وجودها أن إنجابها ذرية من محمد الأمين شىء آخر ، رائع يثلج الصدر ويشرق النفس بآمال عظيمة ، فمرور الأيام يؤكد لها أن سيكون لزوجها الكريم شأن أى شأن .

وعرف الفرح طريقه إلى قلبه ، فقد شب وحيدا يتيما لم يذق طعم حنان الأبوة ولا حلاوة الأخوة وإن ذاق طعم الاستبشار بالأنس بربه ومداومة النظر إلى وجهه . إنه بشر ينفعل بما ينفعل به الناس ، وهل هناك فرحة أعظم لرجل

من أن يكون له عقب ؟ كانت فرحته عظيمة بالنبأ السار السعيد ، فذلك الذى فى بطن خديجة الابن والأخ والحبيب .

وأطلق محمد لخياله العنان فراح يفكر فيما يفعله بابنه إذا وضعت خديجة ذكرا ، إنه سيبعث به فى اليوم الثانى من مولده إلى الصحراء ليشب فصيحا ولينمو حرا طليقا فى أحضان الطبيعة الأم الحنون ، وليسمو إلى الآفاق العليا كما سما وليتصل بينبوع السعادة وروح الوجود .

إنه سيبعث به إلى بنى سعد ليكون فى رعاية آبائه الحارث وحليمة والشيماء ، وتذكر محمد أيامه فى هوازن فإذا بجبالها الشاهقة تتمثل لعينيه ، وإذا به يرى نفسه وهو يداعب غنيمات حليمة فتترقرق الرقة فى محياه ويتدفق الحنان من كنوز فؤاده ، ورأى نفسه وهو يلعب مع نفيسة وأخيه عبد الله لعبة العظمة البيضاء ، وترادفت على خياله صورة غلمان بنى سعد فإذا بمشاعر لذيذة تملأ جوانحه ، فهو وفى للأسرة التى استرضع فيها ، وهو وفى للغلمان الذين شاركوه طفولته ، وهو وفى للأرض التى شب عليها ، ولا غرو فقد صيغ من الوفاء .

ومرت الأيام والشهور وهو عاكف على عبادته ، عاكف على رعاية الطاهرة وسيدة نساء قريش ، يغمر زيدا وهند وإماء الدار وعبيدها بعطفه ، ويقابل صديقه أبا بكر ، وينطلق إلى دار أبى طالب ليقابل طالبا وجعفر وعقيلا وأبناء عمه الأعزاء ، وكان أبو سفيان ابن عمه الحارث لا يفارقه فهو تربه وشبهه وأخوه فى الرضاعة ، وكثيرا ما كان يسمعه أشعاره فقد كان أبو سفيان شاعرا مجيدا من شعراء بنى هاشم ، تعمل له القبائل ألف حساب .

وكان يقابل أعمامه العباس وحمزة ويطوف ببيت عمه أبى لهب ، وكانت امرأة عمه أم جميل ترحب به ، وكثيرا ما كان يداعب ابنى عمه عتبة ومعتب

ابنى أبى لهب ، فقد كان محمد محبوبا من بنى هاشم يألف ويؤلف .

وقابل فى دار زوجه حكيم بن حزام والزبير بن العوام — فقد كان الزبير ابن عمته صفية وابن أخى خديجة فى نفس الوقت — وعدى بن نوفل وورقة بن نوفل وكل بنى أسد . وكان الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس زوج هالة بنت خويلد ، وكانا قد أنجبا مِقسَما (أبا العاص) فكانوا يزورون خديجة وما أكثر ما أعاروا محمدا سمعهم .

وجاءت أم أيمن من يثرب ، وكانت قد تزوجت فى مكة وانطلقت إلى هناك مع زوجها وبقيت معه إلى أن جاءت بابنها أيمن ، ولم تستطع الصبر على مكة وحنت إليها فحملت ابنها وعادت إلى دار خديجة ، وقد أقبلت فى وقت كانت الطاهرة فى حاجة إليها فهى على وشك أن تضع ، وإنه ليرضيها أن تكون أم أيمن حاضنة العزيز المنتظر .

ووضعت خديجة طفلة جميلة فضمها محمد إليه فى عطف وحب ، وشكر الله على ما آتاه وسماها : زينب .

وجاءت هالة بنت خويلد وفى يدها ابنها مِقسَم لتهنئ أختها بزينب فلما دخلت عليها تعانقتا ، وما استقرت فى مكانها حتى وضعت خديجة ابنتها بين يدى أختها ، فراحت هالة تتفرس فى وجه ابنة أختها مليا ثم مالت عليها وقبلتها فى حنان ، وأحست بابنها يرنو إلى ابنة خالته فى استطلاع فأمرته أن يجلس لتضعها فى حجره .

وجلس مقسم وقد أشرق وجهه بالفرح ، فوضعت أمه ابنة خالته فى حجره فجعل ينظر إليها وقد هزه الطرب ، فقالت خديجة :

— أتتزوجها يا مقسم ؟

فهز الصبى رأسه موافقا ، وضحكت الأختان وما طاف بذهنهما أن زواج

(أبى العاص) وزينب بنت محمد كان مسطورا فى سجل القدر .

٢١

انقلب أبو سفيان إلى مكة مسرورا بعد أن زار فارس وفتحت له أبواب إيوان كسرى وقدم إلى ملك الملوك هدية ، وعاد يحمل الهدايا والنفائس التى ستسيل لعاب طمع القرشيين جميعا فقد كانوا عبيد المال ، وكانت منزلة السادة عندهم تقاس بما فى خزائنهم من ذهب وفضة .

كان ينفس على حليفه الحارث بن كلدة الثقفى أنه رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار من أهل جند يسابور ، وجاد فى هذه الصناعة،وطب بأرض فارس،وعالج وشهد أهل فارس بعلمه واشتهر طبه بين العرب،فقد كان أبو سفيان يتطلع لزعامة العرب ويكره أن يرتفع اسم فوق اسمه،وقد كانت رحلته إلى إيوان كسرى مغامرة،فقد انطلق إليها دون استئذان من عاهلها الكبير،ولكنها كانت مغامرة واجبة لإعلاء شأنه فى قبائل الحلفاء والأعداء على السواء،وكانت مغامرة موفقة فسيعرض ما جاء به من هدايا على أشراف قومه ليعلن للملأ أنه صار صديقا لكسرى ، وأنه ذهب إلى أبعد أرض ذهب إليها أى من العرب فلا فضل لهاشمى ولا مخزومى ولا ثقفى ولا لأحد من زعماء القرشيين عليه ، فقد تعلم القراءة والكتابة ورحل إلى أقصى الأرض ليرشف من أرق الحضارات وأحبها إلى قلوب قومه .

وخرجت قريش لاستقباله ، أبو طالب على رأس الهاشميين والحارث بن عامر على رأس بنى نوفل وعثمان بن طلحة على رأس بنى عبد الدار وعبد الله

بن جدعان على رأس بنى تيم ويزيد بن زمعة على رأس بنى أسد والوليد بن المغيرة على رأس بنى مخزوم والخطاب بن نفيل على رأس بنى عدى وعتبة بن ربيعة على رأس بنى شمس ، وغص المكان برجال بنى أمية وسادات دار الندوة فانتفخت أوداج أبى سفيان عجبا وتيها .

وتعانق الرجال والتصقت الصدور بالصدور وخفقت القلوب بمشاعر رقيقة أرسلت الدموع من المآق ، وماج الناس بعضهم فى بعض ، وعلت الوجوه فرحة واستبشار وانقلب يوم التلاق إلى يوم عيد سعيد .

وسار أبو سفيان إلى ديار بنى أمية فداعبت الآمال صدور بعض الرجال والنسوة والعبيد والإماء ، راح كل منهم يمنى نفسه بهدية من السيد الذى قفل سالما من بلاد الفرس ، بلاد الحرير والطرف الثمينة ، ولكن زعيم بنى أمية لم يبسط يده بل جعلها مغلولة إلى عنقه ، فإذا بالآمال تتبخر ، وإذا بأحاديث الرجال والنساء تدور حول بخله وتتندر بنوادره .

واجتمع أصحابه عنده وقد أعاروه سمعهم ، فراح يصف فى زهو ما كان بينه وبين كسرى ويقص تفاصيل رحلته ، وغلبه طبعه فروى على أعين الناس مغامراته النسائية ولم يبد فى وجه أحد من الحاضرين دهشة أو استنكار فقد عرف عنه أنه عاهر وأنه لا يستر فسقه .

كان إذا ذهب إلى الشام يروى ما كان بينه وبين بنات بنى الأصفر ، صاحبات العيون الزرق والشعر الذهبى والجسد الأبيض البض ، وكان يقص فى إسهاب مغامراته مع بغايا يثرب ، وقد ذاعت أنباء ما كان بينه وبين سمية مولاة الحارث بن كلدة وإنكاره لابنه زياد منها ، وما كان بينه وبين صاحبات الرايات الحمر من مغامرات فى طول البلاد وعرضها ، ومن عجب أن بخله وعهره لم يحطا من قدره فى أعين الناس فما كان للقيم الروحية وزن فى ذلك

المجتمع الجاهلى الذى طغت عليه المادة والحيوانية وكان ميزانه الخزائن والكنوز ، فبريق الذهب يغسل كل الآثام والخطايا ويبرر كل الذنوب ويرفع صاحبه إلى الصدارة .

كانت التجارب العاطفية والذكريات الشهوانية تروى على الملأ فى صراحة لا تخدش الحياء ، وكان الشعراء يقولون ما يفعلون وما لا يفعلون فى جرأة ظالمة ، يتغزلون فى كرائم الأسر ويتشببون بالعذارى وبالزوجات وتنتشر أقوالهم فى القبائل ، دون أن يحفلوا بشعور الأهل والأزواج ، وكان النسوة راضيات فى قرارة نفوسهن بذلك الغزل فهو يرضى غرورهن وينشر محاسنهن على الملأ ، فالنساء يغرهن الثناء .

وذهب أبو سفيان إلى دار عتبة بن ربيعة وكانت الصداقة بينهما متينة ، فقد كان عتبة يتيما فى حجر حرب فتربى مع أبى سفيان فى دار واحدة ، وبينا كان أبو سفيان فى دار عتبة وقعت عيناه على هند بنت عتبة ، إنه كان يراها وهى طفلة ، ولكنه رآها فى تلك اللحظة آسرة جميلة تنم عيناها عن شخصية قوية طموح ، تفرض نفسها على كل من يراها .

وانصرف أبو سفيان إلى داره وصورة هند تملأ كيانه ، فهو يراها فى غدوه ورواحه ، فى إقباله وإدباره ، فى وحدته وفى أثناء جلوسه مع قومه ، فقد هام بها حبا ، وفكر فى أمره ، فرأى أن الأوان قد آن ليتزوج ، لينجب ابنا يرثه ويرث مجد بنى أمية .

ولم يكن أبو سفيان وحده من أحب هند وتعلق بها فؤاده ، فمسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس رآها وخفق بحبها قلبه . وكان مسافر أحد أزواد الركب ، وكان أزواد الركب من قريش ثلاثة : مسافر وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد وأبو أمية بن المغيرة المخزومى ، وقيل لهم أزواد الركب لأنهم

كانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحد ولا يدعون غريبا ولا مارا طريقا ولا محتاجا يجتاز بهم إلا أنزلوه والمنايا تكفلوا به حتى يظعن .

كان مسافر سيدا فى قريش وكان شاعرا ، وقد فخر على قريش لما ولى بنو هاشم السقاية والرفادة ، فإنما كان بنو عبد مناف أهل بيت واحد شرف بعضهم لبعض شرف ، وفضل بعضهم لبعض فضل ، قال :

ورثنـــا المجد مـــن آبـــا
ئنـــا فنما بنـــا صعـــدا
ألم نسق الحجيـــج وننحـــر الدِّلاقـــة الرفـــدا(١)
ونلقـــى عنْـــد تَصْريـــف المـ
ـنايـــا شـــددا رُفُـــدا
فـــإن نهلَك فلـــم نُمْـــلك
ومـــن ذا خالـــدا أبـــدا
وزمـــزم فى أرومتنـــا
ونفقـــأ عين مـــن حسدا

كان مسافر يعارض عمارة بن الوليد ، وكان خلىّ البال قبل أن تستولى هند بنت عتبة على لبه ، فلما شغل بها قلبه رأى أن يذهب إلى عتبة بن ربيعة يطلبها منه ، وما دار بخلده أن أباها يرد طلبه فهو قرشي ماله ممدود ، قد أكثر الشعراء فى مدحه وضرب به المثل فقيل أقرى من زاد الركب .

إن عتبة زوّج ابنته عاتكة أبا أمية بن المغيرة ، وكان عنده ثلاث عواتك غيرها : عاتكة بنت عبد المطلب ، أم زهير وعبد الله ابنى عمة محمد بن عبد

---

(١) الدلاقة : الناقة السمينة . والرفد : التي يملأ لبنها الرفد وهو قدح يحلب فيه .

الله ، وعاتكة بنت جذْل الطعان أم أم سلمة والمهاجر ، وعاتكة بنت قريش وقد قبل عتبة مصاهرته لشرفه وماله وكرمه وهو ليس أقل منه شرفا ومالا وكرما .

وذهب مسافر إلى حيث كان عتبة بن ربيعة وطلب منه ابنته فأمهله إلى أن يأخذ رأيها ، وما كاد مسافر ينصرف حتى أقبل أبو سفيان وطلب منه هند فالتمس منه أن ينتظر حتى يرى رأى هند فيه .

وانطلق إلى هند وكان هواه مع أبى سفيان ، بيد أنه راح يغرى نفسه أن يكون على الحياد وأن يترك لابنته حرية اختيار رجلها ، فما أن دخل عليها حتى قال لها إنه قدم ليشاورها فى أمر رجلين من قومها رغبا فى الزواج بها ، فقالت :

ـــ صفهما لى .

قال وهو يتصنع الهدوء والحياد :

ـــ أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله ؛ وأما الآخر فموسع عليه ، منظور إليه ، فى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب ، مِدْرهُ أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله (كناية عن اليقظة) .

وصمت عتبة بن ربيعة وهو يحسب أنه أنصف الرجلين لم يتحيز لأحدهما ، ولم يحس أن هواه كان مع الآخر ، إنه حرص على أن يعدل ولكنه لم يقدر ، وأرهف سمعه وجمع شتات نفسه ليسمع رأى ابنته ، فقالت هند :

ـــ يا أبت ، الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشِرت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن

أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه علىّ بعد .

فلزم عتبة الصمت ولم يقل لها إنه مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس ، زاد الركب من تدله بحبها وصارت أعز أمنيات حياته أن تمسى هند الزوجة والحبيبة والأهل .

وقالت هند :

— وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة فزوجنيه .

وقال عتبة فى انشراح :

— إنه أبو سفيان بن حرب .

وعرف مسافر أن هند بنت عتبة حبيبة الفؤاد قد فضلت عليه أبا سفيان ، فحزن وانسل ليختفى بعيدا يعيش مع طيفها ، ينظم الشعر الرقيق يناجى الحبيب ، حتى رق عظمه ومات شهيد الهوى وصريع هند بنت عتبة .

وتأهبت قريش لزواج زعيم بنى أمية المتطلع إلى سيادة قومه ، فأرسلت إلى داره الهدايا حتى إذا ما وافت ليلة الزفاف نحرت الذبائح ومدت الموائد وضربت الجوارى بالدفوف ورقصت الراقصات وغنت الجرادتان جاريتا عبد الله بن جدعان ، وحملت هند بنت عتبة إلى دار من اختارته زوجا ووقف أبوها عتبة وعمها شيبة وسادات عبد شمس يتلقون التهانى وأطيب التمنيات .

وكانت اليمن قد صارت فى حوزة الفرس بعد موت سيف بن ذى يزن تُولىَّ عليها حاكما من قبلها ، وكان ذلك الحاكم الفارسى يعرف مكانة الكعبة فى نفوس الحميريين فكان يبعث بالجزائر إلى الحرم تقربا إلى شعبه وزلفى .

وحدث أن أهدى ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة وأمر أن ينحرها أعز قرشى ، فقدمت وأبو سفيان عروس بهند بنت عتبة ، وبلغها ما قال ملك اليمن

فقالت لزوجها :

— لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التى لعلها أن تفوتك .

فقال لها :

— يا هذه ، دعي زوجك وما يختاره لنفسه ، والله ما نحرها غيرى إلا نحرته .

وظلت النحائر فى عقلها حتى خرج أبو سفيان فى اليوم السابع فنحرها ، فتهللت هند بنت عتبة بالفرح ، فقد كانت تحلم بسيد مطاع فى قومه ، فإذا بها تتزوج برجل ليس ككل الرجال أقر كل سادات قومه أنه أعز قريش و لم يجرؤ أن ينافسه فى ذلك الشرف منافس .

٢٢

اشتدت وطأة المرض على عبد الله بن جدعان فغصت داره بسادات بنى هاشم وبنى أمية وبنى مخزوم وبنى تيم وبنى عدى وبنى أسد وبنى نوفل وبنى عبد الدار وكل بيوتات قريش ، وكان أبو قحافة وأبو بكر يستقبلان الزوار ، وجاء صديقه ونديمه أمية بن أبى الصلت من الطائف وقد جاء معه بالحارث بن كندة طبيب العرب وابنه النضر ليفحصا عن الرجل الذى غمر الناس بجوده ، ولكن ماذا يستطيع الطب أن يفعل فى الشيخوخة والفناء ؟

وجلس عند الباب مولاه صهيب بن سنان وقد أطرق وراحت تنثال على رأسه الذكريات : رأى نفسه وهو فى قصر من القصور العظيمة يرفل فى الحرير ويغدو ويروح ومن حوله الخدم والحشم والإماء فقد كان ابن حاكم أيلة من قبل الشاهنشاه كسرى العظيم .

ورأى نفسه وهو يتنزه فى قارب فى نهر الفرات ، والمغنيات يترنمن بأعذب الألحان ، إنه وهو فى مجلسه عند باب مولاه عبد الله بن جدعان ليحس وقع تلك الألحان فى قلبه ، وليرى بعين خياله قصر أبيه المطل على النهر العظيم ، وأبراج الآلهة مرتفعة إلى السماء لكأنما تسهر على أمن العباد .

إنه يحس حنينا طاغيا إلى أمه وأبيه وإلى الأرض الطيبة التى نبت فيها ، حتى إنه ليستشعر كأن الدموع تبلل روحه وإن لم تطفر من مآقيه ، فقدْ فقَدَ حياته الناعمة السعيدة وطرد من النعيم ، سمع وهو فى قصر أبيه أن الحرب قد تجددت بين الفرس والروم وما كان يدرى ما الحرب وما قسوتها ، كل ما كان يدريه أن

يصغى إلى أنبائها كما يصغى إلى قصة مثيرة تقصها عليه أمه أو إحدى الجوارى اللائى يموج بهن قصر أبيه .

وكست وجه صهيب موجة من الأسى وهو فى مجلسه عند باب ابن جدعان ، فقد كان يرى بعقله ذلك اليوم الرهيب الذى ارتسم فيه الهلع على وجوه من فى القصر ، حتى أبوه العظيم كان يرتجف من الخوف وإن كان السيف فى يده وجنوده من حوله ، وأمه تولول وتصيح فى هلع :

— الروم ! .. الروم !

والجوارى والإماء يصرخن فى فزع وهن يمجن بعضهن فى بعض ، يهرولن هنا وهناك دون هدف ، إنه أحس أن شيئا مفزعا قد وقع وأن ذلك الشىء قد أقبل من قبل الروم ، ولكنه لم يكن يدرى ما الروم وما ذلك الشىء الذى أنزل الرعب فى قلوب كل من فى القصر الكبير !

وتدفق الجنود الروم من كل الأبواب كالسيل الجارف على رءوسهم الخوذات وغطت صدورهم الدروع وفى أيديهم السيوف ، وقد حمل بعضهم رايات عليها النسر الرومانى ، وأمام عينيه دارت مبارزات وكر وفر وسقوط قتلى على الأرض وجرى وراء الجوارى والإماء وصراخ مفزوع ونهب لكل ما فى القصر ، ثم لم يعد يدرى شيئا فقد عطل ذهنه الذهول ، كل ما أحس به أنه حُمل وأُخذ خارج القصر .

وذهبوا به إلى أرض الروم واستقر هناك يلتقط بعض الكلمات ممن حوله ويرى معابد غير معابد قومه وصلوات غير صلواتهم فشب فى أرض غريبة يتعلم لغة غير العربية حتى أتقنها ، وما كاد ينسى مأساة حياته ويألف حياته الجديدة حتى قدم أناس من كلب فابتاعوه ممن كان عندهم .

وكان الكلبيون يعرفون إقبال القرشيين على الموالى الذين يحسنون اللغات ،

فهم أهل تجارة وقوافلهم تنطلق إلى بلاد الفرس وإلى بلاد الروم ، والتفاهم بين أهل تلك البلاد والقرشيين يتم غالبا عن طريق هؤلاء العبيد الذين يجيدون التكلم بلغات الأقوام الذين تنزل قوافل قريش بأرضهم ، فانطلقوا بصهيب إلى مكة ليبيعوه مع من أسروا من سبى وما اشتروا من أسواق النخاسة .

ورأى صهيب نفسه وهو يباع فى سوق مكة وعبد الله بن جدعان يشتريه ، إنه أحس فى تلك اللحظة حقارة الحياة وود لو يموت ويستريح ولكنه ذاق فى دار عبد الله بعض النعيم الذى ذاقه فى قصر أبيه فى أيلة .

وكان ألكن إذا تحدث بالعربية نطقها نطق الأعاجم ، فأطلقوا عليه الرومى ، وسعد فى دار ابن جدعان وبلغ قمة سعادته لما أعتقه عبد الله وجعله حليفه ، وظل فى دار الكرم يسقى الوفود التى لا تنقطع فى ليل أو نهار ، فقد كانت الخمر تجرى كالنهر فى بيت ابن جدعان وكانت ليالى السمر متصلة ، فأصبح صهيب الرومى ساقى القوم ورمز السرور .

إنه سمع من السمار أشعار أمية بن أبى الصلت وأبى طالب والزبير بن عبد المطلب وأبى سفيان بن الحارث والنابغة والخنساء وكل فحول الشعراء ، وسمع ما كان يروى عن أيام العرب وحروبهم وما قيل فيها من فخر وهجاء ، وسمع بعض الحكايات التى استوردها التجار من بلاد الفرس وبلاد الروم مع ما استوردوا من سلع ، فكانت تلك القصص تعيد إليه ذكريات أيلة وبلاد الروم ، فهى نفس الحكايات التى كان يسمعها من أمه قبل النوم والتى كثيرا ما سمعها فى أرض الروم .

وسمع أحاديث الدين فى مكة وطاف بالبيت مع الطائفين وقدم الذبائح والقرابين ، ولكنه لم يستشعر الطمأنينة فى قلبه ، فتباين ما رأى من أديان يحيره ، ولم يستطع أن يترك الغيبيات وراء ظهره فهو شغوف بالغيب

وبالدين .

وقدم أمية بن أبي الصلت على ابن جدعان وهو مسجى فى فراشه ، فلما دخل عليه قال له عبد الله :

ــ أمر ما أتى بك !

فقال أمية :

ــ كلاب غرماء نبحتنى ونهشتنى .

فقال ابن جدعان فى صوت خافت :

ــ قدمت علىّ وأنا عليل من حقوق لزمتنى ونهشتنى ، فأنظرنى قليلا ما فى يدى شيء ، وقد ضمنت قضاء دينك ولا أسأل عن مبلغه :

فأقام أمية أياما فأتاه فقال :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى
حياؤك إن شيمتك الحياء

وعلمك بالأمور وأنت قرم
لك الحسبُ المهذب والسناء

كريم لا يغيره صباح
عن الخُلُق السنى ولا مساء

تبارى الريح مكرُمة وجودا
إذا ما الكلب أجحره الشتاء

إذا أثنى عليك المرء يوما
كفاه من تعرضه الثناء

إذا خلفت عبد الله فاعلم
بأن القوم ليس لهم جزاء

فـــأرضُك كل مكرمـــة بناهـــا

بنـــو تَيْـــم وأنت لهم سماء

فأبــرَز فضلــه حــق عــليهم

كما بــرزت لناظرهــا السمـــاء

فهــل تخفــى السمـــاء على بصير

وهــل بــالشمس طالعــة خفـــاء

وكانت الجرادتان عند ابن جدعان ، فقال لابن أبي الصلت :

ـــ خذ أيتهما شئت .

فأخذ إحداهما وانصرف ، فمر بمجلس من مجالس قريش فلاموه على أخذها وكلموه فى ذلك ، فوقع الكلام من أمية موقعا وندم ورجع إليه ليردها عليه ، فلما أتاه بها قال له ابن جدعان :

ـــ لعلك إنما رددتها لأن قريشا لاموك على أخذها وقالوا : لقد لقيته عليلا فلو رددتها عليه فإن الشيخ يحتاج إلى خدمتها ، كان ذلك أقرب لك عنده وأكثر من كل حق ضمنه لك .

فقال أمية :

ـــ والله ما أخطأت يا أبا زهير .

ـــ فما الذى قلت فى ذلك ؟

فقال أمية :

عطــاؤك زيــن لامــرىء إن حبوتــه

بيــذل وما كل العطـــاء يزيـــن

وليس بشين لامــرىء بــذل وجهــه

إلـــيك كما بـــعض السؤال يشين

فهز الطرب الرجل المريض فقال لأمية :

خذ الأخرى .

فأخذهما جميعا وخرج ، فلما صار إلى القوم بهما أنشد :

ومـــالى لا أحييـــه وعنـــدى

مـــواهب يطَّلِعْـــن مـــن النجـــاد

لأبـيض مـن بنـى تيم بـن كـعب

وهـــم كالمَشْرفيـــات الحداد

أخذ الرجل الذى كان يطمع فى الرسالة وينتظر وحى السماء أمتى الرجل المريض الذى يحتاج إلى خدمتهما ، ولم يكتف بذلك بل قال إنه يكفيه من مسألة ابن جدعان أن يثنى على الرجل الجواد ويسكت حتى يأتى عبد الله على حاجته ، ولم يوجه ذلك الثناء للإله الذى ينتظر أن يبعثه إلى عباده !

وراح عبد الله بن جدعان يجود بنفسه وصهيب الرومى يقوم بخدمته ، وأبو قحافة وأبو بكر وأهل البيت قد التفوا حول سريره ، ودخل أمية بن أبى الصلت عليه فقال :

ــ كيف تجدك أبا زهير ؟

فقال ابن جدعان وهو يلفظ أنفاسه :

علم ابن جدعان بن عمـــ ـــرو أنه يوما مدابر

ومسافـــر سفـــرا بعيـــ ـــدا لا يئوب به المسافر

فقـــدوره بفنائـــه للضيف مترعة زواخر

تبدو الكسور[١] من انفرا ج الغلى فيها والكراكر

فكـــأنهن بما حمـــ ـــن وما شحن بها ضرائر

---

(١) الكسور : جمع كسر وهو نصف العظم بما عليه من اللحم .

بـــذَّ المعـــاشر كلهـــا بالـفضل قـد علـم المعـــاشِر
وعـــلا عُلـــوَّ الشمس حتـى مـا يفاخـره مفاخـــر
دانت لـــه أبنـــاء فِهـــر مـــن بنـى كـعب وعامـــر
أنت الجوادُ ابـــن الجـــوا د بكـم ينافـر مـن ينافـــر

وتذكر عبد الله بن جدعان ذلك اليوم الذى شرب فيه مع أمية فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب ، فقال له :

ـــ ما بال عينك ؟

فسكت ابن أبى الصلت ، فلما ألح عليه قال له :

ـــ أنت صاحبها أصبتها البارحة .

ـــ أوَبلغ منى الشراب الذى أبلغ معه من جليسى هذا ! لا جرم لأدينها لك ديتين ، فأعطاه عشرة آلاف درهم وقال :

ـــ الخمر على حرام أن أذوقها أبدا .

ورن فى أغواره صوته واهيا لكأنما يأتى من قرار سحيق :

شربت الخمـر حتـى قـال قومـــى
ألست عـــن السَّفـــاه بمستفيـــق
وحتـــى مـــا أوسَّد فى مبـيت
أنـام بـه سوى التُّـرْب السحيـق
وحتـى أغلق (١) الحانـوتُ رهنـى
وآنست الهوان مـــن الصديـــق

ومات الرجل الكريم الذى تزاحم ذات يوم على جفنة له محمد بن عبد الله

---

(١) أغلق الرهن : أستحقه ، والحانوت الخمار ، والحانوت أيضا دكان الخمار .

وعمرو بن هشام (أبو جهل) ، فدفع محمد عمرا فسقط على الجفنة فشجت ركبته ، وحزنت قريش وأغلقت الأسواق ثلاثة أيام حدادا عليه .

وبقي صهيب فى دار ابن جدعان ينتظر قدَره ليكون « سابق الروم » ، وكان لابد أن يكون لبنى تيم سيد وزعيم بعد عبد الله بن جدعان ، ولم يكن فيها غير أبى قحافة وابنه أبى بكر ، وكان أبو قحافة أصلح من يكون سيدا بحكم سنه فما كانت قبيلته تفكر فى أن تنال زعامة قريش أو تنافس بنى هاشم وبنى أمية وبنى مخزوم على تسنم الزعامة ، بيد أن رجاحة عقل ابنه أبى بكر واستقامة ضميره وعفته وعزوفه عن الشهوات وتفتح ذهنه وغزارة معرفته بالأنساب قد هيأت أبا بكر لزعامة بنى تيم ، حتى إن قريشا رضيت به حكما للديات فما قضى به أقروه وما قضى به غيره عارضوه .

وكان أبو بكر صديق محمد وصاحبه يتشبه به ويأخذ عنه مكارم الأخلاق ، حتى إنه كان يفوح بأريج عطر ينبعث من نفس طيبة ؛ إنه بعض أريج صاحبه محمد بن عبد الله الذى ألبسه الله لباس التقوى وزينه بخلق عظيم ، وفتح له أبواب رحمته وأنزل على قلبه كنوزا روحانية من خزائن الملكوت .

٢٣

كانت الجهالة متفشية فى العرب لا علم ولا حكمة ولا فلسفة ، بل خرافات وأساطير وإيمان بكل ما تؤمن به القبيلة أو تعتقد فيه ، فالعربى مهما بلغت مكانته وإن ساح فى الأرض واتصل بالروم والفرس يلتجىء فى تعرف ماضيه ومستقبله إلى الكهانة والعرافة وزجر الطير والعيافة ، فلم يجلب له الدين العلم والحكمة ، فالدين مجموعة من الأدعية والأفعال لتسكين غضب الآلهة وجلب رضاها لتطيل الأعمار وتربى الأموال .

وكانت مكة خزانة علم العرب ، وعلى الرغم من ذلك ما كان فيها ممن يحسن الكتابة غير أبى سفيان بن حرب وعثمان بن عفان وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح ونفر قليل كانوا يحصون ما فى قوافل التجارة من سلع ، ويقدمون صكوكا لأصحاب البضاعة لإثبات حقهم ، ويحررون العقود والمواثيق عند الحرم .

كان العرب يمتازون بالبيان وطلاقة اللسان وبمعرفة الأنساب ومثالب القبيلة ومناقبها ، وكان الشعراء هم العلماء فى قبائلهم يشعرون ما لا يشعر غيرهم ، وكانوا يصفون الحياة وصفا سطحيا لا تأمل فلسفيا فيه ولا غور فى أعماق النفس البشرية . إنهم يتشببون بالمحبوب ويصفون جماله وحسنه ، وكان الجمال عندهم جمالا ماديا لا أثر فيه للروح ، أو يتشدقون بشجاعتهم ، أو يتغنون بفعال قبائلهم أو يعددون مناقب من يمدحونه ويبالغون فى كرمه ، أو يهجون قبيلة عدت على قبيلتهم ، أو يرثون راحلا ، أو يحرضون قبائلهم على

الأخذ بثأر من اغتيل منهم ، أغراض ضيقة لا تسمو بالروح إلى ملكوت السماء ، ولا تجعلها تغوص فى أعماق البشرية .

و لم يكن بين هؤلاء الجاهليين من اشتغل بالفلسفة غير النضر بن الحارث بن كلدة ابن خالة محمد بن عبد الله ، فقد سافر إلى البلاد واجتمع مع الأفاضل والعلماء واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، ففتن بعلمه الذى حصله من الكتب و كتابة الكتب وامتلأ غرورا ، وإن كان كل ما عرفه أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وسَفَنْديار .

لم يكن النضر يطلب الحق بل كان يطلب قشور المعارف ، فكان محجوبا عن العلم الصحيح والحكمة الحقة باعتقادات تقليدية جمدت فى نفسه ورسخت فى قلبه وصارت حجابا بينه وبين درك الحقائق ، فالحقيقة موجودة والقلب موجود بيد أن العلم لم يكن حاصلا ، لأن العلم هو وصول الحقيقة إلى القلب ، و لم يفتح النضر قلبه لتتجلى فيه حقيقة الحق فى الأمور كلها .

لم يعرف النضر نفسه فلم يعرف ربه ، فحال الله بينه و بين قلبه فمنعه من مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته ، وحُجب عن أنوار العلوم لأن فؤاده كان مستغرقا بغير الله فلم تدخله المعرفة بجلال الله ، وهى كمال العلم وجوهر الحكمة ونور اليقين .

وما كان فى الأرض أحد على علم غير محمد بن عبد الله ، فالله هو المتولى لقلبه والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، قد فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى قلبه وانشرح صدره وانكشف له سر الملكوت .

وانقشع عن وجه قلبه كل حجاب بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلٰهية بعد أن استعد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الرحمة ،

فانكشف له الأمر وفاض على صدره النور ، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله ، فمن كان لله كان الله له .

سلم قلبه من غير الله واستعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه فانكشفت له الحقائق بكشف إلٰهى بعد أن ارتفع الحجاب بلطف من الله ، فلمع فى قلبه من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف ، إنه الإلهام والنفث فى الروح ، ولولا الجهل الذى ران على القلوب لنظر الناس إلى ملكوت السماء .

كان يعبد الله بكل وجوده ، فالعبادة تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه ، فكان يستشعر أنه يعرج إلى السماء فيجتهد فى العبادة ليترقى ، فقد ألهم أن درجات الترقى لا حدود لها إذ معلومات الله التى ينهل من ينبوعها ليس دونها منتهى فلا نهاية لها ،فسعد بالقرب من الله وبهذه السعادة كان قربه من ربه قربا بالمعنى والحقيقة والصفة .

عرف بالتأمل والتدين والتفكير أن أعدى عدو للمرء نفسه التى بين جنبيه ، فجاهد نفسه وقاوم شهواته ، فقد عرف أن الشهوة تقوده إلى الخبث والتبذير والتقتير والرياء والمجانة والعبث والجشع والملق والشماتة والحقد والحسد ، وكظم غيظه فقد اهتدى إلى أن مغبة الغضب التهور والصلف والاستشاطة والكبر والعجب والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم ، فما تقود طاعة الشهوة والغضب إلا إلى المكر والخداع والحيلة والدهاء والغش .

كان قلبه متعرضا لنفحات رحمة ربه فاستقر فيه العلم والحكمة ، واليقين والعفة ، والقناعة والهدوء ، والزهد والورع ، والتقوى والانبساط والحياء ،

والشجاعة والكرم ، والنجدة وضبط النفس ، والصبر والحلم ، والاحتمال والعفو ، والثبات والنبل ، والشهامة والوقار ، وكانت مرآه نفسه تزداد كل يوم جلاء وإشراقا ونورا وضياء ، حتى يتلألأ فى قلبه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر .

وخرج محمد من تعبده ، وما كاد يسير خطوات حتى وقعت عيناه على ابنته زينب فلذة الفؤاد وقد تفتحت تفتح الزهور ، فخفق قلبه حبا وانبسطت أساريره ورفعها بين يديه وقبلها فى حنان ، ثم انطلق بها إلى حيث كانت خديجة .

كانت زينب فى الثانية من عمرها حلوة لطيفة ، وكانت خديجة تنتظر مولودها الثانى وكانت سعيدة غاية السعادة عرفت السكينة بعد القلق ، وذاقت حلاوة الهيام فى دنيا الروح مع زوجها بعد طغيان شهوة المال والهوس فى طلب الثروة .

كانت كنوزها غنية ولكنها تعلمت أن أموالها وغناها لا تساوى شيئا إذا ما قورنت ببصيص من النور ينزل على قلبها فيزيد كنوزه غنى ، فقد تلقت من محمد الحبيب أن ما من عضو من الأعضاء ولا من حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله ، فغضت بصرها عن عيوب الناس ، وصمت أذنيها عن سماع البهتان ، وأمسكت لسانها عن الخوض فى أعراض الناس ، فأحست نفسها تزكو وتزداد طيبا ، وقلبها أجرد فيه سراج يزهر .

تعلمت أن قلب كل إنسان مستعد لحمل الأمانة ، وأن لا حجاب بين القلب والملكوت ، وأن صفاء القلب وصلاحه لا يكفيان لهداية السبيل بل لا بد أن يطلب المرء الحق لينال الفوز الأكبر ، فجاهدت لتعرف الله . لتكون تلك المعرفة جمالها فى الدنيا وكمالها وفخرها .

كان محمد يتلقى علمه من ربه بالإلهام والنفث فى الروع ، وكان كلما أشرق قلبه بالنور اجتهد ليورثه الله علم ما لم يعلم ، وكان يلقن زوجه أنوار ما يجود الله عليه من علوم وهو يرجو أن يجعل الله لها واعظا من قلبها ، فمن كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ .

وكان حب محمد لخديجة يدفعه إلى أن يجذبها معه إلى السماء ، وكانت تتهلل بالفرح كلما ارتادت معه عوالم ما فوق الطبيعة وما وراء المحسوسات وتنقلب مستبشرة بشرف ما حصلت عليه من معلومات ، وكانت تفعم بالسرور والأمل كلما ألقي فى روعها أن محمدا الحبيب على نور من ربه وأنه سالك فى الطريق .

كان بيت خديجة واحة من الإيمان فى صحراء الكفر والضلالة ، السراج المنير فى ظلمات بعضها فوق بعض ، يذكر فيه اسم الله فى الغدو والآصال ، وقد كان ذلك الذكر ينبعث من قلبين مؤمنين عرفا الحقيقة وأشرق فيهما نور الله ، وقد كان ذلك الذكر يفوق كل الذكر المنبعث من قلوب الحنفاء والصابئين وأهل الكتاب وكل من تحركت بالذكر شفتاه ، فلو وزن إيمانهما بإيمان أهل الأرض لرجحهم .

كانت تحاسب التجار فصارت تحاسب نفسها على جميع حركاتها وسكناتها ، وكانت محاسبة التجار عقب انتهاء كل رحلة ولكن محاسبة نفسها كانت آناء الليل وأطراف النهار ، وكانت تكتب حساب التجار فى قراطيس وجريدة الحساب فصارت تكتب حساب نفسها على صحيفة قلبها ، وقد سمت روحها حتى صارت تحاسب نفسها على الأنفاس التى تتردد بين جنبيها .

وعرفت أسرار الأعمال معرفة حقة ، وسبرت غور نفسها فعرفت آفات النفوس ومواضع الغرور فاتقت هوى النفس وزجرت القلب عن الفكر فيه

والهم به ، فكان بصرها نافذا عند ورود الشبهات ، وعقلها كاملا عند هجوم الشهوات ، ولا غرو فهى أول مريدة فى مدرسة محمد بن عبد الله من يهجم على قلبه العلم كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى .

وضم محمد زينب إلى صدره فانبسطت أساريره ، وفطنت خديجة إلى حبه الدافق للثمرة المباركة التى جمعت بينهما فخفق قلبها وتدفقت منه كنوز مشاعرها الرقيقة وزاد فى غبطتها أنها ستضع لزوجها العظيم مولودا ثانيا ، وشردت خديجة تفكر فيما فى بطنها وراح محمد يتفرس فى وجه زينب وقد أمتلأ قلبه نشوة واستبشارا .

كانت زينب تشبه خديجة ولكن ذلك لم يكن ما يشغل قلب أبيها فقد كان يفكر فى جفنيها وكيفيه انفتاحهما وانطباقهما ، وفى عينيها ولسانها وشفتيها ، وفى إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق ، واسترسل فى تأمله فراح يفكر كيف خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل والقلب ، فيمتلىء اندهاشا وإجلالا ، وإنه سيستمر فى تفكيره وتدبره والنظر فى خلق الله حتى يصل إلى عين اليقين .

كان يخلو بربه ويطيل النظر إلى وجهه ، وكان يمشى فى الأسواق يبيع ويشترى ويتوكل على ربه ، فلم ينقطع للعبادة ويهجر الدنيا بل أقبل عليها وأخذ نصيبه منها ؛ فكان يحب الخيل ويركب الفرس العرى ما عليه سرج فقد كان فارسا لا يشق له غبار ، وكان يتدرب على الرماية وما كان عمه الحمزة الذى كانت هوايته الصيد والقنص يفوقه فى التسديد إلى الهدف ، وكان يحب الطيب وعرف أنواعه من عمه أبى طالب فقد كان عطارا .

وكان يعمل لأن على المرء أن يسعى وأن يضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله ، لم يقعده غنى خديجة عن السعى و لم تحجبه عبادته عن الناس بل كان

يعود المرضى ويشهد الجنائز ويصل ذوى رحمه ولا يجفو على أحد . يقبل معذرة المعتذر إليه ، ويمزح ولا يقول إلا حقا ، ويرى اللعب المباح فلا ينكره ، ولا يجزى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، منّ الله عليه بكمال الاستبصار فى ملكوت السماء وفى ملكوت الأرض .

ووضعت خديجة مولودها الثانى وجاء أنثى ففرح محمد بما آتاه الله وشكره بقلبه أن جاد عليه بذرية ، سمى ابنته الثانية رقية ، ثم راح يعبد ربه ويشتد على الصراط المستقيم .

٢٤

كان سلمان الفارسى عاكفا على العبادة فى الكنيسة يقرأ فى التوراة والإنجيل ويصغى إلى ما يترامى إلى المتعبدين فى الكنيسة من أنباء اضطهاد الإيرانيين للنصارى ، فكان يتحرق شوقا إلى الجهاد فى سبيل العقيدة التى اعتنقها .

إنه قرأ تاريخ ما كان بين النصارى وبين الملك قباذ ، وقرأ المناظرات التى دارت بين المجوس والرهبان ، وود لو كان بين المتناظرين ليفند مزاعم المجوس فقد كان مجوسيا وقد ترق فى ديانة الإيرانيين حتى صار قاطن النار ، ثم كفر بذلك الدين الذى ينفر منه كل ذى عقل سليم .

وكانت المناظرات التى دارت بين ملوك إيران ورجال الدين المسيحى تشغل كثيرا من وقته ، فكان يقرأ كل ما يقع فى يده من أنبائها ، وعلى الرغم من أنه اعتنق المسيحية فلم يكن متعصبا لها تعصبا أعمى بل اتخذ لنفسه القاعدة التى إتخذها يزدجرد الثانى إن صدقا أو نفاقا : « أسأل وأختبر وأرقب ، فسوف نختار ما يظهر لنا أنه الأفضل » .

وراح يقرأ تاريخ النصرانية وأعمال الشهداء فى إيران ، فوجد أن النصرانية عندما انتشرت فى أرمينية كانت مصدر القلق فى إيران ، وكان المفهوم فى المدائن أن استعمار أرمينية يظل منتجا ما بقيت فيها الخلافات الدينية ، ولكن العظماء ورجال الدين الزرادشتيين رأوا ضرورة قمع هذه الفتنة فقابلوا الملك ودارت بينه وبينهم مداولات انتهت بتقديم أمر إلى الأشراف الأرمن باسم الملك : لقد أمرنا بسطر أصول ديننا الذى يعتمد على الحقيقة والذى يقوم على

أسس متينة وأرسلناها لكم ، وإنا راغبون فى أنكم وأنتم الأعزاء النافعون للبلاد تقبلون وتدخلون فى ملتنا المقدسة الحقة ، وتطرحون هذا الدين الذى نعرف جميعا بلا ريب أنه زائف عقيم ، وإذا فعليكم حين تعرفون مرسومنا أن تقبلوه مختارين راضين ولا توجهوا أنفسكم نحو نحل أخرى ، وعلاوة على هذا قد تنازلنا إلى أن نأمركم بأن تكتبوا إلينا دينكم المزعوم الذى كان حتى اليوم سبب ضلالكم ، وأنكم حين تعرفون كما عرفنا ديننا فلن يجرؤ سكان جورجيا والألبان على مخالفة إرادتنا » .

واجتمع الأساقفة النصارى وأعظم قساوسة أرمينيا لكى ينظـروا فى القضية ، وبعد أن درسوا الرسالة التى توضح أركان الدين المزدى صاغوا ردا بالغا فى الشدة :

« الحق أننا كنا ونحن فى قصرك بحضرة المغان الذين يسمون مشرعين قد هزأنا بهم واحتقرناهم ، فإنا نكن لهم اليوم أكثر من هذا وذاك ، إن كنت تريد إجبارنا على قراءة كتبك والإصغاء إليها وهى كتب لا تعنينا ولا يمكن أن تكون موضوع تفكيرنا ، ثم نحن زيادة فى احترام إرادتك لم نكن نريد أن نفتح كتابك ونقرأ ذلك لأن دينك نعرفه باطلا ونعرف أنه أوهام رجال بلهاء وقد نقل تفاصيله إلينا مشرعو الزور ؟ دينا كهذا نعرفه أكثر مما نعرف لا يستحق أن يقرأ عنه أو يصغى إليه ، والحقيقة أننا حين قرأنا شريعتك اضطررنا إلى أن نهزأ بها ، وكذلك سخرنا من هذه الشرائع والمشرعين ومن يؤمنون بمثل هذه الأضاليل ، ومن أجل هذا رأينا عبثا غير لائق أن نكتب وفقا لأمركم قواعد ديننا ونرسلها إليكم ؛ لأننا لم نعتقد أن دينكم الباطل المضل جدير بأن يقرأ وأن يعرض علينا كى لا نؤذيكم بالسخرية به ، فكان عليكم لحكمتكم العالية أن تفكروا فى هذا حين كتبتموه وأرسلتموه إلينا ، فكيف نستطيع أن نعرض

على جهلكم ديننا الإلهى المقدس ، وأن نسلمه إلى سخرياتكم وشتائمكم ؟ وأما ما يمس عقيدتنا فاعلم علم اليقين أننا لن نعبد أبدا ما تعبدون ، لن نعبد العناصر والشمس والقمر والهواء والنار ، ولن نعبد هذه الآلهة كلها التى تسمونها فى الأرض والسماء ، ولكنا كما تعلمنا نعبد إلها واحدا حقا هو خالق السماء والأرض وما فيهما .. » .

وراح سلمان يقرأ الآراء المسيحية التى كان ينقم عليها الزرادشتيون. إنهم يقولون إن النصارى مخطئون إذ يؤكدون أن الخير والشر صادران من فاعل واحد ، وأن الله غيور ، وأنه من أجل تينة واحدة قطعت من شجرة خلق الموت وحكم على الناس بأن يتحملوه ، مثل هذه الغيرة لا توجد بين الناس أبدا لا بين الله وبينهم ، وخطيئة أخرى وقع فيها النصارى هى أن الله الذى خلق السموات والأرض ، جاء إلى الدنيا وولدته عذراء اسمها مريم .

وراح يقرأ الطعن فى العذراء وفى يوسف النجار وفى علماء الدين النصارى الذين يقولون إنه ليس إثما أن تأكل اللحم وهم أنفسهم لا يأكلونه ، وأن النساء حلال للرجال وهم أنفسهم لا يتزوجون ، ويقولون إن من يكنز المال يذنب ويمتدحون الفقر ويبالغون فى هذا وهم يحبون المصائب ويحتقرون التوفيق . إنهم يزدرون الثراء ويعتبرون المجد كالعدم . إنهم يحبون رث الثياب ويؤثرون العادى من الأشياء على ثمينها ، إنهم يمتدحون الموت ولا يحفلون بالحياة ، إنهم يعيبون ولادة الأطفال ويأسفون على العقم .

كان سلمان كلما قرأ ما كان من مجادلات بين الزرادشتيين والنصارى يحس حسرة ، فما كانت المناقشات موضوعية وما كانت تقرع الحجة بالحجة ، بل كانت أقرب إلى المهاترات منها إلى مجادلات تبغى وجه الحقيقة ، ولكنه على الرغم من ضيقه بذلك الأسلوب بذرت فى جوفه بذور الشك فى

نصاعة الدين الذى اعتنقه ، ففى كلام الزرادشتيين وطعنهم على دينه ظل من الحقيقة ، وهو يريد دينا نقيا من كل الشوائب ، دينا يطمئن له قلبه ويستريح له ضميره .

وعكف على قراءة الجدل الذى نشب بين النساطرة واليعاقبة فى مدرسة الرها حيث كان نصارى إيران يتلقون الدين المسيحى ، كان النساطرة يقولون : إن للمسيح طبيعتين متميزتين إحداهما إنسانية والثانية إلٰهية ، بينما كان القائلون بوحدة الطبيعة (المونوفيزيت) يقولون إن هاتين الطبيعتين قد وجدتا فى شخص المسيح .

وقرأ كيف أصبحت النسطورية المذهب الوحيد لنصارى إيران وكيف حرم على الرهبان منافسة القسس فى المراسيم الدينية ، وكيف حرم على رجال الدين أن ينذروا الرهبنة فإنها لم تبح إلا لمن آثر الحياة الدينية فى صومعة ، وفطن إلى أن ذلك القرار الأخير إن هو إلا تفاهم مع المزديين الذين كانوا يجزعون من الرهبنة ، فوطن العزم على أن يرحل إلى الموصل ، فما يقرأه يتعارض وما وصل إلى الكنائس من أن هرمزد الرابع شاهنشاه إيران قال : إنه كما لا قوام لسرير ملكنا ولا ثبات له مع استفسادنا من فى بلادنا من النصارى وأهل سائر الملل المخالفة لنا ، فأقصروا عن البغى على النصارى وواظبوا على أعمال البر ليرى ذلك النصارى وغيرهم من أهل الملل فيحمدوكم عليه ، وتتوق أنفسهم إلى ملتكم . كان سلمان يريد لب الحقيقة .

وشد سلمان الرحال إلى الموصل وهو قلق لا يستقر على قرار ، فلم يشرق قلبه بنور اليقين وإن أمضى فى تعبده سنين ، وكان الثوار قد أطاحوا بهرمزد ونصبوا ابنه كسرى الثانى ملكا عليهم ، وقد عمل الإمبراطور موريق إمبراطور الروم على مناصرة كسرى وأمده بالعون الحربى على أن ينزل له

كسرى عن مدينتى دارا وميافارقين ، وكان الروم قد استولوا عليهما فى الحرب التى كانت دائرة بين الفرس والروم .

ولم يكن الموابذة سعداء بعودة كسرى الثانى الملقب برويز (المظفر) إلى العرش ، فإنه قد تأثر أثناء إقامته فى الإمبراطورية الرومانية ومال إلى الإيمان بجميع أنواع الأوهام والخرافات المسيحية وقد دست فى رأسه آراء النصارى امرأة نصرانية اختصها بحبه هى شيرين .

وقتل فوكاس الإمبراطور موريق فاتخذ كسرى من ذلك ذريعة لبدء حرب جديدة مع بيزنطة ، فسار قواد الفرس إلى آسيا الصغرى ليستولوا على الرها وأنطاكية ودمشق ، وكانت ظاهرة عجيبة أن ملوك الأرض فى ذلك الوقت لم يموتوا على فراشهم بل قتلوا غيلة ليتم الفساد فى الأرض قبل أن يشرق نور الفجر الجديد .

وأدار الانتصار رأس كسرى برويز فسمى نفسه : « الرجل الخالد بين الآلهة ، والإله العظيم جدا بين الرجال ، صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس » .

وهمس الناس بأن كسرى قد اعتنق النصرانية بسبب زواجه الأميرة البيزنطية ماريا وأثر عشيقته المسيحية شيرين فيه ، والحق أنه أضاف إلى عقيدته من الخرافات المسيحية فوق ما كان يعتقد ، ويشهد بذلك العدد الغفير الذى يحيط به من الكهان والسحرة والمنجمين ، وكان لديه ثلاثمائة وستون منهم على عدد أيام السنة .

كان للنصارى حينما اعتلى كسرى الثانى العرش حرية الدين ، ولكن لم يكن لهم الحق فى التبشير بدينهم وإدخال الزرادشتيين فيه ، فإن من يخرج من دينه من هؤلاء كان عقوبته الإعدام .

ووصل سلمان إلى الموصل وانطلق إلى الكنيسة التماسا للحقيقة ومكث بها يرقب أحوال المصلين : كانوا رهبانا جوالين شحاذين ، كانوا نوعا من فقراء النصارى يتخفون وراء زهد ظاهرى ، وكانت أخلاقهم فاسدة يتدخلون بحكم عملهم الخارجى فى بيوت النار حيث يرتكبون كل ما يشتهون من منكر .

كان الحنانيون وكانوا عند الناس موحدين جبريين ، واليعاقبة الذين يؤمنون بوحدة طبيعة المسيح الذين استردوا نفوذهم ، يتهمون بكل قواهم الكنيسة النسطورية وقام النزاع من جديد بين النساطرة واليعاقبة ، وانتصر اليعاقبة لأنهم وجدوا فى جبريل كبير أطباء كسرى بطلهم المغوار ، فقد كان نسطوريا واعتنق مذهب اليعاقبة ، وزاد فى قوة اليعاقبة أن شيرين اعتنقت مذهبهم .

وكفَّر اليعاقبة النسطوريين ، وكفر النسطوريون اليعاقبة ، ودار رأس سلمان وتبلبلت أفكاره فرأى أن يرحل من الموصل إلى نصيبين لعل النور أن يشرق فى قلبه .

ورحل سلمان إلى نصيبين وراء الحقيقة ، إنه غادر قصر أبيه وهجر دينه ووطنه طلبا للحقيقة الخالدة والخير الأسمى ، ولكنه بعد طول الترحال والاعتكاف فى كنائس الشام وكنائس الموصل لم يعرف باله الراحة ، ولم تركن سفينته إلى شاطىء الطمأنينة ، فلا يزال فى بحر زاخر متلاطم من الشكوك ، إنه يريدها حقيقة ناصعة ، حقيقة تبدد ظلام قلبه وتشرق فيه بالنور .

كانت نصيبين نقطة الالتقاء بين الإمبراطورية الإيرانية والإمبراطورية الرومانية ، فهى مركز من أهم مراكز الدين المسيحى وإن سقطت فى أيدى

الفرس ، فقد كانت فى أيدى الرومان طويلا ولا بد أن يكونوا تركوا فيها من العلم ما يشفى غليل الباحث عن الحقيقة ، فقد عقد فيها مجمع للأساقفة ولا بد أن ذلك المجمع قد أزال بعض الغموض الذى ران على قلب سلمان .

ونزل سلمان فى إحدى كنائس نصيبين حصن النسطورية الحصين وهو يرجو أن يجد من إيمان القساوسة ما يعيد الإيمان إلى قلبه ، ولكنه ما كاد يقرأ ما كتبه مطران نصيبين لكسرى أنوشروان حتى ود لو يطير من تلك المدينة التى حسبها واحة الإيمان فإذا بها معقل الشرك والشك والضياع ، فقد كتب البطريق آراءه الخاصة بالله وبالعالم بمداد المؤمن الواثق بدينه وربه : « فقد وجد من يعتقدون فى إله واحد ويدعى آخرون أنه ليس بواحد ويقول آخرون بأن له صفات متضادة وينفى آخرون عنه الصفات ، وبعض يقول إنه قادر على كل شيء وبعض آخر يقول إن قدرته لا تشمل كل شيء . بعض يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شيء . وهناك من يقول إن العالم محدث وآخرون يقولون إنه قديم .. » .

إن سلمان يريد الحقيقة وذلك القول الذى يكشف عن دين نصارى نصيبين لا يورث فى القلب إلا القلق والحيرة ، فهذه الآراء شائعة فى صلب الديانة الإيرانية لعلها تسربت إلى المسيحية مع تسرب الجيوش الإيرانية إلى المدينة ، إنه أراد أن يتحرر من عبودية حبه لأهله ، من عبودية حبه لأرضه، من عبودية خضوعه لتقاليد مجتمعه ، من عبودية دين آبائه وأجداده ، ليعلو على نفسه حتى يصل إلى غاية غاياته ، إلى انتصاره الروحى ، ولكنه لم يصل إلى شيء ، ذهبت أيامه ولياليه أدراج الرياح ، ولم يشأ أن يستسلم ليأسه ، بل رأى أن ينطلق بحثا عن ضالته ، عن نور النور ، عن كال الكمال ، عن روح الروح ، عن عين الحقيقة ، وإنه لواثق من أنه سيصل ، فمن قصد وصل .

إن كانت النصرانية قد شابتها الشوائب فى الشام والموصل ونصيبين من اختلاطها بمعتقدات الوثنيين وأساطير الزرادشتيين ، فهو يحس أنها كما أنزلت فى كنائس الروم ، فمن أين يأتيها الباطل وهى بعيدة عن الوثنية والزرادشتية والقساوسة المتملقين للملوك .

وخرج سلمان إلى عمورية فى قلب بلاد الروم وهو يرجو قصد السبيل ، انطلق وراء سعادة روحية غالية تتقاصر أمامها كل سعادة ويهون فى سبيلها كل ألم وكل عذاب ، فما أحلى المشقة إذا كان الطريق ينتهى إلى حيث لا نهاية ؛ إلى ملكوت السماء .

ونزل سلمان بعمورية وألقى سمعه إلى رجال الدين فلم ينشرح صدره ، كانت المسيحية قد ماجت بأساطير الرومان وأساطير اليونان ، وحلت مريم العذراء محل الأم العظيمة فى الديانة الوثنية الرومانية القديمة ، بل حلت محل إيزيس الأم الحزينة التى انتقلت عبادتها من مصر إلى اليونان والرومان.

وكان اليأس يدب فى قلب سلمان فراح يشغله بالدنيا . فاكتسب حتى كانت له بقرات وغنيمة ، وذات يوم قال له رجل صالح من شيوخ الرهبان إنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب ، مُهاجره إلى أرض بين حرتين[١] بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

ونزل قول الراهب على قلبه نزول المطر على الأرض الميتة ، فاستشعر كأن حياة جديدة قد دبت فيه ، وأنه قد منح قلبا جديدا أشرق فيه النور وفاض.

---

(١) الحرة : كل أرض ذات حجارة سود .

بالأمل ، فإذا فى لحظة يحجب عن قلبه كل ما شغله عن الله ، قد قطعت عنه كل جوانب الدنيا لينجذب إلى السماء .

وتأهب ليشتد إلى الصراط المستقيم ، لينطلق إلى أرض ذلك النبى ليقتبس منه النور ليهديه إلى جوهر الحقيقة وينبوع السعادة الأبدية .

فمكث بعمورية يترقب ورود تجار من بلاد العرب ليحملوه إلى ذلك النبى الذى قد أظل زمانه ، ليؤمن به ويصدقه ويكون سابق الفرس » .

٢٥

كان أبناء إسماعيل عليه السلام أول من بدل دين أبيهم إبراهيم ، فإنه لما ضاقت بهم مكة وخرجوا ليتفسحوا فى الأرض ولينشروا دين الله أخذوا معهم حجارة من الحرم تبركا بها وتذكارا للبيت المعظم الذى تعلقت به أفئدتهم ، فكانوا كلما هزهم الشوق إليه أخرجوا تلك الحجارة ونظـروا إليها فى تقديس ، ثم أعادوها إلى أماكن حفظها .

وعلى مر السنين صارت تلك الأحجار مقدسة ، ولما طالت الشقة بينهم وبين مكة وحنوا إلى الطواف وضعوا تلك الحجارة وطافوا بها طوافهم بالكعبة وجعلوا لها حرما ، فلما طال عليهم العهد حسبوا أنها إنما تعبد لذاتها وبنوا لها كعبة تشبها بكعبة أبيهم إبراهيم .

وتمكن أبناء نابت بن إسماعيل من تأسيس مملكة النبط واتخذوا البتراء عاصمة لهم ، وارتحلوا إلى الشام ومصر والعراق ، وإلى بلاد اليونان وما وراءها ، ورأوا جمال التماثيل فازدروا ما كانوا يعبدون من حجارة ، فجلبوا تمثال إيزيس من مصر لتصبح العزى ، وجلبوا من بلاد اليونان تمثال أبوللو إله الشعر ليصبح هبل ، وانتهى بهم الأمر بأن حفروا فى الجبال معبدا هائلا لإلههم ذى الشرى ورب البيت ليحج إليه عرب سيناء والعربية الشمالية .

وانتشرت فى بلاد العرب بدعة إقامة الكعبات ، فبنى فى مشارف الشام بيت الأقيصر ، وكان مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة يحجون إليه ويحلقون رءوسهم عنده ويلقون قبضة من الدقيق مع كل شعره ، وبنيت الكعبة

اليمانية وهي بيت ذى الخلصة فى أرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وكان بصنعاء بيت رئام يحجون إليه وينحرون عنده فطلب حبران ممن يقرأون التوراة من ملك اليمن أن يأمر بهدمه لأنه شيطان يفتن الناس ، فأذن لهما فهدماه ، وبنيت فى نجران كعبة كان العرب من كل القبائل إذا ما يمموا شطر اليمن يزورونها ، وقد قال الأعشى لناقته ذات يوم :

فكعبة نجران حتم عليـ ... ـك حتى تُناخى بأبوابها

نزور يزيد وعبد المسـ ... ـيح وقيسا وهم خير أربابها

وقام بالكوفة بيت سنداد وكان يقوم بزيارته كل من ذهب الحيرة من العرب .

وفى كل قبيلة من القبائل قام إله تعظمه بعض القبائل الأخرى أو تزدريه ، وكان أشهرها اللات فى ثقيف ، ومناة على شاطئ البحر الأحمر بالمشلل بقديد بين مكة والمدينة وكان يعظمه الأوس والخزرج وقريش وبعض القبائل الأخرى ، وإن كنا لا ندرى حكمة وضعه كالحارس على البحر فلعله كان رمزا لإله البحر ، أو لعله وجد فى حطام سفينة من السفن الرومانية أو اليونانية التى كانت تمخر البحر الأحمر فوضع فى ذلك المكان واستعير له اسم الإله منوتن النبطى الذى كان إله المنايا . ومن الغريب أن العرب كانوا يكرهون البنات ويخشون عارهم ومع ذلك جعلوا آلهتهم إناثا وزعموا أنهن بنات الله يشفعن إليه .

وعلى الرغم من الكعبات التى انتشرت فى أرجاء بلاد العرب فقد اجتمع لبيت مكة ما لم يجتمع لبيت آخر ، فالقبائل كلها عرفت له مكانته فهو بيت أبيهم إبراهيم وأول بيت وضع للناس للعبادة فجلبوا إليه أصنامهم وتكدست فيه الآلهة المتنافرة ، إله تعبده قبيلة وتبغضه أخرى فلا يغض ذلك من مكانة

البيت ، فالبيت هو المقصود بالقداسة ولا قداسة لإله بعينه إلا بين المؤمنين به من أتباعه .

اختلفت شعائر الأصنام وبقيت شعائر البيت لا خلاف عليها بين القبائل ، وإن اعتورها بعض التعديل أو أدخلت على نداءات التلبية بالتوحيد نوع من الشرك لتتلاءم النداءات مع ما طرأ على عقيدة إبراهيم من تغيير .

وإذا آن أوان الحج كانت القبائل التى تدين بالمجوسية أو اليهودية أو النصرانية أو الوثنية تأتى من كل فج عميق ليؤدى العرب جميعا لا فرق بين معتقداتهم المناسك ، وكانوا يؤمنون أن للكون إلٰها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون إليه بالدعاء والشكر .

وظلت مكة مفتوحة أمام كل القبائل ليست لها سيادة قاهرة على القوافل التى تمر بها ولا سلطان على جيرانها ، فما كان فى مكة دولة كدولة اليمن أو الحيرة أو الغساسنة تزعج الوافدين إليها بقوانينها بل كانت مثابة للناس وأمنا ، وكل ما كان بين القبائل ومكة تقديس البيت واحترام القبيلة التى تسهر عليه وتخدمه .

كان بيت إبراهيم ، هو الرابطة الروحية التى ربطت قبائل العرب على اختلاف مذاهبهم السياسية وعباداتهم ، وقد حدث لما فر النبط إلى مكة ودومة الجندل وتيماء والمناطق الشمالية من جزيرة العرب أيام غزاهم الرومان أن حملوا معهم لغتهم العربية التى إغتنت وترقت باحتكاكها بحضارات الفرس والفراعنة واليونان ونشروها فى مكة ، ومنها شعت تلك اللغة حتى صارت لغة العرب جميعا ، أقاليمها الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية[١] وتمت

---

(١) راجع الجزء الرابع « العدنانيون » وانظر التذييل .

وحدة اللغة تمهيدا لنزول القرآن بها .

وتعرض بيت مكة للغزو الحبشي ، ولو تمكن أبرهة من أن يدك الحرم لقطع الخيط الوحيد الذى يشد قبائل العرب بعضها إلى بعض ، ولكن الله أراد أن يصون بيته ليشع منه نور الهداية على العالمين ، فجعل كيد أصحاب الفيل فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل .

وبقيت مكة واحة الحرية فى صحراء العبودية التى كانت ترسف فيها الدول العربية فى الجزيرة العربية ، فاليمن كانت فى قبضة الحبشة ثم الفرس ، والحيرة تستمد سلطانها من الفرس ، وكسرى قد بعث من يبنى فى ثقيف حصنا ، والغساسنة تحت ظل النسر الرومانى ، وتميم وبعض القبائل تدين بالولاء لفارس ، بينا كانت قبائل أخرى تميل إلى الرومان .

وقد حاول عثمان بن الحويرث أن يدخل مكة فى حوزة الدولة الرومانية كما دخلت اليمن فى حوزة الفرس ، ولكن القرشيين الذين لم يخضعوا لسلطان أبدا ثاروا فى وجهه فعاد إلى القسطنطينية ليشكو إلى قيصر قومه الذين رفضوا إطاعة الإمبراطور العظيم ، وأبوا أن يولوه ملكا عليهم من قبله .

ونجح تجار قريش بالشام فى أن يجعلوا عمرو بن جفنة ملك الغساسنة من قبل قيصر يحاول أن يفسد عليه أمره . فكتب إلى ترجمان قيصر يبدل فى كلام عثمان ليوقع بينه وبين الإمبراطور ، وقد نجح الترجمان فى ذلك ولكن عثمان اكتشف المؤامرة ورفع الأمر مرة ثانية إلى قيصر ، فكتب لعثمان بن الحويرث إلى عمرو بن جفنة أن يحبس له من أراد حبسه من تجار قريش .

وقدم على ابن جفنة فوجد بالشام أبا أحيحة سعيد بن العاص وابن أخته أبا ذؤيب من بنى عبد عامر بن لؤى ، فحبسهما .

وبلغ خبر حبس أبى أحيحة قريش فأجمع رهط من بنى عبد شمس أن يفتدوا

سعيد بن العاص بمال يجمعونه فقال لهم مسافر بن عمرو :

ـــ لا تفتدوا رجلا فانيا واحدا بهذا المال وزوجوا به فتيانا من فتيانكم يولد لبعضهم مثله .

وبلغ ذلك سعيد بن العاص وهو فى سجنه فقال لأبى ذؤيب هشام :

قومى وقومك يا هشام قد اجمعوا

تركى وتركك آخر الأعصار(١)

وظل مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس يخذل عن سعيد بن العاص ، ولكن رجالا رأوا أن يخرجوا فى طلبه فلحق بهم وقال :

ـــ لو قسمتم ما تنفقون فى صداق عدة من فتيان بنى أمية ، أوشكتم أن تروا فيهم مثل سعيد رجالا كثيرا .

فأمسك بعضهم عن الخروج ، وانطلق الآخرون ليفتدوه بعد أن جاء قوله :

يا راكبا إما عرضت فبلغن قومى بريدا

عثمان أو عفان أو أبلغ مغلغلة(٢) أسيدا

فلأمدحن الوافدين بمدحة تأتى سرودا

حسنا وأدبرها ، أصيرها فتحسبها برودا

وبلغ رجال بنى شمس الشام وقد مات أبو ذؤيب فى الحبس فعملوا على إطلاق سراح أبى أحيحة ، فلما قدم مكة جعل يحرض على بنى أسد ويغرى بهم بنى عامر وبنى أمية فى دم أبى ذؤيب ، فقال أبو العاص بن أمية :

---

(١) أبد الدهر .

(٢) مسرعة السير .

إني أعـــادي مـــعشرا　　كانــوا لنــا حصنــا حصينـــا
حلفـــوا مـــع الجوزاء ، إذ　　خلقــوا　ووالدهـــم أبونـــا
أبلـــغ إلـــيك بنـــي أميـــ　　ـــة آيـــة نصحـــا مبينـــا
إنـــا خلقنـــا مصلـــحين ومـــا　　خلقنـــــا مفسدينـــــا

فأمسكت بنو أمية عن بني أسد ، ورهن أبو أحيحة ابنه أبان بن سعيد ببني عامر ليحقن بذلك على بني أسد دم أبي ذؤيب ؛ لأن دعوة بني قصي يومئذ واحدة ، فما كانت هناك عداوة قائمة بين بني هاشم وبني أمية وغيرهم من أبناء قصي والدية عليهم جميعا ، فقال أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى :

ألا مـــن مبلـــغ عنـــي سعيـــدا　　رسولا والـــرسول مـــن التـــلاق
بماذا قـــلت تـــرهنهم أبانـــا　　بـــلا حـــق لـــدى ولا حقـــاق
فنحـــن البـــيض أشبهنـــا قصيـــا　　وأنتم شبـــه أستـــاء الزِّقـــاق

وراح سعيد بن العاص ومسافر بن أبي عمرو من فضلت هند بنت عقبة عليه أبا سفيان بن حرب ، يتبادلان الهجو شعرا حتى انحطا إلى سباب يخدش الآذان .

فلما سمع بنو عامر قول أبي زمعة وقالوا :

ـــ فاحلفوا لنا .

فقال لهم أبو زمعة :

يـــــاحسل[1] حسل عامـــــــر لا تجهلي
إن تسألي أيمانـــــــــا لا نفعـــــــــل
أو تبـــذلي أيمانكـــــم لا نفعـــــــل

---

(١) هو حسل بن عامر بن لؤي .

وجعلت بنو عامر تجمع لبنى أسد ، فقال أبو زمعة :

سيكفينــى الوليــد أبــا لبيـــد ويكفى بكرَه عـوف بـن دهــر
وأكفى غير مكتــرث سهيــلا ويكفى باطلى سهل بـن عمـرو
ألم تـر أننــا مــن ذى قــذاف نسيـــل كأننـــا دَفّـــاع بحر
ونلـبس للعـــدو جلـــود أسد إذا نلقاهُـــم وجلـــود نَمْـــر

بدأت العداوة بين بنى أسد وقريش عامة وبين سعيد بن العاص بالتراشق بالاتهامات وبإلقاء كل فريق بما يجود به شعراؤهم فى وجه الفريق الآخر ، وكان سعيد يحرض بنى عامر على الثأر لدم أبى ذؤيب الذى ذهب ضحية عثمان بن الحويرث بن أسد ، وانتهت مرحلة الكلام وراحت القبائل تتــأهب للقتال . ترى ما الذى دار فى رأس خديجة بنت خويلد بن أسد ؟ وبماذا كانت تحدث زوجها الحبيب عن هذه الفتنة التى أطلت بخطمها تهدد وحدة قريش ؟ وإذا نشبت الحرب أيشترك فيها محمد بن عبد الله كما اشترك مع أعمامه فى حرب الفجار ؟

كان محمد يحب قومه من كل قلبه وما كان يحب أن تقع البغضاء فى قلوبهم ، فكان كلما خلا بربه لا يسأله صلاح أمره وحده ، بل كان يسأله صلاح أمر الناس جميعا .

و لم يرض عثمان بن الحويرث عن بني أسد وإن كان قد جلب لهم المتاعب ، فقال :

ظلـمت فلـم يـغضب عـدى ونوفـل
ولـــيس على أبى هشام[1] معـــوّل

---

(١) حكيم بن حزام .

ولـيت حظـى مـن تـويت ونصره

نضى إذا أرمـــى بـــه لا يـــعضل

ولما بلغ قول أبي زمعة سهيل بن عمرو قال :

ــ والله لا أرجل رأسي ولا يمسه غسل حتى نعطى حقنا هذا أو نكثر فيها الدماء .

فقال أبو زمعة :

أتـانى ذرأ قـول عـن سهيـل ... يـؤرقنى ومـا بى مـن رقـاد

أسامى الأكـرمين بجل قومـى ... إذا انسل الضعيـف بـغير زاد

فإن يكـن العتاب بغيْت منـى ... فعاتبنـى فمـا بك مـن بعـاد

أتوعـدنى وعبـد مناف حـولى ... ومخزوم ، ألهف ! بمن تعـادى

وقـد منعـوا الظواهـر غير شك ... إلى جنب البواطـن فالعـوادى

بكـل طوالـة وبكـل نهد ... ضوامر قد طويـن من الطـراد

لنا بالخيف[1] قد علمت معد ... وراق المجد يرفـع بالعمـاد

وأراد أبو سفيان أن يحقن الدماء فقال :

ــ والله لا يقضي فيه قضاء شهرا .

وشَم عمرو بن جفنة عثمان بن الحويرث فمـات فى الشام ، فقال ورقة بن نوفل :

ألا هـل أتى ابنتـى عثمان أن أبـاهما

حـانت منيتـه بجنب الفَـرْصَد

---

(١) منى .

ركب البريد مخاطرا عن نفسه
مَيْتُ المضِنَّة للبريد المُقصد
فلأبكين عثمان حق بكائه
ولأنشدن عمرا وإن لم ينشد

حتى الشيخ الجليل الذى نظر فى الكتب وعرف اليهودية والنصرانية لم تغسل من صدره عصبية قومه ، فراح يتوعد عمرو بن جفنة ويتوعده بالثأر لعثمان بن الحويرث صديق صباه ومن كفر بالأصنام ، ومن تجرى فيه نفس الدماء التى تجرى فى عروقه : دماء بنى أسد .

وصان الله بيته من أبرهة وأصحاب الفيل . وصان مكة من أن تكون ذليلة تحت النسر الرومانى ، لأن الله يعد أم القرى لنبأ عظيم ، ومن البيت الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل سيشرق النور ليغمر العالمين .

٢٦

كانت السعادة تخفق فى جنبات البيت ، فزينب تناغى أختها أم كلثوم ، وخديجة تضم رقية إلى صدرها وقد انبسطت أساريرها وراح محمد يرنو إلى أسرته فى انشراح لا يفرق فى حبه بين بناته وهند بن أبى هالة وزيد بن شراحيل ، فقد وسعهم جميعا قلبه الكبير وفاض عليهم من كنوز حنانه ورقته .

كانت الأسرة تعيش حياة ناعمة ، ولولا الآمال الكبار التى كانت تشغل قلب الأبوين الكريمين لما عرف القلق طريقه إلى العش الهانىء ، فمحمد بن عبد الله يبغى وجه الله فراح ينفق عمره فى جهاد نفسه وحرمان ذاته من مباهج الأرض طمعا فى ملكوت السماء وغبطة سرمدية ونشوة روحية تتلاشى أمامها كل لذائذ الوجود ، بينما كانت خديجة ترقب زوجها فى فرح واستبشار فكل أحواله تؤكد لها أنه الموعود ، ولكنها كانت تتعجل ذلك اليوم الذى تشرق فيه من دارها شمس الحقيقة لتغمر مكة وما حولها وكل الكون ، وكان صبرها ينفد أحيانا فتهمس الأصوات فى أغوار نفسها : متى يا خديجة ، متى ؟

إنها كانت متلهفة على ذلك الحدث الكبير ، فالنبوءة التى سمعتها فى ذلك اليوم الذى اجتمعت فيه نساء قريش فى الحرم فى يوم العيد تتردد فى ضميرها ، ورؤياها التى رأتها تشاغل عقلها ، وحديث غلامها ميسرة حفر فى عقلها ، ونبوءات ابن عمها ورقة بن نوفل تضىء جوانب نفسها ، ولو أشاحت بوجهها عن نبوءة العيد ورؤياها وأحاديث غلامها وابن عمها الشيخ الجليل ،

فأفعال زوجها كلها تشير إليه بأنه المصطفى والمنتظر .

إن ثقتها ليست مستمدة من أحلامها ورؤاها وجيشان شعورها وإلحاحه على صورة واحدة وحسب ، بل إن مكارم أخلاق زوجها وانقطاعه لمناجاة ربه وأنسه به وهجران الخلق فى حبه وصبره مع الله وإشراق المعارف فى قلبه وانكشاف الحقائق له ، لا يمكن أن تكون إلا بإلهام إلٰهى وكشف ربانى .

إن لله فى أرضه آنية هى القلوب فأحبها إليه أرقها ، وإن قلب محمد لأرق القلوب على أهل بيته وعلى إخوانه ؛وأصفاها وقلب محمد أصفى من الصفاء وأنقى من النقاء وأصلبها ؛ وليس على وجه الأرض من يملك قلبا أصلب من قلب زوجها فى الحق : إنه التقوى والورع ومكارم الأخلاق .

وكانت كلما طالت عشرتها معه ازدادت إعجابا به وثناء على الله الذى خلقه على خلق عظيم ، وكانت تعجب فى نفسها : إن لم يكن محمد بن عبد الله خير البشر فمن يكون ؟ إنه يرى أن الله حق وهدى ، وأن الإيمان به مطلوب لأنه حق وهدى ، وأن هذا الإيمان أعلى من كل إيمان وأقدس لأنه إيمان بالحق والهدى ، فهو بكل جوارحه ووجدانه وقلبه لله ، ومن كان لله كان الله له .

إنه معظم لله ، خائف أياه ، راج له ، شغل قلبه بالنظر إليه ، قد صفت له لذة المناجاة ؛ ولكنه صرف قلبه عن سائر الأمور إلى أمر الله ، هواه ووجهه وفؤاده إلى الله ، فهو حصنه وملاذه ومنتهاه ، فلا بد أن يكون ملحوظا ومرقوبا بعين الله ، فلا يستتر عن عين الله ساتر ولا يحجب عنه محب قد أحضر فى قلبه جميع أنواع لطفه لتتفتح له رحمته .

طهر باطنه لأنه موضع نظر ربه ، ونقى سره وسريرته وأقام قلبه مع الله ، وجاهد النفس لكيلا تتشعب به الهموم فى أودية الدنيا ، وهجر مباهجها فى

سبيل وجه الله ، وصبر ثم عمل الصالحات وتوكل على الله ، وما تيسرت طاعته إلا بإعانة ربه الذى يأخذ بيده ويلقى العلم والحكمة فى عين وجوده فيشرق لبه بأنوار المعارف واليقين .

انكشفت له أشياء بطريق الإلهام ووقعت فى قلبه من حيث لا يدرى ، قد جاهد فى الله فحق على الله أن يهديه سبله وأن يجعل له نورا يفرق به بين الحق والباطل ، وأن ييسره للنظر بنوره ، وأن يقذف فى قلبه علما من لدنه يتفتح فى سر القلب لصلاح الخلق .

كان باب قلبه متصلا بالملكوت ؛ إنه باب إلهام ونفث فى الروع ، وإنه لينفتح بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا ليتلقى منه وحى السماء ، فيتولى الله سياسته ويصبح جليسه ومحادثه وأنيسه وتضحى يد الله على فيه لا ينطق إلا بما هيأ الله له من الحق .

أصبح يحس روح الوجود فى روحه وعين الوجود فى عينه وأن الله يجرى منه مجرى الدم ، وقد جعل إرادته خيرة لأن الخير الحقيقى إنما يوجد حيث توجد الإرادة الخيرة ، وفهمه الضرورة الكامنة فى الطبيعة وأسرار ما فوق الطبيعة ، وأعانه على أن تندمج إرادته فى الإرادة الكلية ليجعل كلامه على لسانه .

ألهم قوانين الوجود فعمل على أن تطابق إرادته الباطنة تلك القوانين ، ونفث فى روعه أن الفضيلة علم والرذيلة جهل فكان يسأل الله فى مناجاته أن يلهمه العلم وألا يجعله من الجاهلين .

وكان مبعث سلوكه الرغبة فى الخير رغبة مباشرة ، فرق قلبه حتى إنه لم يوجه كلمة قاسية إلى ربيبه هند بن خديجة ، أو يكلف زيد بن شراحيل بعمل ، أو يقطب جبينه لعبد أو جارية ، وإن كلف أحدا ممن تحته بعمل كان

يعينه فيه ، وكان يقابل الناس حتى وهو فى لحظات ضيقه هاشا باشا ، وإن صافح أحدا يترك يده فى يده لا يسحبها منه حتى يتركها الآخر ، فأحبه كل من اتصل به وتعلقت به القلوب .

إنه لا يكف عن العزلة والنظر إلى وجه الله ، فهو يحس أن عطايا نورانية توهب له من جود الله وكرمه وأن ضياءها يزداد إشراقا كلما طال أنسه بربه ؛ فحريته وعلمه وحكمته قد منحت له من أصل وجوده وصميم ذاته : من الله المتعالى ، وأن ليس له من غاية سوى أن يفنى فى الحقيقة المتعالية : فى الخير الأسمى .

وعرف سر الحرية ، الحرية الراشدة التى تخضع للعقل وتسترشد بالنور الإلٰهى الذى يشرق فى الرأس فيبدد الأهواء والنزوات ، وعرف أنه بالحياة الروحية الصحيحة تسمو الحرية الكبرى لتصبح حرية متعالية ، حرية مستمدة من العلة الحرة لسائر الأشياء .

آمن بالغيب وآمن بالقضاء والقدر وخضوع الإنسان للإرادة الإلٰهية ، فهو لا يقدر على شيء إلا بالله ، وإذا اختار فالخيرة لله تجرى الأمور بمشيئته وإرادته ، وأن الإنسان ليس إلا عبدالله ، فمن طلب الرشاد فليعمل على كمال العبودية ، فمن صدقت لله عبوديته خلصت عن رق الأغيار حريته .

إن الإرادة تستهدف الخير المطلق ، إن الله سوَّى الأنفس وألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ، وإن السير ينبغى أن يكون فى طريق السعادة القصوى ، فى طريق من ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، الباطن تقدسا لا عدما ، وسع كل شيء رحمة وعلما .

إن الله لا يكف عن أن يمدنا بالقوة والنور ، فمن رشد جعل قوته من قوة الله وجعل نور عقله ونور بصيرته ونور بصره من نور النور ، فينطلق مستبشرا

متهللا بالفرح فى طريق النور شاعرا بخصب وجوده وإمتلائه بالحكمة ، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

كانت المشاعر تموج فى نفس محمد وكانت الحقائق تتكشف فى قلبه ، فكان يحدث خديجة بما يجول فى رأسه من خواطر وما يجيش فى صدره من أفكار وما ألقى فى قلبه من نور ، فكانت خديجة تستبشر بما يقول وتنفعل به حتى تحس إشراق أنوار المعارف فى قلبها وتهيم معه فى رحاب الملكوت فتمتلئ بلذة روحية صافية وتستشعر سعادة من يدنو من السماء ونشوة من يستظل بظل الله .

وكانت إذا ما جلست إليه تذهل عن نفسها وبناتها وتجارتها وآمالها وكل ما طاف بها من رؤى وأحلام ، وتتجه بكل كيانها إلى الحقيقة المتعالية ترشف من رحيق الإيمان بردا وسلاما وطمأنينة وأمنا واستقرارا ، حتى إذا ما غاب عنها وبعدت عن مجال تأثيره هاجمتها أفكارها المتلهفة على تحقيق الحلم الذى عاش يراودها سنين ؛ حلم أن يكون زوجها الأمين نبى هذه الأمة .

كانت خواطرها تحرضها على أن تنطلق إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه ما رأت من حال زوجها فى خلوته وفى مناجاته لربه وفى أنسه به وتحدثه عن عجائب المكاشفات التى أشرق بها قلبه بنور ربه ولكنها كانت تغلق قلبها دون تلك الخواطر ، وتلزم نفسها بالصبر انتظارا لمشيئة الله .

وراحت الأيام تمر وخديجة تقاسى فى لحظات مصاحبتها لنفسها من قلق الترقب والانتظار وقد عجزت عن أن تصمد أمام إلحاح الفكرة المتلهفة عن إشراق النور من دارها ، ومداومة إلحاحها على وتيرة واحدة وتسلطها على كل كيانها واحتلال كل تفكيرها ، وكانت لا تنثنى ولا تريم وزوجها فى غار حراء يتحنث لربه ويقطع كل علائقه بالدنيا وشواغلها من أهل وأولاد وأصحاب

وتجارة وبيع فى سبيل وجه الله .

وألفت خديجة نفسها حبيسة مع تلك الفكرة الملحة التى تريد أن تسبق الزمن أو ترفع الأسجاف عن الغيب لترى تحقيق أمانيها وما بشرت به ، فلم تعد تحتمل مقاومة ذلك الإلحاح المتصل فرأت أن تفر منه إلى ابن عمها الشيخ الجليل ورقة ، لعلها تجد عنده سلوى تعيد إلى نفسها الطمأنينة التى هجرتها وتثبت دعائم الصبر فى القلب المتشوف المتطلع إلى غيب السماء .

ودخلت خديجة على الشيخ الجليل فألفته عاكفا على كتبه يجتهد فيها ويحاول أن يكشف ما فيها من أنوار لعله يهتدى بنورها إلى طريق السالكين إلى الله ، فالشيخ الذى أفنى عمره فى الرحلات وفى الكتب لا يزال يبحث عن السبيل وقصد السبيل فقد شغل بالكتب عن الله ومن شغل قلبه بغير الله لم يعرف كمال الكمال ، ولو هداه الله وتجلى عليه بالبركات لسعدت روحه بلذة الوصال ولغمرته لطائف الرحمة ولنهل العلم الثابت من خزائن الملكوت .

ومس صوت خديجة أذنيه فرفع الشيخ رأسه وأشرق وجهه بابتسامة رقيقة فأقبلت عليه تحييه فى احترام ، ثم جلست إليه تحدثه عن زوجها الذى أشرق العلم فى قلبه دون أن ينظر فى كتاب ، وتلقى الحكمة من فوق السموات بطول السهر مع الخبير العليم ، واستمرت تقص على ورقة أفعال زوجها وهى مستبشرة قد تدسست فى صدرها حماسة طاغية ، فأرهفت حواس الشيخ وألقى إليها سمعه وهو منفعل بالأحداث التى ترويها عن حال الأمين فى ليله ونهاره ، فى يقظته ومنامه ، وكانت كلها تفصح عن صحبته الدائمة لله ، فهو يعيش له وبه ويفر منه إليه ليس له قصد إلا وجهه الكريم .

أقبلت خديجة على الشيخ وهى ترجو أن تجد عنده ما ينزل السكينة على قلبها القلق ، فإذا بالشيخ ينفعل ويصبح أكثر منها لهفة على قدوم ذلك اليوم

الأغر الذى يظهر فيه النبى المنتظر الذى بشرت به الأنبياء ، فإذا به مثلها يستبطىء الأمر ويقول :

— حتى متى ؟

وبلغ تأثره منتهاه فقد كان يقول لابنة عمه حينما كانت تسأله عن أمر زوجها العزيز : « ما أراه إلا نبى هذه الأمة الذى بشر به موسى وعيسى » ، وإذا بالانتظار قد طال ، فراح ينشد :

لججتُ وكنت فى الذكرى لجوجا
لِهَمّ طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف
فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتين على رجائى
حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قَسّ
من الرهبان أكره أن يَعُوجا
بأن محمدا سيسود فينا
ويخصم من يكون له حَجيجا
ويظهر فى البلاد ضياء نور
يُقيم به البرية أن تَعوجا
فيلقى من يحاربه خسارا
ويلقى من يسالمه فلوجا[1]
فياليتى إذا ما كان ذاكم
شهدت فكنت أولهم ولوجا

---

(١) الظهور على الخصم والعدو .

وقامت خديجة وما شفى الشيخ لها غليلا فما كان ورقة بن نوفل يملك مفاتيح الغيب ، فلله غيب السموات والأرض والله أعلم حيث يجعل رسالته .

٢٧

خرج محمد من دار خديجة قاصدا بيت عمه أبي طالب فقد كان يزور ذلك البيت الذى شب فيه واستقر به قبل أن يتزوج خديجة ، ولم ينس يوما فضل أبي طالب عليه فكان يمر ليلقي عليه السلام فى دكانه أو ينطلق إلى داره ليأنس بأبناء عمه طالب وعقيل وجعفر .

كان أبو طالب قد بلغ الخامسة والستين قعدت به السن عن الخروج فى تجارته واكتفى بدكان العطارة وشراء أنواع الطيب من القوافل التى كانت تعود من رحلة الشتاء من اليمن محملة بأنواع البخور ، وقد ظل بيته مفتوحا للضيف وعابر السبيل فأتى كرمه وكثرة عياله على ماله فنزل به الفقر ولم يحط ذلك من قدره ، فظل سيد بنى هاشم الذى إذا أشار لبى الهاشميون إشارته .

أناخ الفقر على دار أبي طالب بينا كانت دار العباس تزدهى بالغنى العريض ، فالتجار يأتون إليه من القبائل ليبتاعوا منه بعض التجارة ، وأصحاب الحاجات يقترضون منه بالربا ، وكان يختلف إلى اليمن يشترى العطر ويبيعه أيام الموسم ، وكان أبو لهب يعيش فى بحبوحة من العيش فقد كسب من التجارة أموالا كثيرة ، ولكنه كان مغرما بالشراب ولعب الميسر وكان يأخذه الحماس فى القمار فيقامر بمبالغ هائلة ، وكانت مغامراته تذهل الحاضرين .

وشب حمزة فارسا قد تحلى بأخلاق الفرسان ، يكسب كثيرا فيخرج

للصيد والقنص ويعين الملهوف بماله ويشد أزر الضعيف بساعده وسيفه ورمحه ، فكان يكره الظلم الاجتماعى الذى يقع على الأبدان والنفوس .

وكان الغيداق رجلا كريما أشبه أبناء عبد المطلب بأبيه ، فهو جواد كريم ، ولولا أن قريشا أطلقت على عبد المطلب الفياض لأنه كان يطعم الناس والوحوش فى الصحراء وجوارح الطير على قمم الجبال ، لكان الغيداق أحق أهل مكة بذلك الوصف .

وكان الزبير بن عبد المطلب يخرج فى قوافل قومه ، فلما ولى الشباب آثر مسامرة الشعراء ، فصارت شهوته فى أن يسمع الغاوين أشعاره أو يلقى السمع إلى شعر الفحول ، وكان معجبا بشعر أبى سفيان ابن أخيه الحارث ، فكان إذا ما أنشد أبو سفيان فى عكاظ كان الزبير يحس راحة وطمأنينة ؛ فإذا ما ذهب أبو طالب فى الغابرين وإذا ما انقضت أيامه هو وشعراء جيله من بنى هاشم فسيجد الهاشميون فى أبى سفيان بن الحارث خير مدافع عن قبيلته ، فما دار بخلد الزبير أن دولة الشعر يمكن أن تدول .

وكان الزبير يحب محمدا كما كان يحبه كل أعمامه وأبنائهم وكل من اتصل به من قريش ، وكان يحب فيه صدقه وجوده ومكارم أخلاقه ، ولكنه لم يكن يتصور أن محمدا يستطيع أن يذود عن شرف بنى هاشم بلسانه ، فما كان هجاء وما كانت القبائل تعمل حسابا إلا للهجائين ، ولكن محمدا ما تعلم الشعر وما ينبغى له ، وإن كان الناس لا يهيمون فى الوديان إلا وراء الشعراء ليسمعوا منهم وينقلوا ما يجودون عليهم به إلى القبائل فينتشر فى العرب .

وكان الزبير يحسب أن محمدا بزواجه من سيدة نساء قريش سيركن إلى الدعة ويستسلم للرفاهية ، وأنه سيتجنب المخاطر بعد أن أنجب زينب ورقية وأم كلثوم فالأموال فتنة والأبناء مجبنة ، وليس فى الحياة ما يستحق المخاطرة بعد

أن تستقر الأحوال المادية ويرزق المرء بقرة عينه ، فإن كانت خديجة لم ترزقه البنين فالأيام كفيلة بأن تجود عليهما بما يشتهيان فتتم لهما السعادة ، وتمضى الحياة ناعمة هانئة .

وكان أبو طالب يؤمن فى قرارة نفسه بأن محمدا بركة ، فقد قاسى قومه من الجفاف فاستسقى به كما فعل جده عبد المطلب من قبل فنزلت الأمطار ، وقد نظم أبو طالب شعرا يمتدح فيه شمائل ابن عبد الله ، ولكنه كان يؤمن بما يؤمن به أخوه الزبير ، فما كان يرى فى محمد المنافح عن القبيلة وشرفها ، فهو عف اللسان قد قطع علائقه بنادى قومه وآثر العزلة والاعتكاف والبعد عن حلقات الشعراء والظرفاء ، لم يرتفع له صوت فى الأسواق ولم يبد منه ميل للعنف ولا التنابذ بالألقاب ولا الفخر بحسبه ونسبه وقبيلته ، ولم يدع أبدا للأخذ بثأر ، ولم يؤجج نار البغضاء فى الصدور ؛ إنه داعية سلام وما كان أبو طالب يستطيع أن يتصور أن دعاة السلام يستطيعون أن يذبوا عن قبائلهم أو أن يرفعوا من شأنها .

ولم يكن فى قريش كلها من يعرف حقيقة مجاهدة محمد بن عبد الله لنفسه وصبره على العزلة وأنسه بربه وإشراق أنوار المعارف فى قلبه وأمال خديجة الروحية العريضة إلا صديقه وصفيه أبو بكر وورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، فإن كان محمد يتحنث فى غار حراء فى شهر رمضان فكثير من الحنفاء والمتدينين فى مكة يتحنثون مثله فى الغار ، وإن كان لا يسجد لصنم فالحنفاء الذين كانوا على ملة إبراهيم لا يسجدون للأصنام ، فالناس يحكمون بالظواهر ولا يعلم سر القلوب إلا عالم الغيب والشهادة العزيز المتعال .

ودخل محمد على عمه فى الدار فألفى طالبا وعقيلا وجعفرا عنده ، فلما رأوه تهللت وجوههم بالبشر ورنا إليه أبو طالب رنوة طويلة نزلت بردا

وسلاما على قلبه ، وإذا بما كان ينطق به كلما رأى محمدا يهجس فى نفسه رنين حلو جذاب : « ما أشبهه بعبد الله » فقد كان أبو طالب شقيق عبد الله وكانت رؤية ابن أخيه تذكره بذبيح قريش العزيز وتفجر العواطف الرقيقة من الفؤاد .

وكان أبو طالب يؤثر عقيلا بحبه ، وكان محمد يعرف هذه الحقيقة فأحبه لحب عمه إياه ، وكان كلما رآه ناداه بكنيته وقد كنى عقيلا بأبى يزيد ، وأقبل على عمه وأبناء عمه بكل جسمه ونفسه وراح يجاذبهم أطراف حديث عذب ، وكان وقع كلماته كالندى فى النفوس .

ودخلت زوجة عمه فاطمة بنت أسد وهى حامل فى شهرها الأخير ، فقام إليها يرحب بها من كل قلبه ويغمرها بعواطفه الصادقة ، فهو لا ينسى يتمه الذى مسحته فاطمة بفيض حبها ورعايتها ؛ كانت خير عوض عن آمنة وعبد المطلب .

وخرجت فاطمة لتطوف بالبيت تأهبا لأن تضع ما فى بطنها قبل أن تنقطع عن الطواف طوال مدة الوضع والنفاس فالغياب عن النظر إلى الكعبة يتعب نفس كل قرشى وقرشية اعتاد أن يديم النظر إليها كلما خرج فى الصباح أو آب فى المساء .

وخرجت من الدار وجاريتها فى أثرها وسارت الهوينى فى طرقات مكة الضيقة المسقوفة لتحمى المارة من لسعات الشمس الحامية ، وأحست ألما فى أحشائها وبالجنين يتحرك فى بطنها فخطر لها أن تعود إلى البيت ولكنها طردت ذلك الخاطر ، واشتدت لتتم الطواف ثم تئوب على عجل .

ووقعت عيناها على أخشبى مكة : جبل قبيس وهو يشرف على الصفا وجبل قعيقعان وهو يشرف على مكة ووجهه إلى قبيس ، فخيل إليها أن الجبلين

بل ومكة كلها تتراقص ، فاستندت على جاريتها واستمرت فى سيرها نحو الحرم وهى تعض على شفتيها .

وبلغت الكعبة وهى تتحامل على نفسها وعلى جاريتها ، وراحت تطوف حول البيت وهى تحس أنها تنوء وأن الدنيا كلها قد كسيت بسواد كسواد أستار الكعبة ، وضربها المخاض فطلبت من جاريتها فى صوت خافت أن تقودها إلى جوف الكعبة .

ودخلت فاطمة بنت أسد وجاريتها إلى حيث كان هبل منتصبا ومن حوله أصنام القبائل وأوثانها ، وقد ازدحم الرجال والنساء على يمين الداخل ليلقوا فى خزانة الكعبة الحلى والطيب وما تجود به أنفسهم من متاع قربانا للآلهة ، فهرعت الجارية إلى كاهن هبل ومالت إلى أذنه وأسرت إليه بكلمات وهى منفعلة تتلفت فى خوف إلى حيث وقفت سيدتها تنوء من حركة ذلك الذى يريد أن يخرج من بطنها ، فأسرع الكاهن يخرج كل من كانوا فى جوف الحرم ووقف على باب الكعبة يمنع الناس من الدخول .

ووضعت الجارية قطعا من الآدم تحت سيدتها وغطتها بغطاء كانت تلتف به ، فما كان للكعبة سقف يحمى فاطمة من الشمس والهواء ، ومرت لحظات من القلق والألم ثم وضعت فاطمة غلاما جميلا تلقته الجارية بين يديها فرحة مستبشرة ، حتى إنها ذهلت به عن أن تلتفت إلى الأصنام التى تكدست فى جوف الكعبة لتحمدها على سلامة سيدتها وتشكرها على ما أعطت .

وتردد صياح الطفل أول ما تردد فى جنبات بيت الله . ووقعت عيناه أول ما وقعت على سماء الله ، ولو درى الكاهن الواقف عند الباب خطورة ذلك المولود على آلهتة ومعتقداته لهشم رأسه اللين أو شد على خناقه بأصابعه حتى يفارق الحياة ، ولكنه لو هم لما قدر فقد كان فى رعاية رب البيت ، رب

العالمين .

وعادت فاطمة إلى الدار شاحبة اللون وإلى جوارها جاريتها وهى تحمل المولود على ذراعيها وتضمه على صدرها فى حرص ، فلما رأى أبو طالب وأبناؤه ومحمد دخول السيدة الكريمة هرعوا إليها وأسندوها فى رفق وساروا بها حتى وضعوها فى سريرها ، وارتفع عويل الطفل فجاءوا له بمرضعة حاولت أن تلقمه ثديها فأبى واستمر فى البكاء ، فجاءوا له بأخرى فأبى أن يأخذ ثديها وظل مستمرا فى عويله ، فرق له قلب محمد فتناوله وضمه إلى صدره فى حنان ، فإذا بالوليد يخشع ويكف عن البكاء .

والتفت أبو طالب إلى ابن أخيه وقال :

ـــ ماذا نسميه ؟

فقال محمد وهو ينظر إلى وجه الطفل القابع فى أحضانه كملاك :

ـــ عليا .

وألقى الله فى قلب محمد حب على بن أبى طالب ، فكان يذهب إلى دار عمه ليناغى الصبى ويداعبه فأحبه حبه زينب ورقية وأم كلثوم وهند بن خديجة وزيد بن شراحيل بل أشد ، ومرت الأيام وأصابت قريشا أزمة شديدة قاسى منها أبو طالب وكان ذا عيال كثير ، وفطن محمد إلى ضيق الشيخ فذهب إلى عمه العباس وكان من أيسر بنى هاشم وقال له :

ـــ يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه عياله ، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه .

فقال العباس :

ـــ نعم .

فانطلقا حتى لقيا أبا طالب فقالا له :

ـــ إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

فقال لهما أبو طالب :

ـــ إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما .

فأخذ محمد عليا فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه ، وكان مما أنعم الله به على على بن أبى طالب أنه كان فى حجر محمد بن عبد الله .

٢٨

كان عدى بن زيد قد احتال حتى جعل كسرى أنوشروان يولى النعمان بن المنذر أمر الحيرة ، وقد حقد عليه لذلك عدى بن مرينا فقد كان يرى أن صاحبه الأسود بن المنذر أحق بالولاية من أخيه ، ولم ينس ابن مرينا ما فعل ابن زيد فراح يتربص به الدوائر وينتظر فرصة سانحة ليثأر منه .

وتزوج عدى بن زيد هند ابنة النعمان ، وعلا شأن النعمان وأصبح قبلة قبائل العرب يفدون إليه يلتمسون ما عنده وقد توطدت صداقات بينه وبين سادات العرب وشعرائهم ، وكان ابن مرينا كثير المال والضيعة ، فلم يكن فى الدهر يوم يأتى إلا على باب النعمان هدية من ابن مرينا ، فصار من أكرم الناس عليه حتى كان لا يقضى فى ملكه شيئا إلا بأمر ابن مرينا ، وكان إذا ذكر عدى بن زيد عند النعمان أحسن الثناء عليه وأتبع ذلك بأن يقول : إن عدى بن زيد فيه مكر وخديعة والمعدِّى لا يصلح إلا هكذا .

فلما رأى من يطيف بالنعمان منزلة ابن مرينا عنده لزموه وتابعوه فجعل يقول لمن يثق به من أصحابه : إذا رأيتمونى أذكر عديا عند الملك بخير فقولوا : إنه لكذلك ، ولكنه لا يَسلم عليه أحد ، إنه ليقول إن النعمان عامله وأنه هو ولاه ما ولاه ، فلم يزالوا بذلك حتى أضغنوه عليه .

وصنع عدى بن زيد ذات يوم طعاما للنعمان وسأله أن يركب إليه ويتغذى عنده هو وأصحابه ، فركب النعمان إليه فاعترضه عدى بن مرينا فاحتبسه حتى تغذى عنده هو وأصحابه وشربوا حتى ثملوا ، ثم ركب إلى عدى ولا فضل

فيه فأحفظه ذلك ورأى فى وجه عدى الكراهة ، فقام فركب ورجع إلى منزله .

وأطرق عدى بن زيد يتذكر أول يوم قدم فيه على النعمان قبل أن ينطلق به إلى قصر كسرى . صادفه لا مال عنده ولا أثاث ولا ما يصلح للملك ، وكان آدم إخوته منظرا وكلهم أكثر مالا منه . وراح الحوار الذى دار بينه وبين النعمان يرن فى أغواره :

ـــ كيف أصنع بك ولا مال عندك !

ـــ ما أعرف لك حيلة إلا ما تعرفه أنت .

ـــ قم بنا نمض إلى ابن قردس .

ورأى بعين خياله وهما ينطلقان إلى الرجل حتى أتياه ليقترضا منه مالا ، فأبى أن يقرضهما وقال :

ـــ ما عندى شىء .

فأتيا جابر بن شمعون الأسقف أحد بنى الأوس بن قلام فاستقرضا منه مالا ، فأنزلهما عنده ثلاثة أيام يذبح لهما ويسقيهما الخمر ، فلما كان اليوم الرابع قال لهما :

ـــ ماذا تريدان ؟

فقال له عدى :

ـــ تقرضنا أربعين ألف درهم يستعين بها النعمان على أمره عند كسرى .

فقال لهما :

ـــ لكما عندى ثمانون ألفا .

فقال النعمان لجابر :

ـــ لا جرم لا جرى لى درهم إلا على يديك إن أنا ملكت .

وقد وفى النعمان لجابر فهو صاحب القصر الأبيض فى الحيرة ، فما باله يفضل ابن مرينا عليه ؟ وغضب عدى بن زيد وانفعل ، فقال مخاطبا النعمان :

أحسِبْتَ مجلسنا وحسـ ـن حديثنا يودى بمالك
فالمال والأهلون مصـ ـرعة لأمرك أو نكالك
ما تأمُرَنْ فينا فأمـ ـرك فى يمينك أو شمالك

ورأى ابن مرينا أن الجفاء قد وقع بين النعمان وعدى بن زيد فرأى أن يجهز على عدوه ، فكتب كتابا على لسان ابن زيد إلى قهرمان له (أمين الملك) ثم دسه إليه واحتال حتى أخذ الكتاب منه وأتى به النعمان فقرأه فاشتد غضبه ، فأرسل إلى عدى بن زيد :

— عزمت عليك إلا زرتنى فإنى قد اشتقت إلى رؤيتك .

كان عدى بن زيد يومئذ عند كسرى فاستأذن كسرى فأذن له ، فلما أتاه لم ينظر إليه حتى حبسه فى محبس لا يدخل عليه فيه أحد ، فجعل عدى يقول الشعر وهو فى الحبس :

ليت شعرى عن الهمام ويأتيـ
ـك بِخُبْر لأنباء عطف السؤال
أين عنا إخطارنا المال والأنفـ
ـسَ إذا ناهدوا اليوم المحال[1]
ونضالى فى جنبك الناس يرمو
ن وأرمى وكلنا غير آلى[2]

---

(١) الكيد والمكر .

(٢) غير مقصر .

فأصيب الذى تريد بلاغى
وأرى عليهمُ وأوالى
ليت أنى أخذت حتفى بكفى
ولم ألق ميتة الأقتال[١]
محلوا محلهم لصرعتنا العا
م فقد أوقعوا الرّحا بالثقال

وراح عدى بن زيد يرسل إلى النعمان قصائده فلا تغنى عنده شيئا ، فلما طال سجنه كتب إلى أخيه أبىّ وهو مع كسرى بهذا الشعر :

أبلغ أبيًّا على نأيه وهل ينفع المرء ما قد علم
بأن أخاك شقيق الفؤا دكنت به واثقا ما سلم
لدى ملك موثق فى الحديد إما بحق وإما ظلم
فلا أعرفنك كذات الغلام[٢] ما لم يجد عارما[٣] تعترم
فأرضك أرضك إن تأتنا تنم نومة ليس فيها حلم

فلما قرأ أبىّ كتاب عدى قام إلى كسرى فكلمه فى أمره وعرفه خبره ، فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه وبعث معه رجلا .

وعرف أعداء عدى أن كسرى قد كتب إلى النعمان فى أمره فجاءوا إلى النعمان وقالوا له :

ـــ اقتله الساعة .

---

(١) الأعداء .
(٢) الأم المرضع .
(٣) راضعا .

فأبى عليهم . وجاء الرسول وقد كان أخو عدى تقدم إليه ورشاه وأمره أن يبدأ بعدى فيدخل إليه وهو محبوس ، فقال له : « ادخل عليه وانظر ما يأمرك به فامتثله ، فدخل الرسول على عدى فقال له :

— إنى قد جئتك برسالة ، فما عندك ؟

— عندى الذى تحب .

فوعده بعدة سنية وقال له :

— لا تخرجن من عندى وأعطنى الكتاب حتى أرسله إليه ، فإنك والله إن خرجت من عندى لأقتلن .

— لا أستطيع إلا أن آتى الملك بالكتاب فأوصله إليه .

فانطلق بعض من كان هناك من أعدائه فاخبر النعمان أن رسول كسرى دخل على عدى وهو ذاهب به ، وإن فعل والله لم يستبق منا أحداأنت ولا غيرك ، فبعث إليه النعمان أعداءه فغمُّوه حتى مات ثم دفنوه .

ودخل الرسول إلى النعمان فأوصل الكتاب إليه ، فقال :

— نعم وكرامة .

وأمر له بأربعة آلاف مثقال ذهبا وجارية حسناء وقال له :

— إذا أصبحت فادخل أنت بنفسك فأخرجه .

فلما أصبح ركب فدخل السجن فأعلمه الحرس أنه مات منذ أيام ، ولم نجترىء على إخبار الملك خوفا منه وقد عرفنا كراهته لموته .

فرجع إلى النعمان وقال له :

— إنى كنت أمس دخلت على عدى وهو حى ، وجئت اليوم فجحدنى السجان وبهتنى وذكر أنه قد مات منذ أيام .

فقال له النعمان :

— أيبعث بك الملك إلى وتدخل إليه قبلى ! كذبت ولكنك أردت الرشوة والخبث .

فتهدده ثم زاده جائزة وأكرمه وتوثق منه ألا يخبر كسرى إلا أنه قد مات قبل أن يقدم عليه . فرجع الرسول إلى كسرى وقال :

— إنى وجدت عديا قد مات قبل أن أدخل عليه .

وندم النعمان على قتل عدى وعرف أنه احتيل عليه فى أمره ، واجترأ أعداؤه عليه وهابهم هيبة شديدة ، ثم إنه خرج إلى صيده ذات يوم فلقى ابنا لعدى يقال له زيد ، فلما رآه عرف شبهه فقال له :

— من انت ؟

فقال :

— أنا زيد بن عدى بن زيد .

فكلمه فإذا غلام ظريف ففرح به فرحا شديدا وقربه وأعطاه ووصله واعتذر إليه من أمر أبيه ، وأعد له معدات السفر ثم كتب إلى كسرى :

— إن عديا كان ممن أعين به الملكُ فى نصحه ولبه فأصابه ما لا بد منه وانقطعت مدته وانقضى أجله ، ولم يصب به أحد أشد من مصيبتى . وأما الملك فلم يكن ليفقد رجلا إلا جعل الله له منه خلفا لما عظم الله من ملكه وشأنه ، وقد بلغ ابن له ليس بدونه رأيته يصلح لخدمة الملك فسرحته إليه ، فإن رأى الملك أن يجعله مكان أبيه فليفعل وليصرف عمَّه عن ذلك إلى مكان آخر .

وصار زيد بن عدى يلى المكاتبة عن الملك إلى ملوك العرب فى أمورها وفى خواص أمور الملك ، وكانت له من العرب وظيفة موظَّفة فى كل سنة : مهران أشقران يجعلان له هلاما (مرق لحم يطبخ بخل) والكمأة الرطبة فى حينها

واليابسة والأقِط والأدم وسائر تجارات العرب .

فلما وقع زيد بن عدى عند الملك هذا الموقع سأله كسرى عن النعمان فأحسن الثناء عليه ، ومكث على ذلك سنوات على الأمر الذى كان أبوه عليه ، وأعجب به كسرى فكان يكثر الدخول عليه والخدمة له .

وكانت لملوك العجم صفة من النساء مكتوبة عندهم فكانوا يبعثون فى تلك الأرضين بتلك الصفة ، فإذا وجدت حملت إلى الملك غير أنهم لم يكونوا يطلبونها فى أرض العرب ولا يظنونها عندهم ، ثم إنه بدا للملك فى طلب تلك الصفة وأمر فكتب بها إلى النواحى ، ودخل إليه زيد بن عدى وهو فى ذلك القول فخاطبه فيما دخل إليه فيه ، ثم قال :

— إنى رأيت الملك قد كتب فى نسوة يُطلَبن له وقرأت الصفة وقد كنت بآل المنذر عارفا ، وعند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة .

— فاكتب فيهم .

فقال زيد بن عدى فى دهاء :

— أيها الملك أن شر شىء فى العرب وفى النعمان خاصة أنهم يتكرمون — زعموا فى أنفسهم — عن العجم ، فأنا أكره أن يغيبهن عمن تبعث إليه أو يعرض عليه غيرهن ، وإن قدمت أنا عليه لم يقدر على ذلك ، فابعثنى وابعث معى رجلا من ثقاتك يفهم العربية حتى أبلغ ما تحبه .

فبعث معه رجلا جلدا فهما فخرج به زيد ، فجعل يكرم الرجل ويلطفه حتى بلغ الحيرة ، فلما دخل على النعمان أعظم الملك وقال :

— إنه قد احتاج إلى نساء لنفسه وولده وأهل بيته وأراد كرامتك بصهره فبعث إليك .

فقال النعمان :

ــ ما هؤلاء النسوة ؟

قال زيد :

ــ هذه صفتهن قد جئنا بها .

وكانت الصفة أن المنذر الأكبر أهدى أنوشروان جارية كان أصابها إذ أغار على الحارث الأكبر بن أبي شمر الغسانى ، فكتب إلى أنوشروان بصفتها وقال : إنى قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ، بيضاء قمراء وطفاء كحلاء دعجاء حوراء عيناء قنواء شماء برحاء زجاء ، أسيلة الخد شهية المقبَّل جثلة الشعر عظيمة الهامة بعيدة مهوى القرط ، عيطاء عريضة الصدر كاعب الثدى ضخمة مُشاش المنكب والعضد حسنة المعصم لطيفة الكف سبطة البنان ، ضامرة البطن خميصة الخصر ، غرثَى الوشاح رداح الأقبال رابية الكفل لفَّاء الفخذين ريا الروادف ضخمة المأكمتين مفعمة الساق ، مشبعة الخلخال لطيفة الكعب والقدم قطوف المشى مكسال الضحى بضة المتجرد ، سموعا للسيد ليست بخنساء ولا سعفاء ، رقيقة الأنف عزيزة النفس لم تغذ فى بؤس ، حيية رزينة حليمة ركينة ، كريمة الخال تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها ، وتستغنى بفصيلتها دون جماع قبيلتها ، قد أحكمتها الأمور فى الأدب فرأيها رأى أهل الشرف وعملها عمل أهل الحاجة ، صناع الكفين قطيعة اللسان رهوة الصوت ساكنة ، تزين الولى وتشين العدو ، إن أردتها اشتهت ، وإن تركتها انتهت ، تحملق عيناها وتحمر وجنتاها وتذبذب شفتاها ، وتبادرك الوثبة إذا قمت ولا تجلس إلا بأمرك إذا جلست .

قرأ زيد هذه الصفة على النعمان فشقت عليه ، وقال لزيد والرسول يسمع :

ــ أما فى مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته !

فقال الرسول لزيد بالفارسية :

ــ ما المها والعين ؟

فقال له بالفارسية :

ــ كاوان (أى البقر) .

فأمسك الرسول وقال زيد للنعمان :

ــ إنما أراد الملك كرامتك ، ولو علم أن هذا يشق عليك لم يكتب إليك به .

فأنزلهما يومين عنده ثم كتب إلى كسرى .

ــ إن الذى طلب الملك ليس عندى .

وقال لزيد :

ــ اعذرنى عند الملك .

فلما رجعا إلى كسرى قال زيد للرسول الذى قدم معه :

ــ أصدق الملك عما سمعت فإنى سأحدثه بمثل حديثك ولا أخالفك فيه .

فلما دخلا على كسرى قال زيد :

ــ هذا كتابه إليك .

فقرأه عليه فقال له كسرى :

ــ وأين الذى كنت خبرتنى به ؟

ــ كنت خبرتك بضنّتهم بنسائهم على غيرهم ، وإن ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعرى على الشبع والرياش ، وإيثارهم السموم والرياح على طيب أرضك هذه حتى إنهم ليسمونها السجن ، فسل هذا الرسول الذى كان معى عما قال فإنى أكرم الملك عن مشافهته بما قال وأجاب .

قال للرسول :

— وما قال ؟

فقال له الرسول :

— أيها الملك إنه قال : أما كان فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا !

فعرف الغضب فى وجهه ووقع فى قلبه منه ما وقع ، لكنه لم يزد على أن قال :

— رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم حار أمره إلى التباب (الهلاك) .

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان ، وسكت كسرى أشهرا على ذلك وجعل النعمان يستعد ويتوقع حتى أتاه كتابه : أن أقبل فإن للملك حاجة إليك . فانطلق حين أتاه كتابه فحمل سلاحه وما قوى عليه ثم لحق بجبل طىء ، وكانت فرعة بنت سعد بن حارثة بن لأم عنده وقد ولدت رجلا وامرأة ، وكانت أيضا عنده زينب بنت أوس بن حارثة ، فأراد النعمان طيئا على أن يدخلوه الجبلين ويمنعوه ، فأبوا ذلك عليه وقالوا له :

— لولا صهرك لقتلناك ، فإنه لا حاجة بنا إلى معاداة كسرى ولا طاقة لنا به .

وأقبل يطوف على قبائل العرب ليس أحد منهم يقبله ، غير أن بني رواحة بن قطيعة بن عبس قالوا :

— إن شئت قاتلنا معك .

لمنّة كانت له عندهم ، قال :

— ما أحب أن أهلككم فإنه لا طاقة لكم بكسرى .

فأقبل حتى نزل بذى قار فى بنى شيبان سرا ، فلقى هانىء بن مسعود من بنى شيبان وكان سيدا منيعا ، فاستجار بهانىء فأجاره وقال له :

— قد لزمنى ذمامك وأنا مانعك مما أمنع نفسى وأهلى وولدى منه ما بقى من عشيرتى الأدنين رجل ، وإن ذلك غير نافعك لأنه مهلكى ومهلكك ، وعندى رأى لك لستُ أشير به عليك لأدفعك عما تريد من مجاورتى ولكنه الصواب ، فقال :

— هاته .

— إن كل أمر يجمل بالرجال أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة ، والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريما خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد المُلك ، هذا إن بقيت . فامض إلى صاحبك وأرسل إليه هدايا ومالا وألق نفسك بين يديه ، فأما إن صفح عنك قعدت ملكا عزيزا ، وإما إن أصابك فالموت خير من أن يتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها وتأكل مالك وتعيش فقيرا مجاورا أو تقتل مقهورا .

— كيف بحُرمى ؟

— هن فى ذمتى لا يُخلص إليهن حتى يُخلص إلى بناتى .

— هذا وأبيك الرأى الصحيح ولن أجاوزه .

ثم اختار خيلا وحُللا عَصب[1] اليمن وجوهرا وطرفا كانت عنده ووجه بها إلى كسرى ، وكتب إليه يعتذر ويعلمه أنه صائر إليه ، ووجه بها مع رسوله فقبلها كسرى وأمره بالقدوم ، فعاد إليه ،

---

(١) ضرب من برود اليمن يعصب غزله أى يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج ، فيأتى موشيا لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ .

الرسول فأخبره بذلك وأنه لم ير له عند كسرى سوءا ، فمضى إليه حتى إذا ما وصل إلى المدائن لقيه زيد بن عدى على قنطرة ساباط فقال له :

ــ انج نعيم إن استطعت النجاة .

فقال له النعمان فى غيظ :

ــ أفعلتها يا زيد ! أما والله لئن عشت لك لأقتلنك قِتلة لم يُقتلها عربى قط ولألحقنك بأبيك !

فقال له زيد :

ــ امض لشأنك نعيم فقد والله أخَّيت لك أخِية لا يقطعها المهر الأرن (النشيط) .

فلما بلغ كسرى أنه بالباب بعث إليه فقيَّده ، وبعث به إلى سجن كان له بخانقين فلم يزل فيه حتى وقع الطاعون هناك فمات .

وحزن النابغة على النعمان بن المنذر وقال :

من يطلب الدهر تدركه مخالبه
والدهر بالوِتر ناج غير مطلوب
ما من أناس ذوى مجد ومَكرُمة
إلا يشد عليهم شِدة الذيب
حتى يُبيد على عمد سراتهم
بالنافذات من النَّبل المصابيب
إنى وجدت سهام الموت معرضة
بكل حتف من الآجال مكتوب

وألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخميين وولت من قبلها حاكما

فارسيا يخضع له أمراء العرب ، وقد نزل بقلوب الذين يشدون الرحال إلى قصر الخورنق هم ثقيل وحسبوا أن عز العرب قد زال من الحيرة ، ولو رفعت أستار الغيب لرأوا أتباع محمد بن عبد الله يتدفقون إليها غازين منتصرين بعد ثلاثين سنة من ذلك اليوم الذى حزنوا فيه على ضياع ملك العرب .

٢٩

راحت امرأة تبخر الكعبة وهى تتلو الأدعية وتبتهل إلى الآلهة فطارت شرارة فى ثياب الكعبة ما لبثت أن سرت فتأججت النيران فى الكسوة وتراقصت ألسنتها ، فهرع الناس إلى الحرم مفزوعين واجتهدوا فى إخماد النار وقد نزلت فى قلوبهم رهبة ، خشية أن تثأر الآلهة منهم لما نال البيت المقدس .

وأقبل سادات قريش يفحصون عن البيت فوجدوا أن جدرانه قد أصابها الوهن من الحريق ، وفى دار الندوة أداروا الرأى بينهم فاستقر رأيهم على أن يدعوا البيت على حاله وأن يكتفوا بكسوته كسوة جديدة ، وأن يقدموا القرابين تسكينا لغضب الآلهة .

وجاء الشتاء وإذا بأمطار غزيرة تهطل على جبال مكة فتجرى سيولا إلى وديانها تقتلع الأشجار وتجرف الحجارة وترتفع من فوق الردم الذى صنعوه ليصون البيت الحرام من السيل ويمنعه ، فتدفقت المياه إلى الكعبة وسالت فى شوارع مكة وطرقاتها .

وأشرقت السماء بعد بكائها وغاض الماء وخف الناس إلى بيتهم المقدس الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا وقد انتشر بين جنوبهم خوف وقلق ، فلما رأوا ما حاق بالبيت زاد خوفهم وربا قلقهم فقد ألفوا جدران الكعبة قد تصدعت بعد توهينها من الحريق الذى أصابها ، فقد كانوا على علم بأن ذلك البيت لو ذهب لذهبت مكة بل لذهبت ريح العرب .

واجتمع أشراف قريش يقلبون الرأى حتى انتهى أمرهم إلى ضرورة هدمها

وإعادة بنائها ، وأن يشيدوا بنيانها ويرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا .
ووافقوا على ما انتهوا إليه ولكن من أين لهم الأخشاب والنجارون والبناءون والمهندسون الذين يقومون بهذا العمل ويشرفون على تنفيذه ؟

كان إمبراطور الروم قد أرسل سفينة محملة بالرخام والخشب والحديد سرحها مع باقوم المهندس الرومى إلى الكنيسة التى حرقها الفرس بالحبشة ليعيد بناءها تقربا لربه وكسبا لود الأحباش الذين كانوا على النصرانية ، وكانوا على حدود مملكة اليمن التى احتلها الفرس وطردوا منها حلفاءه ، فقد كانت تراوده فكرة مناوءة الفرس هناك، وتحريض الحبشة على إعادة غزو اليمن لفتح جبهة ثانية فى الحرب المشتعلة الأوار بين الإمبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم .

كانت السفينة تمخر عباب البحر الأحمر حتى إذا ما بلغت جدة — ساحل مكة — بعث الله عليها ريحا فاضطربت اضطرابا شديدا ، وألقى الرعب فى قلب قبطانها فأراد أن يحتمى بالشاطىء فاندفع إليه والسفينة تتماوج مع الريح وقد فقد سيطرته عليها ، فإذا بها ترتطم بالصخور وإذا بأصوات من عليها من نجارين وحدادين وبنائين وبحارة تشق أجواز السماء رعبا وإذا بهم يلقون بأنفسهم فى البحر التماسا للنجاة ، وجنحت السفينة ثم استقرت على الصخور حطاما .

وجاء الخبر إلى مكة أن سفينة رومية محملة بالرخام والأخشاب والنجارين والحدادين والبنائين قد كسرتها الرياح وأنها راقدة هناك على الساحل ، فاستبشر المكيون وأحسوا أن ذلك رزق ساقه الله إليهم وأنه برهان على رضاه على ما عقدوا عليه النية .

وقام أبو وهب عمرو بن عائذ خال عبد الله بن عبد المطلب وكان شريفا

فى قومه ، وقال :

ـــ لا تدخلوا فى نفقة هذا البيت مهر بغى ولا بيع ربا ، ولا تجعلوا فيه شيئا أصبتموه ولا قطعتم فيه رحما ولا انتهكتم فيه حرمة بينكم وبين أحد من الناس .

واجتمعت القبائل لهدم بيتهم المقدس فهابوا هدمه وفرقوا منه خشية أن ينزل رب البيت بهم بلاء ، فقام الوليد بن المغيرة وقال لهم :

ـــ أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟

قالوا فى أصوات مضطربة :

ـــ بل نريد الإصلاح .

قال فى ثبات :

ـــ فإن الله لا يهلك المصلحين .

قالوا وهم يتلفتون :

ـــ من الذى يعلوها فيهدمها ؟

قال فى شجاعة :

ـــ أنا أعلوها وأنا أبدؤكم فى هدمها .

فأخذ المعول ، ثم قام عليها والقلوب واجفة والنظرات زائغة وقد تأهبوا جميعا للفرار إذا ما بدا أن الله سينزل غضبه على من جرؤ على هدم بيته ، ووقف خالد بن الوليد ينظر إلى أبيه فى إعجاب وإكبار فقد ورث عنه الشجاعة وثبات الجنان .

ورفع المعول ثم هدم من ناحية الركنين وقد كتم الناس أنفاسهم فى إشفاق وحذر ، ثم قال :

ـــ اللهم لا ترع ، لا نريد إلا الخير .

ورفع المعول ثم هدم من ناحية الركنين ، وقد كتم الناس أنفاسهم وأرهفت

مشاعرهم وراحوا يتلفتون ويترقبون ما سيحيق بالوليد من انتقام ، وانقضى النهار وانصرف الوليد إلى داره وانصرف الناس إلى دورهم يتربصون تلك الليلة وقالوا :

— ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء هدمناها ، فقد رضى الله ما صنعنا .

لم تعرف مكة النوم فى تلك الليلة ، كانت الأنظار متجهة إلى بيت الوليد والقلوب تعلقت به والآذان مرهفة تحصى ما يدور فيه من أصوات فقد يرتفع منه فى سكون الليل صوت الناعى ليكون لهم نذيرا ، فأهل مكة كانوا يرتجفون خشية أن ينزل بهم العذاب .

فأصبح الوليد من ليلته غاديا إلى عمله فقام على الكعبة وراح يعمل المعول فيها ، فاطمأن الناس إلى أن الله قد رضى عن عملهم وعادت الثقة إلى نفوسهم فراحوا يهدمون معه حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس : أساس إبراهيم ، فإذا بحجارة خضرة كأسنمة الإبل أخذ بعضها ببعض ، فأدخل رجل ممن كان يهدم عتلته بين حجرين منها ليقلع بها بعضها ، فلم يتحرك الحجر وبدا كأن مكة قد تحركت بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس .

ووجدت قريش فى الركن كتابا بالسريانية فلم يدر ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا هو : « من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة ، تعملون السيئات فكيف تجزون الحسنات ، أجل (نعم) لا يجنى من الشوك العنب » .

وخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى السفينة التى تحطمت على ساحل مكة فابتاعوا خشبها وعادوا بباقوم ومن معه من النجارين والحدادين إلى مكة ، فلما دخلوا الحرم راح باقوم يقلب بصره فى أصنام القوم التى

أخرجت من الكعبة فى حرص شديد ، فلم تثر دهشته فما أكثر التماثيل التى رآها فى شوارع القسطنطينية وفى ميادينها وفى كنائسها .

ورأى أبو وهب عمرو بن عائذ أن يجزىء العمل فقال لقريش :

— إنى أرى أن يقسموا أربعة أرباع .

فكان شق الباب لعبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركنين الأسود واليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وبنى سهم بن عمرو ، وكان الجانب الذى فيه الحجر لبنى عبد الدار ولبنى أسد ولبنى عدى .

وخف شباب مكة ورجالها وشيوخها ليسهموا فى بناء بيت الله فذهب محمد والعباس ورجال بنى هاشم ينقلون الحجارة ، واجتهد بنو مخزوم فى العمل فسيدهم الوليد بن المغيرة له اليد الطولى فى إتمام أجرأ عمل قامت به قريش .

وارتفع البناء وكان مدماكا من خشب الساج ومدماكا من الحجارة ، فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختصموا ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، واشتد الجدل بينهم ولجوا فى الخصام حتى كادت الحرب تنشب أظفارها فيهم ، ومكث النزاع بينهم أربع ليال ثم اجتمعوا فى المسجد الحرام وقال أبو أمية بن المغيرة وهو حذيفة والد أم سلمة ، وكان أسن قريش كلها وكان من أزواد[1] الركب :

— يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب

---

(١) أزواد الركب : مسافر بن أبى عمرو ، وزمعة بن الأسود ، وأبو أمية بن المغيرة لأنه لم يكن يتزود معهم أحد فى سفر يطعمونه ويكفونه الزاد .

الصفا يقضى بينكم .

وتعلقت العيون بباب الصفا ، الباب المقابل لما بين الركنين اليمانى والأسود ، ومرت لحظات ترقب وانتظار ثم لاح القادم لعيونهم فقالوا فى استبشار .

— هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

كانوا يتحاكمون إليه فى الجاهلية فهو دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ، زكى الله فؤاده ولسانه وجوارحه ، فكان إذا قضى ارتضوا حكمه فقد عرف عنه العدل وعدم الميل مع الهوى ، لا يخشى فى الحق لومة لائم .

وكان راجح العقل سديد الرأى ، ما أن قصوا عليه ما اختلفوا فيه حتى نفث فى روعه الفكرة التى ترضى القبائل كلها وتحقن دماءهم فالتفت إليهم وقال :

— هلم إلىَّ ثوبا .

فجاءوا له بثوب الوليد بن المغيرة فبسطه فى الأرض وكان كساء أبيض من متاع الشام ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال :

— لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا .

فسر القوم بحكمه وانبسطت الأسارير ولاح فى الوجوه الرضا ، فقد حقن ابن عبد الله بحكمه السديد دماء قريش وأبقى على وحدتها ، فكان فى ربع مناف عتبة بن ربيعة ، وكان فى الربع الثانى زمعة ، وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وكان فى الرابع قيس بن عدى .

ورفع الثوب فى حرص ورفق وقد تعلقت أعين الناس بالحجر المقدس ،

حتى إذا بلغوا به موضعه تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه ، وذهب رجل من أهل نجد ليناول محمدا حجرا يشد به الركن فقال العباس فى حدة :

— لا .

وأسرع العباس وناول ابن أخيه ما شد به الركن فغضب النجدى ، وقد دفعه غضبه إلى محاولة إيغار صدور القوم على محمد وعمه فقال :

— واعجبا لقوم أهل شرف وعقول وأموال عمدوا إلى رجل أصغرهم سنا وأقلهم مالا فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له .

ولم ينفعل الناس بكلام ذلك الحاقد ، وارتفع البنيان وجعلوا للبيت سقفا ، وإن اقتصروا عن قواعد إبراهيم عليه السلام حين عجزت بهم النفقة فأخرجوا حجر إسماعيل منه .

وراح الرسامون يرسمون على حيطان الكعبة من الداخل صورا تمثل معتقداتهم ، صوروا إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام ، وإسماعيل وفى يده الأزلام ، والملائكة ومريم العذراء وهى تحمل المسيح ، وكانت صور الملائكة ومريم من صنع الروم ، فيا طالما زينت كنائسهم بتلك الصور .

وكساها زعماؤهم أرديتهم وكانت من الوصائل ، ثم أعادوا الآلهة فى حرص شديد إلى حيث كانت والدعوات تنبعث حارة من صدورهم والدموع تسيل على خدودهم ودماء القرابين تجرى بين أساف ونائلة أنهارا ، شكرا للآلهة ، وبقيت الأصنام غارقة فى الصمت تنتظر مجىء الحق ليزهق باطلهم .

وعاد الناس للتمسح بأوثانهم ، واعتزل محمد قومه واعتكف فى حجرة عبادته يذكر الله وهو يرجو أن يتعرض لنفحات ربه ونزول الرحمة على قلبه وإشراق أنوار المعارف فى باطنه ، فقد ألهم أن القلب ملك وأن الجوارح

جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده .

٣٠

تصرمت أيام الأسواق وتدفقت القبائل إلى مكة لتأدية مناسك الحج ، وانسابت قريش لتطوف بالبيت وقد رفع رجالها ونساؤها وولدانها رءوسهم فقد كانوا يعرفون مقامهم فى القوم بل كانت كل بطن من بطونها تستشعر مكانتها ، فعبدمناف عزها ، وأسد ركنها وعضدها ، وعبد الدار رئتها وأوائلها ، وعدى جناحاها ، وزهرة كبدها ، ومخزوم ريحانتها وأراكتها ، وجمح وسهم عديدها ، وعامر ليوثها وفرسانها ، والناس تبع لقريش وقريش تبع لولد قصى .

وانطلق الحمس وهم قريش وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ومدلج وعدوان والحرث بن مناة وعضل ليقفوا بالمزدلفة لا يتجاوزونها ، فهم أهل الحرم لا ينبغى أن يقدسوا شيئا تقديسهم للحرم ، فلو خرجوا إلى عرفة كما يخرج الحلة وهم سائر العرب ، لكان ذلك تقديسا لغير الحرم .

وكان محمد بن عبد الله يرى أن الحج عرفة ، فذهب مع الناس إلى عرفة مخالفا أهل مكة ، وكان معه زيد بن حارثه فى أهل بيته فعرفه بعض قومه ، فذهب إليه وقال له :

ــ من أنت يا غلام ؟

ــ من أهل مكة .

ــ من أنفسهم ؟

ـــ لا .

ـــ فحر أنت أم مملوك ؟

ـــ مملوك .

ـــ عربى أنت أم أعجمى ؟

ـــ بل عربى .

ـــ من أهلك ؟

ـــ من كلب .

ـــ من أى كلب ؟

ـــ من بنى عبد ود .

ـــ ويحك ! ابن من أنت ؟

ـــ ابن حارثة بن شراحيل .

ـــ وأين أصبت ؟

ـــ فى أخوالى .

ـــ ومن أخوالك ؟

ـــ طيىء .

ـــ ما اسم أمك ؟

ـــ سُعدى .

وراح الرجل ينشد لزيد شعر أبيه حين فقده :

بكيت على زيـد ولم أدر مـا فعـل
أحى فيرجـى أم أتى دونـه الأجـل

واستمر الرجل فى انشاده وزيد مطرق الرأس تتصارعه عواطف متباينة ، حتى إذا ما انتهى الرجل قال زيد :

أحـن إلى أهلي وإن كـنـت نائيـا
بـأني قعيـد البـيت عنـد المشاعـر
فكفوا عن الوجد الـذي قـد شجـاكم
ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر[1]
فـإني بحمـد الله في خير أسرة
كـرام معـد كابـرا بعـد كابـر

وكانت صوفة ترفع بالناس من عرفة وتجيز لهم إذا نفروا من منى ، فإذا كان يوم النفر وأتوا لرمي الجمار قام رجل من صوفة يرمي للناس لا يرمون حتى يرمي ، فكان ذوو الحاجات المستعجلون يأتونه فيقولون له :

— قم فارم حتى نرمي معك .

فيقول :

— لا والله حتى تميل الشمس .

فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له :

— ويلك ؟ قم فارم .

فيأبى عليهم حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه ، فإذا فرغوا من رمي الجمار وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانب العقبة فحبسوا الناس وقالوا :

— أجيزي بني صوفه .

فلم يجز أحد من الناس حتى يجيزوا ، فإذا نفرت صوفه ومضت خلى سبيل

---

(١) اخراج أقصى ما عند الإبل من السير .

الناس فانطلقوا بعدهم .

وانقرضت صوفة فورثهم من بعدهم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم ، وكانت من بني سعد في آل صفوان بن الحارث ، فكان صفوان هو الذى يجيز للناس بالحج عن عرفة ، ثم بنوه من بعده ، وقال القائل :

لا تبرح الناس ما حجوا معرفهم
حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

وكان كرب بن صفوان يأخذ بالطريق فلا يفيض أحد من عرفات حتى تغيب الشمس ، وكانوا يقفون بعرفات لا يعرفون بماذا يدعون ربهم فيقيمون يفتخرون بآبائهم وبأفعالهم ويسألون لدنياهم ، فإذا غربت الشمس سارع نحو جمع ويسيرون خلفه لكل حى مجيز سوى ذلك ، حتى يأتوا الحمس فى جوف الليل فيقضوا معهم وقد أخذ الطريق لا يخرج أحد قبل طلوع الشمس .

وراح الناس يطوفون بالصفا والمروة ويهرولون بينهما إحياء لذكرى هرولة هاجر أم إسماعيل لما كانت تبحث عن ماء لابنها الذى كاد يموت عطشا ، ولم يطف الحمس بهما فقد كانوا يرون أن الطواف بهما ليس من شعائر الحج ، وطاف محمد بن عبد الله بهما مخالفا رأى أهله .

وجاء يوم الصدر فقام ناسىء الشهور ، وهو من يحل شهرا من الأشهر الحرم ويحرم شهرا ليس منها ، يخطب فى فناء الكعبة قال :

ـــ قد أنسأت العام صفر الأول .

يعنى المحرم ، فيطرحونه من الشهور ولا يعتدون به ويبتدئون بالقعدة ، فيصبح ذلك المحرم الذى أنسأه ذو الحجة ، فيحجون السنة التالية فى المحرم !

وانتهى الحج فدخل الحمس بيوتهم من ظهورها حتى لا يفسد حجهم إذا

ما أتوا البيوت من أبوابها ، ودخل محمد بن عبد الله بيته من الباب الواسع لا يحفل إذا ما استاء الحمس من فعاله أو غضبوا لتسفيه أحلامهم .

وعادت القبائل إلى منازلهم ، وهرع الرجل الذى التقى بزيد بن حارثة إلى بيت حارثة يقص عليهم ما كان بينه وبين زيد ، وينشد الشعر الذى قاله ابنهم فتجرى دموع الأم وتتجدد أحزان الأب وإن تدسس فى الصدر أمل ، وإن خفق القلب بالرجاء .

وشد حارثة وأخوه الرحال إلى مكة حتى إذا ما بلغاها انطلقا إلى دار خديجة وسألا عن محمد ، فقيل لهما إنه فى المسجد ، فهرعا إلى الكعبة ودخلا عليه وقالا :

— يا بن عبد المطلب ، يا بن هاشم ، يا بن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكون الأسير العانى وتطعمون الجائع ، جئناك فى ولدنا عندك ، فامنن علينا وأحسن فى فدائه فإنا سندفع لك ..

فقال محمد و لم تفارق الابتسامة شفتيه :

— وما ذاك ؟

— زيد بن حارثة .

فقال محمد فى هدوء وقد ظهر فى وجهه الحياء :

— أو غير ذلك ؟

— وما هو ؟

فقال محمد فى صدق :

— ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على الذى اختارنى فداء .

ففرح حارثة فما كان يخطر له على قلب أن يعرض أحد مثل هذا العرض

السخى ، الذى إن نم فإنما ينم عن خلق عظيم ومنتهى مكارم الأخلاق ، فقال :

— زدت على النَّصَف وأحسنت .

وبعث محمد فى طلب زيد ، فلما جاء قال له :

— من هذان ؟

فراح ينظر زيد إليهما وقد أشرق وجهه ، فخفق قلب حارثة وأحس رغبة فى أن يضم ابنه إلى قلبه الولهان ، ولكن زيدا قال فى هدوء :

— هذا أبى حارثة بن شراحيل ، وهذا كعب بن شراحيل عمى .

فقال محمد فى بساطة :

— أنا من قد علمت وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما .

فقال زيد وهو يرنو إلى محمد فى حب :

— ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى مكان الأب والعم .

— ويحك يا زيد ! تختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟

فقال دون تردد :

— نعم ، ما أنا بالذى أختار عليه أبدا .

فلما رأى محمد منه ما رأى أخرجه إلى محل جلوس قريش فقال :

— إن زيدا ابنى أرثه ويرثنى .

كان الرجل فى الجاهلية يعاقد الرجل فيقول دمى دمك وهدمى هدمك[1] وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سلمك ، ترثنى وأرثك

---

(١) أى إن قتلنى الإنسان تطلب بدمى كما تطلب بدم أقرب أقربائك .

وتطلب بى وأطلب بك وتعقل عنى وأعقل عنك ، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف ، فلما رأى حارثة وكعب أن محمدا يطوف بزيد على حلق قريش ويقول : هذا ابنى وارثا وموروثا ويشهدهم على ذلك ، طابت نفساهما وإن لم يقدرا النعمة التى أنعم الله بها على زيد لما صار زيد بن محمد .

٣١

كان زيد بن عمرو بن نفيل منطلقا إلى داره وهو يترقب ، فشبح الخطاب يؤرقه وينزل الرهبة فى قلبه ، فقد كان زيد يرى أن قريشا قد ظلموا أنفسهم لما جعلوا لله اندادا ، وكانت نفسه تحدثه أحيانا أن ينصح لقومه وأن يدعوهم إلى نزع الأصنام من قلوبهم والتوجه إلى الله وحده ، فإذا ما استجاب إلى حماسته وسفه أحلام قومه كان الخطاب يغرى به شباب مكة ، فلا يستطيع أن يصبر على أذاهم ، فيفر منهم فى شعاب الجبال ، فقد كان أضعف من أن يقف فى وجه الاضطهاد أو يتحمل الأذى صابرا حتى يضع الأمور فى نصابها .

كان يرى قومه وهم ينزلقون إلى الهاوية قد تملكتهم شهوة التملك ، تلك الشهوة المسعورة المدمرة التى دفعتهم إلى الغارات على القوافل والقبائل للسلب والنهب وأسر الرجال والنساء ، ليكدسوا الأموال التى مزجت بعرق العبيد ودعارة البغايا ودماء الفضيلة ، وكان يرى مجتمعه وقد انقسم إلى طبقة راضية هى طبقة السادة الذين نزعت نفوسهم إلى القهر والسيطرة والظلم والولع بالدنيا ، وطبقات حانقة ذليلة هى طبقات العبيد الذين انتزعوا من أحضان أهليهم عدوانا ، والفقراء الذين يعيشون على كرم السادة الذين يوقدون النيران

لإرشاد الضيفان إلى موائدهم ، لا لخلق كريم فيهم بل طمعا فى ذهاب الصيت وحسن الأحدوثة .

كانت الحياة كأس خمر ولهوا ولعبا وإغارة ودفع مغير ، لا حكومة تقتص من جان أو تأخذ الحق من القوى للضعيف أو تحمى الطريق ، ولا ولاء لقانون أو حاكم أو سلطان ، بل ولاء للقبيلة ينتصرون لها ويموتون من أجلها ظالمة أو مظلومة ، فزاد السفه والغضب والأنفة والخفة والحمية والمفاخرة وكل ما تنتفخ به الأوداج غرورا .

وكانوا مجموعة من الجيران لا يراعون حق الجوار تجيش عقولهم بالعداوات ، فالمخاصمات تنشب لأتفه الأسباب ، والسيوف تمتشق لكلمة جارحة أو فعلة نكراء ، فتثور الحروب سنوات ، وينادى بالثارات ، وتروى الرمال بدماء الأبرياء ، ويقوم الشعراء بتأجيج نيران الشحناء فتسود قوانين الكراهية عوضا عن قوانين المحبة والسلام .

كانوا يعيشون فى أرض واحدة قد التفوا جميعا حول بيت الله ، ولكن كانت أحلامهم متباينة ، فبينا السادة يحلمون بقصور المدائن والخورنق وحوران والقسطنطينية وصنعاء وأكسوم ومنف وخزائن الذهب ، كان سواد الناس يحلمون بما يسكت صراخ البطن ، لم تمتد أمانيهم إلى ما وراء كسرة خبز أو شق تمرة أو جرعة ماء ، فقد امتلأت نفوسهم بالغل والحقد والحسد للأغنياء الذين إن شاءوا جادوا عليهم بما يمسك الرمق ، وإن شاءوا أمسكوا لتتم لهم أبشع صور استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

انعدمت فيهم القيم الروحية فما بقى لهم من عبادتهم إلا مراسيم وطقوس انتزعت منها الروح : حركات تتحركها الشفاه وإيماءات من الرأس وسعى وطواف والقلب غافل عن الذكر قد تعلق بالماديات .

جددوا بناء الكعبة وكسوها كسوة فاخرة ثم دنسوها بالأوثان ، وارتدوا ثيابا جديدة وتعطروا بأطيب العطور بينا كانت نفوسهم دنسة تقاسى فقرا روحيا وانهيارا فى الأخلاق قد ضاع الفضل بين الناس .

كان العدوان هو الوسيلة لفرض الإرادة ، والمال هو المعبود الحق ، والقوة هى القانون العدل ، والشعراء يتغنون بالشجاعة والوفاء وإطعام الطعـام وبطش الأقوياء وسفك الدماء وحرية السلب والنهب وارتكاب الفحشاء ووضع الأقدام على رقاب الأرقاء .

كان زيد بن عمرو يرى جاهلية قومه فتتمرد نفسه على ما هم فيه من ضلال ، وقد فكر ذات يوم أن يقوم بينهم هاديا ، وأن يسفه أحلامهم وأن يدعوهم إلى الله وحده ونبذ الأصنام ، فهب فى وجهه الخطاب وأذاه وحرض عليه الشباب إذا رأوه فى البيت يدعو الناس إلى دين الحنفاء رجموه بالحجارة ، فلم يحتمل ولم يصبر وفر إلى الجبال ، ثم آثر سلوك سبيل الملاينة والتزام السلامة والاستسلام ، وكان مغلوبا على أمره فما كان مؤيدا بروح القدس وما كان فى رعاية الله ، فأعتى العتاة لا يقدر وحده أن يقف فى وجه الفساد الذى ظهر فى مكة ، بله يأخذ بخطام قافلة الرذيلة إلى طريق النور والخلاص ما لم يكن مع الله وكان الله معه .

إنه قاوم الشر فى نفسه ولكنه عجز عن أن يقاوم الشر فى نفوس الآخرين ، وتدسس بصيص من النور إلى قلبه فى حين ران ظلام الشرك على قلوب قومه ، فقد عجز نور فؤاده عن أن يفيض ليغمر القلوب بالنور ، وكان أقصى ما يفعله من ضروب الشجاعة أن يسند ظهره إلى الكعبة ويقول :

ـــ يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى .

وأسماء بنت أبي بكر وشباب قريش ينظرون إليه مشدوهين لا يفقهون شيئا مما يقول ، وإن أحسوا بقلوبهم أنه يعارض عقائد أهله .

وبلغ زيد بن عمرو داره وجلس إلى ولده سعيد بن زيد وراح يحدثه عن دين آبائه وعن ما فيه من زيف ، ويقص عليه كيف خرج هو وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش إلى الشام يلتمسون الدين الصحيح ، وكيف اعتنق ورقة وعثمان وعبيد الله النصرانية وبقي على دينه يعتنق دين إبراهيم الذى طمسته الخرافات والأساطير .

وحدثه فى انفعال عن حديث الرهبان الذين قالوا له : إن الدين الذى تبحث عنه سيبزغ من عند البيت . وراح يروى له كل ما سمعه وعرفه عن النبى المنتظر ، وسعيد منفعل بما يقول ، وقد أحس تعاطفا عميقا مع أبيه لما قال إنه يخشى أن ينقضى أجله قبل أن يرى ذلك النبى ويؤمن به .

كان زيد بن عمرو يؤدب ابنه ويعده ليكون من المؤمنين بالرسالة المرتقبة ، وكان سعيد يستجيب لنصائح أبيه ويعجب فى نفسه من اضطهاد الخطاب له . وطالما تمنى أن يعود الوفاق بين الرجلين فهو يتوق إلى الزواج من فاطمة بنت الخطاب ابنة عمه ، ولكنه يخشى أن يكون ما بين أبيه وعمه سدا يحول بين تحقيق حلمه .

كان الخطاب يحب زيد بن عمرو ولكن حبه لآبائه ومعتقداتهم وتقاليدهم أشد ، فما أن سفه عمرو معتقدات الآباء حتى تبخر من قلب الخطاب كل حب له ونزل فيه غضب وحقد وإصرار على أن يعود لملة آبائه أو يتحمل مغبة صبوته ، وكان شرود زيد من حظيرة الإيمان بالاصنام والأوثان سببا فى أن يهتم الخطاب بغرس الإيمان بدين الآباء فى قلب ابنه عمر .

كان الخطاب يصطحب عمر بن الخطاب معه إذا ما ذهب إلى هبل أواللات

أو العزى أو مناة ليعلمه كيف يشكر آلهة أبائه ويقدم إليها القرابين والهدايا التماسا للرزق ودفعا للشر ، وكان يعلمه كيف يتمسح بصنم الإله قبل أن يذهب للنوم وكيف يدعوه فى الصباح عقب أن يستيقظ من رقاده ، فشب عمر بن الخطاب مؤمنا بأصنام قومه متعصبا لها ، فقد نجح أبوه فى أن يسدل أستارا من الأوهام على عين بصيرته وعين عقله ، وأن يملأ رأسه بما شاء من عقائد ، وأن يبذر فيه بذرة أن الموت فى سبيلها عز الدنيا وشرفها ، فاستقر فى وجدانه أنه حامى حمى الآلهة ولم يؤمن بقلبه أنه فى حماها !

كان عمر بن الخطاب قويا جبارا إذا ما آمن بفكرة لا يحيد عما يعتقد أنه حق قيد أنملة ، له شخصية قوية تفرض نفسها على كل من حولها . وقد تمكن على الرغم من حداثة سنه أن يكون مرموقا فى قبيلته بل فى قريش كلها ، وكان يغالى فى إيمانه على الرغم من معاقرته الخمر وارتكابه ما يرتكبه الشباب المكى من مساوىء ، فما كان يذهب إلى فراشه قبل أن يتمسح بصنم أبيه الذى كان قائما فى الدار .

وذات ليلة كان عمر بن الخطاب بعيدا عن البيت ، بعيدا عن الأصنام والأوثان ، وأراد أن يؤدى صلاته للآلهة فلم يجد حجرا يشبه إلٰهه أو قريب الشبه منه ، ولم يجد معه إلا العجوة فصنع منها إلٰها ، ثم قام يصلى له ويدعوه فى حرارة وإخلاص .

ومر الوقت وأحس جوعا فراح يبحث عن طعام فلم يجد غير إلٰهه ، فتناوله وأكله ، ولم يستنكر فعلته ولم يرف على شفتيه الابتسام فقد كان صادق الاعتقاد فى كل ما يفعل ، متحمسا له مؤمنا به .

كان راجح العقل ثاقب الفكر حازما عادلا ، وكان معدنه طيبا ، تراكمت جاهلية قومه على عقله ورانت على فكره واختلط تبره بترابه وعلا

صدؤه معدنه ، ولن يكشف عن حقيقة لبه ونفاسة جوهره[١] إلا نفحة من نفحات القدير العزيز .

كان الجفاء بين الخطاب وزيد قائما ، وكان الخطاب يأمل أن يئوب زيد إلى رشده ، وكان زيد يرجو أن يظهر النبى المنتظر ليؤمن به ويتبعه ، وكان يمر على محمد بن عبد الله ومعه زيد بن حارثة وهما يأكلان من سفرة لهما ، فيدعوانه لطعامهما فيعتذر ، ولو درى أن الذى يحدثه فى غدوه ورواحه هو نبى هذه الأمة لأقبل عليه متفرحا مستبشرا يقبل رأسه .

كان زيد بن عمرو يقول الشعر وكان الرواة يروون ما يسمعون ، وقد سمعته أسماء بنت أبى بكر يقول :

عـزلت الجن والجِنَّان عنـى
كـذلك يفعـل الجلـد الصبـور
فـلا العـزى أديـن ولا ابنـتيها
ولا صنمـى بنـى طسم أديـر
ولا غنما أديـن وكان ربـا
لنـا فى الدهـر إذ حلمـى صغير
أربـا واحـدا أو ألـف رب
أديـن إذا تـقسمت الأمـور
ألم تعلـم بـأن الله أفنـى
رجـالا كان شأنهم الفجـور
وأبقـى آخريـن ببرء قـوم
فيربـو منهم الطفـل الصغير

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « الناس معادن ، خيرهم فى الجاهلية خيرهم فى الإسلام » .

وبينـــا المرء يـــعثر ثـــاب يومـــا

كما يتـــراوح الـــغصن الـــنضير

وقد روت أسماء ولا ريب ما سمعت على أبويها ، فلم يندهش أبو بكر فقد كان يؤمن بأن للكون ربا واحدا وكان من الحنفاء .

وقابل زيد بن عمرو عامر بن ربيعة فراح يحدثه فقال له :

ــ أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ولا أراني أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام ، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم . فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون : هذا الدين وراءك ، لم يبق نبي غيره .

ومات زيد بن عمرو بمكة وهو يتحرق شوقا إلى لقاء رسول الله ليؤمن به ويصدقه ويشهد أنه نبي ، ودفن بأصل حراء ، وراح ورقة بن نوفل يرثي رفيق الصبا الذى ثبت على دينه واعتزل الأوثان :

رشدت وأنعـمت ابـن عمـرو وإنما

تجنبت تنـورا مـن النـار حاميـا

لديـنك ربـا لـيس ربـا كمثلـه

وتـركك جِنَّـان الجبـال كما هيـا

أقـول إذا أهبـطت أرضا مخوفـة

حنانـيك لا تظهـر على الأعاديـا

حنانـيك إن الجن كانت رجاءهـم

وأنت إلهـي ربنـا ورجائيـا

لتدركـن المرء رحمة ربـه

وإن كان تحت الأرض سبعين واديا

أدين لـرب يستجـيب ولا أرى
أديـن لمن لا يسمـع الدهـر واعيـا
أقـول إذا صلـيت فى كل بيعـة
تباركت قد أكثرت بـاسمك داعيـا

٣٢

جلس محمد ينظر إلى الصبى على بن أبى طالب وفى حجره بنت عمه فاطمة يقلب وجهه فيها فى دهش وحيرة وحب ، ففاطمة كانت أول مولودة توضع بين يديه ، وكانت دهشته لعينيها اللتين تتحركان ولفمها الصغير الذى يقدر على التثاؤب وكانت حيرته أنه سمع من خديجة أنها عما قليل ستكبر وتلعب معه وتأكل معه ، فما كان يتصور كيف تنمو وتلعب وتأكل وهى التى بين يديه قطعة من اللحم لا حول لها ولا سلطان ، وعلى الرغم من استكانتها فى حجره فقد تعلق بها ، وزاد فى حبه لها أن ابن عمه محمدا سماها فاطمة باسم أمة فاطمة بنت أسد ، فقد كان ذلك مبعث سروره وإن لم يدر بخلده أنه كان وفاء من ابن عبد الله للسيدة الكريمة التى رعته وكانت له نعم الأم بعد موت آمنة ، ونعم الراعى بعد موت جده عبد المطلب .

كانت زينب ترعاه وكانت تدلله أحيانا ، وطالما نام بين ذراعيها وهى تغنى له ، وكانت رقية تحنو عليه وتروى له بعض حكايات الأبطال ، وكانت أم كلثوم تشاركه لعبه ، أما فاطمة فهو يهفو إليها وإن كان فى حيرة من أمرها !
إنه أحب البيت ومن فى البيت ، أحب محمدا وتعلق به وأحس على الرغم

من صغر سنه أن محمدا يحبه حبا صادقا ، وأنه يفرح به إذا ما ارتمى فى أحضانه وأنه يقبله فى حنان دافق ، وأن قبلته رحيمة قد تفوق فى رحمتها قبلة أبيه أبى طالب .

وأحب خديجة وأحبته خديجة لطفولته البريئة ولحب زوجها له ، فخديجة تحب كل ما يحبه محمد وهواها دائما مع من يكون هوى زوجها معه ، وأحبت زيد بن محمد ، وأحبت أم أيمن ، وأغدقت أموالها على كل من رأى محمد أن يحسن إليه .

وأحب على زينب وكانت فى عينيه بمثابة أمه الصغيرة التى تطعمه وترعاه ولا تجد غضاضة فى أن تلعب معه أو تجرى خلفه ، وأحب رقية ويا طالما أعارها سمعه يصغى إلى حكاياتها فى اهتمام ، أما أم كلثوم فقد كانت تشاركه لعبه فى الدار وخارج الدار ، قد ذهبت معه إلى دار أبيه أبى طالب وانطلقت به إلى الحرم وشربت معه من ماء زمزم .

وأحب هند بن أبى هالة وزيد بن محمد ، وكان يتمنى أن يشتد عوده ليخرج مع ابن عمه محمد بن عبد الله كلما خرج أو ذهب إلى الأسواق مثلما يخرج معه هند وزيد ، فكانت أمنيته العزيزة أن يكون فى رفقة ابن عمه على الدوام .

كان يملأ البيت مرحا وحياة ، وكان ذهنه صاحيا وعيناه مفتوحتين يحاول أن يقلد ما يراه ويقتبس أخلاقه من أخلاق أهل البيت ، ومن حسن طالعه أنه كان فى كنف أسرة خلقها الله لتكون نبراسا لمكارم الأخلاق ، ومن رعاية الله وفضله عليه أن وفقه إلى أن يتخذ من ابن عمه الكريم قدوة حسنة ، فنهل من نبع عذب رقراق يفيض بالخيرات ويفىء بما أفاء الله عليه من كرمه وجوده وحكمته .

كانت فاطمة أقرب بنات محمد شبها بأبيها ، وكان على يحاكى محمدا فى مشيته وفى لفتته وفى نبرات صوته وعلاقته بمن حوله وفى تصرفه فى الأشياء ،

فكانا أقرب أهل البيت إلى قلبه ، وكانت أساريره تتهلل بالفرح كلما رآه يحمل فاطمة كأنما نفث فى روعه ما سيكون للصغيرين من شأن فى مستقبل الأيام .

وكان محمد إذا حمل فاطمة وضع عليا على فخذه وغمرهما بحبه وناجاهما كأنما هما روح واحد ، وكانت خديجة تمد إليهم عينيها وقد شعت منهما رقة تفصح عما يعتمل فى صدرها من إحساسات وعما يزخر به قلبها من مشاعر غنية تسمو ببشريتها ، وكانت تعبر عن صدى انفعالها بتقبيل فاطمة وعلى والنظر إلى محمد فى إكبار .

وجاء أبو طالب ليزور ابنه ، فلما وقعت عينا على عليه هرع إليه فبسط له الشيخ ذراعيه فارتمى فى أحضانه واستكان فى الصدر الحنون ، فترقرقت الرحمة فى وجه الشيخ ورأى أن يداعب ابنه ، فقال له إنه سيأخذه معه ليستقر عنده مع أخويه طالب وعقيل ، فلما سمع على دعابة أبيه انفلت من بين ذراعيه وجرى إلى محمد يلوذ به ويؤكد أنه لن يفارق حبيبه أبدا .

وضحك الشيخ وابتسمت خديجة ورفت ابتسامة على شفتى محمد وإن أحس دموعه تبلل روحه ، فهو يتأثر بالوفاء ولا يجد جزاء الوفاء إلا الوفاء ، فإنه لما اختاره زيد بن حارثة على أبيه بلغ به الانفعال أن أعلن على الملأ أن زيدا ابنه له حقوق الأبناء .

ولم يدر بم يجازى ابن عمه الذى فر من حضن الحنان الأبوى إليه ؟ لا يستطيع أن يعلن على الملأ أنه ابنه كما فعل بزيد فأبو طالب سيد بنى هاشم وأنه لشرف لا يدانيه شرف أن ينسب إليه على ، فلم يجد للتعبير عن عواطفه إلا أن يحمل عليا ويضمه إليه كأنما يعلن للوجود أن عليا منه وأنه فى رعايته .

وكان طالب وعقيل وجعفر وفاطمة بنت أسد يأتون لزيارة محمد ورؤية على ، فكانت خديجة ترحب بهم أجمل ترحيب وكان حكيم بن حزام والزبير

ابن العوام يأتيان لزيارة عمتهما خديجة ، فكان محمد يحدثهما حديثا لطيفا تشع منه الحكمة فيصغيان إليه فى فرح واستبشار ، كان البيت ترف عليه السعادة ، ولو شاء الزوجان أن يمضيا عمرهما فى بحبوحة من العيش وسلام لكان ذلك ميسورا مهيأ ، ولظلت قلوب مكة معلقة بأهل البيت السعيد الذين فتحوا أبواب الدار ونوافذ الأفئدة لكل الناس ، ولكن محمدا لم يخلق للدعة والهدوء والاستقرار فهو منذ رأى النور كان حليف العزلة والألم والأحزان ، وكان فى رحلة دائمة ما إن يشب على قدميه فى بنى سعد حتى يعود إلى مكة ، وما يكاد يستقر فى بيت أبيه حتى تحمله أمه إلى يثرب ، إلى دار أخوال جده عبد المطلب من بنى النجار ، ثم يعود إلى مكة مثقلا بالأسى والهموم ، وينتقل من بيت أبيه إلى دار جده ثم من دار جده إلى دار عمه ، ولا يمكث طويلا فى تلك الدار فهو يخرج مع عمه الزبير إلى اليمن ثم يجوب الأسواق فى تجارة خديجة ، فإن كان قد عرف نوعا من الاستقرار فى دار الزوجية فما ذلك إلا ليلتقط أنفاسه استعدادا لأكبر كفاح يخوضه رجل من أجل انتشال البشرية من مهاوى الجهل والظلام ، إلى حيث يشرق النور على قلوب العباد .

وكانت خزائن خديجة تفيض بالذهب والفضة ، وكانت قافلة تجارتها تعدل قوافل قريش كلها ، وكان تاجرا ناجحا الخير فى ركابه والبركة فى يمينه ، فلو شاء أن يكون ثريا من أثرياء مكة فالظروف كلها ميسرة له ، ولو أراد أن يكون شريفا من أشراف دار الندوة كحكيم بن حزام وأبى سفيان ابن حرب وعتبة بن ربيعة وعمرو بن هشام (أبى جهل) لرحب به القوم ، ولكنه كان يرى أن المال وظيفته أن ينفق لإسعاد الناس ، وأن حكومة دار الندوة إن هى إلا حكومة تخدم مصالح السادة على حساب الفقراء والمساكين والعبيد وكل من ليس له سلطان . وهو يمقت الظلم ويستشعر فى أعماقه رغبة جياشة فى

مقاومة كل ظلم وفساد ، ولكنه كان بنفسه أضعف من أن يقاوم ما فى مجتمعه من شرور وآثام .

وأقبلت هالة بنت خويلد على دار أختها خديجة ، فلما رأت زينب ضمتها إلى صدرها فى حب وقبلتها فى شوق ، وكانت هالة منفعلة وهى تحتوى بنت أختها فى أحضانها حتى إن رقية وأم كلثوم قرأتا فى وجهها أشياء ، فنظرت كل منهما إلى أختها فى دهش ثم انسلتا إلى حجرتهما وزينب فى أثرهما .

ومرت هالة بعلى بن أبى طالب فداعبته وراحت تحاوره فألفته طيبا متفتحا فيه كل محاسن بنى هاشم ، فلم تعجب فهو أول صبى فى الأسرة من أبوين هاشميين كريمين ، فأبوه شاعر ذلك الحى من قريش ، وأمه من كرائم نساء البيت الهاشمى الذى عرفت نساؤه بدماثة الخلق والعزة والكرامة .

وخلت هالة بأختها فأفضت إليها بما جاءت من أجله ، قالت لها إن ابنها يرغب فى زواج زينب ، فأقبلت خديجة على أختها متفرحة ، فأبو العاص بن الربيع كان يغشى بيتها كلما أراد ، وقد كانت تعتبره ابنا من أبنائها كهند بن أبى هالة أو كعلى بن أبى طالب ، إنها لأمنية عزيزة أن تتزوج زينب ابن أختها هالة ، بيد أن خديجة على الرغم من موافقتها وترحيبها بهذه المصاهرة التمست من أختها أن تنتظرها حتى تستأذن محمدا .

ودخلت خديجة على محمد وقد عرف البشر فى وجهها ، وقالت له إن هالة جاءت تخطب زينب لأبى العاص ، فأثنى زوجها على ابن أختها ، ثم ذهب إلى حيث كانت بناته وقال لزينب فى عطف وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة عذبة : إن أبا العاص بن الربيع قد جاء يخطبها ، فأطرقت زينب حياء وإن تلألأ البشر فى وجهها والتمعت عيناها قبل أن تسبل عليهما جفونها ، فالتفت إلى خديجة وأنبأها بموافقته ، فسكوت زينب علامة رضاها على ذلك الزواج .

وجاء أبو العاص بن الربيع فى سادات قومه وغص بيت خديجة بسادات بنى أسد : ورقة بن نوفل وعدى بن نوفل — وحكيم بن حزام — وآل العوام بن خويلد ، وبسادات بنى هاشم : أبى طالب والزبير بن عبد المطلب والعباس وحمزة والغيداق وطالب وعقيل وأبى سفيان بن الحارث ، وسادات عبد شمس وسادات بنى أمية وسادات بنى مخزوم وسادات بنى تيم وسادات بنى عدى وأشراف قريش . ونحرت النحائر ومدت الموائد وقام القيان يرقصن وجلجلت أصواتهن بالغناء ، وساد الفرح الدار وراح أطفال قريش يغدون ويروحون كزهور الربيع : على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وأبناء أبى بكر ، كانوا جميعا فى تلك الدار التى لم تتجاوز نبضات قلبها ربوع مكة يمرحون ويضحكون ويباركون لمحمد بن عبد الله وأصهاره ، وما خطر على قلب رجل منهم أن ذلك الرجل الحيى الخجول سيرفع من شأنهم وسيسجل أسماءهم فى سجل الخلود .

واستوى الليل وحمل أبو العاص بن الربيع زينب بنت محمد إلى داره وأبوها يرقبها وأمها ترنو إليها وفى عينيها دموع وفى قلبها أفراح وفى ضميرها دعوات ، كانت بكل جوارحها وبكل عواطفها ترجو أن يكون التوفيق حليف ذلك الزواج .

وانفض الناس وعاد إلى الدار الهدوء ، ودخلت رقية وأم كلثوم حجرتهما ، كانت أول ليلة تدخلان فيها الحجرة وقد خلت من زينب ، فنظرت كل منهما إلى فراش أختهما الخالى ثم التقت نظراتهما وأطرق رأساهما أسى واندست كل منهما فى فراشها وأطلقت لخيالها العنان وراء الماضى ويحاول أن يستشف ما فى المستقبل المرتقب ، واستمرت كل منهما تحلق مع أحلامها المجنحة حتى خطفها النوم لتسعد بالرؤى العذاب .

٣٣

دخل بنو مخزوم الحرم ومن خلفهم الحبش عبيد عبد الله بن أبى ربيعة يحملون كسوة البيت ، فلما رأى الناس عبد الله بن أبى ربيعة همسوا قائلين :

ــ العِدلْ .

فقد كانت قريش بأجمعها تكسو الكعبة من أموالها سنة ويكسوها هو من ماله سنة ، واشرأبت الأعناق وامتدت العيون إلى عبد الله تنظر إليـه فى إعجاب ، وتحركت الألسنة تروى ما تعرف عنه فقال قائل :

ــ ابن ذى الرمحين .

فقد قيل إن أباه قاتل برمحين يوم عكاظ ،وراح الناس يروون أن ريطة هى أم بنى المغيرة ولدت من المغيرة هشاما وهاشما وأبا ربيعة والفاكه ، وأن أم عبد الله أسماء بنت مخرمة عطارة يأتيها العطر من اليمن ، وقد تزوجها هشام بن المغيرة فولدت له عمرو بن هشام (أبا جهل) .

وهتف هاتف وهو يشير بأصبعه :

ــ هذا الوليد بن المغيرة وابنه خالد بن الوليد .

فقال آخر :

ــ صارت إلى خالد القبة والأعنة ، وأصبح فارس قريش .

فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فأنه سيكون على خيل قريش إذا ما خرجت للقتال .

وارتفعت أصوات تقول وموكب بنى المغيرة يتقدم صوب الحرم :

ـــ أبو حذيفة بن المغيرة .

كان أبو حذيفة هو القائل يوم أن أعادت قريش بناء الكعبة : « ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل إلا بسلم ، فإنه لا يدخلها حينئذ إلا من أردتم ، فإن جاء أحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط فكان نكالا لمن رآه » .

كان الموكب فاخرا يموج بسادات بني المغيرة ، وكان عبيد « عبد الله بن أبي ربيعة » الحبش يحملون أستارا من أجود الأقمشة ، ولم يثر كثرة الحبش دهشة الناس فقد كانوا يعرفون أن لعبد الله بن أبي ربيعة عبيدا من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان له جيش من الحبش .

كان الموكب مثيرا فبنو المغيرة يرفلون فى ثياب غالية والعبيد فى حلل قشيبة وعلى جانبى الركب جند بلا أسلحة وكل شيء ينم عن الثراء ، فلا غرو أن ضرب بعزهم المثل .

ورأى بعض المجان العاص بن هاشم بن المغيرة فراحوا يتغامزون عليه ، فهو ماجن عاهر ارتكب من الحماقات ما ضاقت به بنو المغيرة حتى هددوه بأن يخلعوه منهم ويبرءوا منه ومن أفعاله .

وراحوا يروون مغامراته فى الخمر والميسر والنساء وما أنزل بأهله من مغارم ، وكيف أن أبواب دور أبيه وأعمامه وجدته قد أغلقت فى وجوه دائنيه ، وكيف أعلن أبوه هاشم أنه لن يسدد أى دين يخسره ابنه فى الميسر .

وتذكر بعض من كانوا فى الحرم أبا أمية بن المغيرة فقال أحدهم فى أسى :

ـــ مات زاد الركب وغاب عن موكب قومه .

كان أبو أمية بن المغيرة زوج عاتكة بنت عبد المطلب ، وكان قد خرج تاجرا إلى الشام فمات بسَرْو سحيم ، فلما بلغ أبا طالب موت زوج أخته رثاه بقوله :

ألا إن زاد الـــركب غير مدافَـــع
بسرو سُحَيم غيَّبتـــــه المقابــــر
بسرو سحيم عـــارف ومناكـــر
وفارس غارات خطيب وياسر(١)
تنـادوا بـأن لا سيــد الحي فيهم
وقد فُجع الحيان كعب وعامـر
فكـان إذا يـأتي مــن الشام قافــلا
بمقدمــه تسعـى إلينــا البشائــر
فيصبـح أهـل الله بـيضا كـأنما
كستهم حـبيرا ربـدة ومعافــر
تـرى داره لا يبرح الدهـر أمدهـا
مجعجعـة كَـوم سمان وباقـر(٢)
إذا أكـلت يومـا أتى الدهـر مثلهـا
زواهــق زهــم أو مخاض بهازر(٣)
ضروب بنصل السيـف سوق سمانها
إذا عدمــوا زادا فــإنك عاقــر
وإلا يكـن لحم غــريض فإنــه
تــكب على أفواههــن الغرائــر
فيـالك مــن نــاع حبيت بآلـــة
شراعيــة تصفــر منها الأظافــر

---

(١) اللاعب بقداح الميسر . وهو مما يفاخرون به لأن الغالب يفرق لحم الجزور على الفقراء .

(٢) اسم جمع « بقرة »

(٣) النوق العظيمة .

وراح الأشراف يغسلون الكعبة بماء زمزم حتى إذا ما انتهوا منها تقدم سادات بنى المغيرة يكسونها ثم يطيبونها ويبخرونها بأجود أنواع المنـدل والعود ، وكانت أسماء بنت مخرمة تختار أفخر أصناف الطيب بما لديها من خبرة فى العطارة .

وطاف سادات بنى مخزوم وسادات قريش بالحرم ثم انسلوا إلى دورهم .

وجاء الليل وانطلق السمار إلى مسامرهم ، فخرج العاص بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب إلى حيث يمضى سادات قريش ليلهم فى لعب الميسر عند صفوان بن أمية صاحب الأزلام ، فقد كانت الأزلام فى بنى جمح .

واتفق أبو لهب والعاص بن هشام على أن يقامرا بعشر من الإبل فدعوا القدّار وهو الجزار وأمراه أن ينحرها ويجعلها عشرة أجزاء ، الكتفين جزأين كل واحدة منهما جزءا ، والصدر جزءا ، والعضدين جزأين ، والكاهل جزءا ، والملحاء وهو ما بين السنام إلى العجز جزءا ، والفخذين كل واحد منهما جزءا . ثم يقسم على الأجزاء العشرة ما فضل من الجنبين والسنام والكبد .

وأخذ أبو لهب قدحه وأخذ العاص قدحه ، وجلس الحُرُضة وهو الذى يضرب للاعبى الميسر بالقداح ، وهو لم يأكل لحما قط بثمن إنما يأكله عند غيره أو يهدى له الأيسار ، وأخذ يلف كفه بقطعة من جراب لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة ، وقد جلس خلفه الرقيب ليتناول منه السهم الذى يخرج فيخبر المتقامرين به .

وقال العاص :

ـــ المِجوَل .

فأتوا بالمجول وهو ثوب شديد البياض وجعلوه على يد الحُرُضة ليغشى بصره

فلا يعرف قدح أبي لهب من قدح العاص .

وأراد العاص أن يطمئن إلى حياد الحرضة فقال :

ـــ عليّ بالربابة .

فجيء بكيس فوضع به العاص سهمه ووضع أبو لهب سهمه فاستل الحرضة سهما ثم ناوله الرقيب من غير أن ينظر إليه ، فنظر الرقيب فيه وقال :

ـــ سهم أبي لهب .

وفاز أبو لهب فأرسل اللحوم إلى الفقراء ودفع العاص ثمنها ، وقد ضاق صدره بما مني به من هزيمة وأراد أن يعوض ما فاته فطلب من أبي لهب أن يقامره على عشر ثانية من الإبل .

وجيء بالإبل ونحرها الجزار ، ودفع العاص إلى الحرضة سهمه ودفع إليه أبو لهب سهمه ووضع السهمان فى الربابة ، ومد الحرضة يده وأخرج سهما ناوله إلى الرقيب ، وما إن نظر فيه حتى صاح :

ـــ فاز أبو لهب .

وحملت اللحوم إلى دور الفقراء والمساكين والرجال يتغنون بأبي لهب ، يقولون :

إذا شهد الأيسار أو غاب بعضهم
كفى الحي وضاح الجبين أريب

وزاغت نظرات العاص وانبهرت أنفاسه وتحرك جشعه وحز فى نفسه أنه دفع ثمن عشرين من الإبل ، ورأى أن يستمر فى اللعب ليخسر أبو لهب مثلما خسر ، فطلب من أبي لهب أن يقامره على عشر ثالثة من الإبل .

وجيء بالإبل ونحرت ودفع العاص بسهمه إلى الحرضة وهو يسبه ويلعن شؤمه ، وقدم إليه أبو لهب سهمه وهو يمتدحه ويمتدح خيره ، ووضع

السهمان فى الربابة وتناول الحرضة سهما ودفع به إلى الرقيب والعاص يرقب شفتيه فى اهتمام ، حتى إذا ما قال :

— سهم أبى لهب .

أحس كأن خنجرا يغوص فى قلبه ، واستبدت به نزوة المقامرة فظل يقامر حتى خلعه أبو لهب من ماله فلم يبق له شىء ، و لم يحتمل قسوة الهزيمة فقال لأبى لهب :

— إنى أرى القداح قد حالفتك يا بن عبد المطلب ، فهلم أقامرك فأينا قُمر كان عبدا لصاحبه .

وحبست الأنفاس واتسعت العيون ، لقد بلغت المقامرة ذروتها ، إن أناسا قد قامروا من قبل على نسائهم ، أما أن يخاطر رجل بحريته فذلك شىء مثير ، وصوبت الأنظار إلى أبى لهب وكانت روح المقامرة قد استولت عليه فقال :

— أفعل .

وتجاوب المكان صيحات ترحيب وصيحات إنكار ، ودنا صفوان بن أمية صاحب الأزلام من الحلقة التى ضربت حول الحرضة يرصد هذه المقامرة المجنونة فى حرص شديد ، فما كان يستطيع أن يتصور أن يصبح أبو لهب عبدا للعاص بن هشام أو يصبح العاص بن هشام عبدا لأبى لهب . لقد باتت حرية أحد الرجلين معلقة بخروج سهم يحركه القدر !

وناول العاص سهمه للحرضة وهو يرتجف من الرأس إلى القدم ، وقدم إليه أبو لهب سهمه وقد مشت فى بدنه قشعريرة ، فإنه لأمر مخيف أن يفقد المرء حريته ويصير عبدا ملك يمين غريمه يحييه إن شاء ويقتله إن شاء ويذله إن شاء ويكلفه بما يشاء من أعمال وضيعة .

وراحت العيون تتبع حركات يد الحرضة وقد ران على المكان ترقب ورهبة

وقلق ، ومرت اللحظات بطيئة بطيئة لكأنها كانت دهرا ، وظهر فى يد الحرضة سهم من السهمين فشحب لون العاص ، فهو يخشى أن تستمر مخالفة القداح لابن عبد المطلب ، ووراح قلبه يقفز فى صدره ويخفق خفقات وجل شديد ، وارتجفت شفتا أبى لهب واضطربت يده و لم تستقر عيناه فقد راح ينظر إلى لا شيء .

ومد الحرضة يده إلى الرقيب بالسهم فتناوله الرقيب بيد مرتجفة ونظر فيه والناس جميعا ترصد حركات شفتيه ، فقال فى صوت خافت مرتجف :

— خرج سهم أبى لهب .

وتنفس أبو لهب الصعداء كأنما قد قام من تحت صخرة كانت تكتم أنفاسه ، وترنح العاص بن هشام وقد انقشعت عن عين بصيرته غمامة نزوة المقامر وانكشف لعقله الحقيقة البشعة ، إنه فقد حريته إلى الأبد استجابة لرغبة جامحة ليس لها عقل ، صار عبدا .. عبدا .

ورن فى جوفه صوت ساخر يردد . « العاص بن هشام مولى أبى لهب بن عبد المطلب .. العاص مولى أبى لهب .. العاص مولى أبى لهب » فود لو يستطيع أن يكتم أنفاس ذلك الصراخ المرير الذى يصيبه ، أو يخنق نفسه . وعادت السخرية تدوى بين جنبيه : « نفسك ؟! إنها لم تعد ملكك ، إنها قد صارت منذ الليلة ملك أبى لهب إن يشأ يزهقها وإن يشأ يطلقها » .

وكره أبو لهب أن يسترقه فتغضب بنو مخزوم ، فمشى إلى أبيه وقال له :

— افتده منى بعشر من الإبل .

فظهر الغضب فى وجه هشام وأبى أن يفتديه ، فمشى أبو لهب إلى أعمامه وإلى جدته أسماء بنت مخربة وقال لهم :

— افتدوه منى بعشر من الإبل .

فقالوا :

ـــ لا والله ولا بوبرة .

وأبت بنو مخزوم أن تفتدى ابنها الماجن الآبق بعشر من الإبل ، ولما كان قلب أبى لهب قد قدّ من فولاذ وإن كان جميل الخلقة ، فقد استرقه وأجلسه حدادا يعمل على الحديد » وأصبح العاص بن هشام مولى أبى لهب بن عبد المطلب .

٣٤

جلس على بن أبى طالب ورقية وأم كلثوم يصغون إلى محمد وهو يحدثهم عن دين قومهم وعن الأصنام التى لا تملك لنفسها نفعا أو ضرا . وكانت خديجة بعيدا ، فلما مس صوته أذنيها هرعت إليه لتصغى إلى عذب حديثه لتنسى آلام الحمل التى تضرب ظهرها وتسرى فى أحشائها .

كان على أكثر السامعين تفتحا ، وكان يرنو إلى ابن عمه فى حب وإعجاب يستشعر كلامه يستقر فى قلبه فينبز عين وجوده بالحكمة . إنه قد ذهب إلى الملتزم ليتعلم هناك القراءة والكتابة وقد ألقى سمعه إلى معلمه ، ولكن هيهات بين ما يسمع فى بيت الله وفى بيت خديجة . كان ابن عمه بحرا من العلم والحكمة بينما كان معلمه ضحلا لا يعرف من العلوم إلا سجع الكهان وأوزان الشعر ، وقد كره على نظم الشعر كما كرهه ابن عمه من قبل .

وكان على كلما غشى بيت أبيه ورأى الصنم الذى يسجد له آل أبى طالب تذكر قول ابن عمه فى الأصنام ، فألقى نظرة ازدراء على معبود آبائه وخرج ،

وكان كلما ذهب إلى الحرم ليطوف به ورأى الساجدين للأوثان سخر فى قرارة نفسه من عقولهم ، فقد كرم الله وجهه و لم يسجد أبدا لصنم .

وراحت فاطمة تغدو وتروح فى الغرفة ، تذهب إلى أبيها مرة وتنطلق إلى أمها مرة وترتمى بين أحضانهما فتلقاها خديجة باشة وهى تجاهد أن تخفى الألم الذى يعتصر جوفها ، وفطنت أم أيمن إلى ما تقاسى سيدتها فذهبت إلى فاطمة وحملتها ثم خرجت بها تداعبها بعيدا ، حتى لا تعكر صفو تلك الجلسة الهادئة ولتخفف عن خديجة آلام ارتمائها على بطنها .

وقام محمد ليودع الخارجين فى رحلة الصيف فطلب منه على أن ينطلق معه ، فأخذه فى يده وهو يبش له ويلقى على مسامعه نصائحه ، وخرجا إلى البيت وطافا به ثم ذهبا إلى حيث أناخت قافلة قريش ، وقد امتازت هذه الرحلة بشىء مثير ، فقد عزم الشابان عمرو بن العاص وعثمان بن عفان أن يركبا البحر وأن يذهبا إلى الحبشة وأن يلتمسا الإذن بالدخول على النجاشى لتوطيد أواصر الود بينه وبين الجيل القرشى الجديد .

وحان أوان الرحيل فتحركت المشاعر فى القلوب ، وانثالت الذكريات على رءوس الرجال والشيوخ الذين قعدوا عن الخروج فى تجارة أهلهم ، وودع محمد الرجال الذين سيسيرون فى معبد الله الكبير ، ثم قفل عائدا إلى داره وعلى بن أبى طالب فى يده .

وكان يحدث عليا وهما فى الطريق عن الخيل وركوبها ، وعن السهام وإطلاقها ، وعن السيوف واللعب بها ، وعلى يصغى إلى حديثه مشرق النفس ، تتراءى له أحلام جميلة ، ويطير مع آماله المجنحة فيرى نفسه فتى قريش وفارسها وبطلها الذى لا يدانيه بطل من أبطال العرب .

ودخل محمد وقد أرهف سمعه وغشيته رحمة ، فقد ترك خديجة وهى

تضع ما فى بطنها ، وانقلب على إلى أم كلثوم مسرورا يروى لها ما رآه فى يومه وكانت تحمل فاطمة ، فرقية وأم أيمن كانتا مع خديجة فى الغرفة التى أغلق بابها .

وراح محمد يغدو ويروح فى غرفات الطبقة العليا من الدار وهو يناجى ربه يسأله السلامة لزوجه التى ملأت حياته سلاما ، وفتح باب الغرفة وخرجت أم أيمن مسرورة ، وذهبت إلى حيث كان محمد وقالت له وقد أفعمت بالفرح :

— غلام ! إنه غلام !

وأطرق محمد برأسه ووقف خاشعا برهة كأنه فى صلاة وقد اتصلت روحه بروح الكون ، وانبعثت من صميم ذاته آيات الشكر لله ، وفاضت رحمته فترقرقت الدموع فى عينيه ، ثم ذهب إلى حيث كانت خديجة راقدة وإلى جوارها ابنهما ، فألقى على الطفل نظرة فإذا بشعره فاحم السواد كثا كشعره ، وإذا بأنفه أشبه بأنفه . فتحركت عاطفة الأبوة فيه فمال عليه وطبع على جبينه قبلة .

وفتحت خديجة عينيها وأشرق وجهها بابتسامة عذبة رقيقة ، ثم قالت :

— ماذا نسميه ؟

فقال محمد وهو يقبله بنظراته :

— القاسم .

وانطلق إماء خديجة إلى دور قريش يذعن نبأ مولد ابن محمد بن عبد الله ، فخف آل أبى طالب والعباس وحمزة وبنو أسد والصديق الوفى أبو بكر ليهنئوا أبا لقاسم بما منّ الله عليه .

وجاء اليوم السابع من مولده فأمرت خديجة بنحر الجزور وإطعام الناس ،

وأولمت وليمة فاخرة لسادات قومها لم تشهد الدار مثلها من قبل ، فقد كانت فى أعماق أعماقها تستشعر أنه لشرف عظيم أن يكون لها ولد من ابن عبد الله .

وانفض الجمع والسعادة تخفق بجناحيها على البيت الهانىء السعيد : مال ممدود وزواج موفق وذرية صالحة مطيعة خيرة وشرف وسؤدد وسلطان ، لقد تسنمت دار خديجة ذروة السعادة ، ولو كان رب البيت غير محمد بن عبد الله ربيب السماء ، لأسلم جنبيه لنوم هادىء لذيذ ، ولكن أبا القاسم استمر عازفا عن لذات الأرض هائما فى لذات السماء وكل ما تصفو به الروح .

إنه بات إذا رأى رؤيا جاءت كفلق الصبح ، فإذا رأى فى ليله حدثا من الأحداث جاء نهاره بما رآه فى نومه ، كأنما قد رفعت عن بصيرته أسجاف الغيب ، وكان يقص على خديجة أحلامه فكانت زوجته ترقب الأيام إرصادا لتأويل أحاديثه ، فإذا بالأحداث تقع كما رآها لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل ، فرؤياه صادقة ناصعه كرائعة النهار لا يلفها غموض ولا ضباب .

وتيقنت خديجة أن ما يراه أبو القاسم من عند الله إلهام يهبط عليه من السماء ، ونفث فى روعها أن ذلك بداية الشىء الذى كانت تتعجله ، فأشرقت نفسها بالأمل وخفق قلبها بالرجاء ويسرت لزوجها طول السهر مع ربه والنظر إلى وجهه .

ولم يشغل القاسم قلب أبيه عن الله ، فاستمر محمد فى اعتكافه وفى قطع شواغل الدنيا عن قلبه ليخلو لله وليتلقى من فوق السموات العلم والحكمة ، وقد شفت روحه وارتقت فى معارج الوصال حتى صارت قاب قوسين أو أدنى من نور النور وكمال الكمال .

وجاء إلى البيت السعيد أبو لهب وزوجه أم جميل بنت حرب بن أميه ، فألفيا عليا يداعب القاسم وخديجة تحنو عليها وتقول لعلى :

— قبل أخاك .

فتحركت الرقة فى قلب الرجل الذى قد قلبه من الصخر فمال على علىّ وقبله وحمل القاسم بين يديه وضمه إليه فى حنان ، ثم التفت إلى أم جميل وقال :

— إنه ليذكرنى بيوم مولد محمد .

وجاء محمد يرحب بعمه الذى أعتق مولاته ثويبة يوم بشرته بمولده ، ويحيى أم جميل وهو متطلق الوجه ، ولما جلسوا أجلس محمدا عليا إلى جواره ، فإن كانت خديجة تقول على الدوام إن عليا أخو القاسم فإن محمدا يقول إن عليا أخى ، فمحمد كان يحس فى قرارة نفسه أن ابن أبى طالب لم ير له أبا سواه .

وراح الجميع يتبادلون حديثا رقيقا حول رقية وأم كلثوم ومعتب وعتبة ، ثم قال أبو لهب إنه ما جاء إلا ليخطب ابنتى محمد لولديه ، فرحب محمد بهذه المصاهرة فهو يحب عمه وأولاده ويسره أن تقوى الأواصر بينه وبين بيت أبى لهب ، ولكنه علق موافقته على موافقة رقية وأم كلثوم .

ودخل على بنتيه فى حجرتيهما وقال لهما إن عمه أبا لهب يخطبهما لولديه معتب وعتبة وأنه يحب أن يسمع رأيهما فأطرقت البنتان حياء وإن ترقرق البشر فى وجهيهما ، فابتسم محمد وضمهما إليه فى حنان وقد توجت شفتيه بسمة رقيقة .

وعاد إلى حيث كان عمه وأم جميل وخديجة وقد نم وجهه عن الرضا فاستبشرت خديجة ، وأقبل على عمه يعلنه بموافقته وموافقة بنتيه على إتمام الزواج ، وفى جو مفعم بالود اتفق على موعد الخطبة .

وجاء إلى دار محمد أشراف بنى هاشم وأشراف بنى أمية وأشراف بنى أسد

وأشراف بني عبد شمس ، وسادات بني تيم وبني عدى وبني نوفل وبني مخزوم وبني زهرة وبني عبد الدار وبني سهم وبني جمح وجلس أبو طالب إلى جوار أبي سفيان ، وورقة بن نوفل إلى جوار الوليد بن المغيرة ، وحكيم بن حزام يحادث حمزة بن عبد المطلب ، وجاء أبو بكر وعمرو بن العاص بن وائل .

وراح الزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعلى بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان يغدون ويروحون ويتنقلون بين الآباء ، وقد ساد الجميع الألفة والمحبة والسرور . وكانت تلك الليلة هي أخر ليلة يجتمع فيها شمل قريش ، فقد دنت رسالة محمد بن عبد الله التي يفرق بها بين الابن والأب والزوج والزوجة والصديق والصديق .

وانفض الناس كل إلى داره وبقيت السعادة مستقرة فى دار أبي القاسم ، حتى وعك القاسم فسهرت به خديجة وهى قلقة ، وراح محمد يحاول أن يواسيها وأن يعيد الطمأنينة إلى قلبها الواجف ، وإن شغل بمرض ابنه الحبيب .

واشتد المرض بالصبى الرضيع فارتسم فى وجه خديجة الهلع ، إنه فلذة الفؤاد وإن مجرد خاطر أن يموت يزلزل كيانها ويذهب نفسها شعاعا ، فيا طالما تمنت أن ترزق بولد لتقر به عين زوجها وقد حقق الله ما تمنت ، أوَيموت القاسم بعد أن تعلقت به روحها وروح زوجها ؟

وضاق صدر الصبى بأنفاسه ووهنت عيناه ومشى إليه الموت فأحست نياط قلبها تتمزق ووقدة نار فى حلقها ودموعها تجرى على خديها ، ولم تحتمل قسوة العواطف التي تجتاحها فشرقت بدموعها .

ورأى أبو القاسم ابنه يجود بروحه أمام عينيه فأحس بلوعة الفقد تغوص فى فؤاده وشعر بعنف الحزن يعتصر قلبه والعبرات تترقرق فى مقلتيه ، وفاضت رحمته فتناول الجسد الرقيق فى رفق وحمله على ذراعيه وقلبه يفيض أسى .

وأسلم القاسم الروح بين يديه فأعاده إلى فراشه وفى صدره شجن وفى جوفه نار ، ثم مد يده إلى وجهه وأسبل عينيه ، ولم تتحمل خديجة وطأة أحزانها فندت منها صرخة أم ثكلت فى أعز أمانيها .

وران على الدار حزن ، وكان موت القاسم إيذانا بانتهاء عهد الاستقرار وبدء عهد الشدة والصبر والكفاح والأحزان ، فما كانت الأعمال الكبار تتحقق إلا بالجهد والألم وتحمل ألوان العذاب ، وإن العمل الذى سيكلفه به ربه تنوء بحمله الجبال ، لولا رحمة من الله .

التذييل

سأعود فى هذا التذييل إلى الحديث عن البشارات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن الإرهاصات التى ذاعت قبل مولده وبعثه . وقد دفعنى إلى هذا الموضوع أن كثيرا من المثقفين من المهتمين بدراسة مطلع الرسالة المحمدية يميلون إلى الأخذ برأى المستشرقين القائل بأن أغلب البشارات قد وضعها الإخباريون والمؤرخون المسلمون بعد انقضاء زمن الرسالة وانتشار الإسلام تأكيدا لدينهم ، ولإيهام المسلمين أن البشرية كانت تنتظر مبعث رسول كريم .

قد يكون لهذا الرأى وجاهته لو أن البشارات عن محمد بن عبد الله قد اقتصرت على روايات الإخباريين الإسلاميين والمؤرخين المتحمسين لدينهم ، ولكن التوراة والإنجيل فاضتا بالبشارات بالنبى الأمى الذى سيبعث من الأمم لا من بنى إسرائيل ، وقد سقت تلك البشارات بالتفصيل فى الأجزاء السابقة ، والقرآن الكريم يؤكد أن أهل الكتاب كانوا يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم . ولو أن محمدا (ﷺ) قد ادعى هذه الدعوة ولم يكن لها سند فى التوراة أو الإنجيل لما اعتنق يهودى أو نصرانى الإسلام ، ولكننا نجد كثيرا من اليهود ومن النصارى قد دخلوا فى دين الله أفواجا لما أضاء نور الهداية صدورهم .

وللتدليل على أن بعض أيات الكتاب المقدس تبشر به نسوق ما قاله ول ديورنت فى كتابه قصة الحضارة ، وول ديورنت مؤرخ مسيحى معاصر

هاجم اليهودية فى كتابه ، فهو لا يؤمن بالأديان ، ولكنه قال فى الجزء الثانى من المجلد الرابع « عصر الإيمان » عندما كان يتكلم عن محمد فى مكة ، فى الفترة ما بين ٥٦٩ إلى ٦٢٢ من مولد السيد المسيح : « لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة ، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل وقطيعا من المعز وبيتا وأمة عنيت بتربيته فى طفولته ، ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه كأنه حمد مرة بعد مرة ، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات فى التوراة تبشر به » .

وإذا كان الإخباريون المسلمون والمؤرخون المتحمسون لدينهم هم الذين وضعوا البشارات والإرهاصات فى أخبارهم وتاريخهم ، فمن الذى جعل زرادشت يوصى قومه بأن يستمسكوا بما جاءهم به إلى أن يأتيهم صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب ؟

لقد ألف مولانا عبد الحق قديارى كتابا باللغة الإنجليزية سماه « محمد فى الأسفار الدينية العالمية » ، واستفاد فى مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوربية ، ولم يقف فيه عند التوراة والإنجيل فقط بل عم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر أننا أطلعنا على شاهد أقوى منها فى روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية[١] .

ويقول الأستاذ عبد الحق إن اسم الرسول العربى « أحمد » مكتوب بلفظة العربى فى الساما فيدا Sama Vida من كتب البراهمة ، وقد ورد فى الفقرة

---

(١) مطلع النور للأستاذ عباس محمود العقاد .

السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها أن « أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة ، وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » .

ويزيد الأستاذ عبد الحق على ذلك أن وصف الكعبة المعظمة ثابت فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ، ويذكر من أوصافه أنه ذو جوانب ثمانية وذو أبواب تسعة .

والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية إلى الكعبة ، وهى باب إبراهيم وباب الوداع وباب الصفا وباب على وباب عباس وباب النبى وباب السلام وباب الزيارة وباب حرم .

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف أن النبى محمدا (ﷺ) مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة ، ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذى ورد فى كتاب الأثار فافيدا حيث يشار إلى حرب أهل مكة وهزيمة (العشرين والستين ألفا مع تسعة وتسعين) وهم على تقدير المؤلف عدة أهل مكة وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار ، كما كانوا يوم قاتلوا النبى صلوات الله عليه .

وكذلك صنع بكتب زرادشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية ، فاستخرج من كتاب زند أفستا Zend Ouesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت Soeshyant ، ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب Angra Mainya ، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفوًا أحد (هيج جيزياونمار) وليس له أول ولا آخر ، ولا ضريع ولا صاحب ، ولا أب ولا أم ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا ابن ولا مسكن ، ولا جسد ولا شكل ، ولا لون ولا رائحة . « جزاحاز وانجام وانبار ودشمن ومانند وياز وبدر ومادر وزن فرزند وحاى سوى وتن اسا وتنانى ورنك وبوى لست » .

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه وتعالى فى الإسلام : أحد صمد ، ليس كمثله شيء ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا .

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبيء عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود ، وفيها إشارة إلى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها إلى اللغة العربية معناها بغير تصرف « أن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوخ وبلخ ، وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم ، وإن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات[1] » .

والكتاب يفيض بنبوءات التوراة والإنجيل وقد أوردناها فى الكتب السابقة ، وأعتقد أن فى ذلك الكفاية للتدليل على أن النبوءات والإرهاصات بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ليست من وضع الإخباريين المسلمين ولا المؤرخين المتحمسين لدينهم ، وصدق الله العظيم حيث قال فى كتابه الكريم : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون[2] » .

وأعود لأتمم حديثي عن الحنفاء الذين كانوا على دين إبراهيم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم . قال الإخباريون إن عبيد بن الأبرص كان من الحنفاء وإنه كان من فحول العرب وشعرائها المفلقين ، ونراه فى القصيدة

---

(١) صفحة ٤٧ من كتابه : « محمد فى الأسفار الدينية العالمية » .

(٢) الأنعام ٢٠

البائية التى أوردناها فى صلب الكتاب[١] يتوكل على الله ويدعو الناس إلى الاعتماد عليه ، فهل هذه البائية من نظم من قيل عنه إنه من فحول شعراء الجاهلية ؟

قال الجاحظ : إن عبيدا وطرفة بن العبد دون ما يقال عنهما إن كان شعرهما ما فى أيدى الناس فقط ، وقد أشار أبو العلاء المعرى إلى اختلال بائيته بقوله :

وقد يخطىء الرأى امرؤ وهو حازم

كما اختل فى نظم القريض عبيد

وفى رأيى أن هذه البائية التى قال عنها أبو العلاء إنها مختلة لا يمكن أن تكون من نظم شاعر جاهلى قيل عنه إنه من الفحول ، بل هى مدسوسة عليه قد عملت بعد صدر الإسلام فى زمن التدوين ونسبت إلى ذلك الشاعر ، وقد نسب الإخباريون ذلك الشعر وأمثاله لبعض من قيل إنهم من الحنفاء لتأكيد التكهن بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه ، وما كان الوحى فى حاجة إلى من يثبته من الشعراء والأحناف وقد بشرت الكتب السماوية كلها برسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

ووقفت طويلا أمام سن السيدة خديجة يوم أن تزوجت محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل إنها كانت بنت أربعين سنة ، وقيل ثلاثين وقيل خمس وثلاثين وقيل ثمان وعشرين وقيل خمس وعشرين ، وقد أخذت بالقول القائل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها وهى يومئذ بنت ثمان وعشرين معتمدا فى ذلك على قول ابن عباس :

« إنها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تجاوزها » .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « مطلع النور » .

---

(١) انظر ص ٢٤

« وكان النبى عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره . أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول إنها كانت فى الأربعين أو فى الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : إنها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تجاوزها ، وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد في الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد .

وقد يرجح تقدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وإن كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام » .

وخاتم النبوة الذى كان بين كتفى محمد صلى الله عليه وسلم دلالة على نبوءته الشريفة أكان من وضع كتاب السيرة ؟ يقول المتشككون فى كل شيء إن كتاب السيرة المسلمين اخترعوا قصص الإرهاصات بنبوءة نبيهم ، وقصص الأحبار والرهبان والكهان الذين بشروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك خاتم النبوة وتقبيل الراهب بحيرا له ، وطلب الراهب نسطورا من محمد إبان أن كان منطلقا إلى الشام فى تجارة خديجة أن يكشف عن ظهره ليرى العلامة ، كل ذلك قد وضعوه ليؤكدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال الذين لا يؤمنون بالعلامات والدلائل الملموسة إن وجود ذلك الخاتم لا يقدم ولا يؤخر فى أمر محمد بن عبد الله وصدق رسالته ، فما كانت بعثة

محمد فى حاجة إلى دليل مادى ملموس لتأكيدها ، ويكفى ما فى حياة الرسول قبل أن يبعثه الله وبعد الرسالة ما يؤكد صدق رسالته .

وأحب أن أقول : إن الاسلام فى كل ما شرع من عبادات يشرك الجسد مع الروح ، فهو يحترم الجسد احترامه للروح ، ففى الصلاة يشارك الجسد بالقيام وبالسجود الروح فى العبادة ، وكذلك الحال فى الصوم وفى الحج ، فلا غرابة أن يكون فى الرسول علامات جسدية مع الدلالات الروحية التى ينفرد بها ، وقد قال كتاب السيرة إن من العلامات الجسدية خاتم النبوة والحمرة الدائمة فى عينيه ، فهل كان ذلك محض اختراع ؟

لو سلمنا بأن كتاب السيرة المسلمين المتحمسين لنبيهم هم الذين اخترعوا حكاية خاتم النبوة وأنه من نسج خيالهم لإثبات سلطان نبيهم ، فمن الذى دسها فى التوراة ؟ إن أشعيا يقول فى إحدى بشاراته بالنبى الأمى الذى سيبعث من الأمم لا من بنى إسرائيل : « وأثر سلطانه على كتفيه » إشارة إلى خاتم النبوة ولا ريب ، فخاتم النبوة حقيقة واقعة ليس من نسيج خيال أتباع محمد المتحمسين له المؤمنين برسالته .

إن الملوك أو رؤساء الجمهوريات إذا ما بعثوا سفيرا إلى دولة من الدول زودوه بأوراق اعتماده الدالة على سفارته ، أوَيستكثر على رب الملوك ورؤساء الجمهوريات وحكام الأرض جميعا أن يزود رسوله بأوراق اعتماده ؟! لقد كان خاتم النبوة أوراق اعتماد محمد صلى الله عليه وسلم من رب العالمين .

وأثار المتشككون والطاعنون فى الإسلام موضوع معرفة الرسول الكريم اليهودية والنصرانية قبل البعثة وتأثره بتعاليم الديانتين فى رسالته ، وأحب أن أمضى مع المتشككين والطاعنين فى صدق محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر الشوط فأعترف بأنه من الجائز أن يكون قد عرف اليهودية والمسيحية بل

والمجوسية أيضا ، فهند بن أبي هالة ، ابن زوجته خديجة الذى تربى فى حجره كان أبوه من تميم وكانت تميم تدين بالمجوسية ، فجائز أن يكون قد عرف المجوسية كما عرف الحنيفية واليهودية والنصرانية والصابئة من قبل ، فهل يقوده ذلك العلم إلى أن ينكر أخطاء تلك الديانات وما دس عليها من زيف وما أصابها من تبديل ، وأن يقوم اعوجاجها ويسمو بها من الشرك الذى يهبط بالبشرية إلى نقاء التوحيد ، ويعيد إلى الإنسانية كرامتها ؟!

كان ورقة بن نوفل يعرف اليهودية والنصرانية ، وكان عبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث على دين النصارى ، وكان أمية بن أبى الصلت يطمع فى الرسالة ، وكان آلاف من الكهان والأحبار والرهبان فى صوامعهم قد انقطعوا للعبادة ، فماذا فعل كل هؤلاء بقراءاتهم فى الكتب ودراستهم للأديان ؟

ولماذا نذهب بعيدا وأمامنا حاضر واقعنا ، إننا فى عصرنا هذا نعرف اليهودية والنصرانية والإسلام ، وفلسفات اليونان والآراء الفلسفية قديمها وحديثها ، ونزعم أن قلوبنا قد أشرقت بنور اليقين ، فهل يستطيع مصلح مهما أوتى من فصاحة أن يعيد النساء إلى الحجاب ، وأن يقضى على التبرج وطغيان المادية وعبادة المال والربا والبغى والبغاء ، والغيبة والنميمة والتجسس ، وأكل الأغنياء للفقراء وهضم الأقوياء حقوق الضعفاء ، وانتشال البشرية من وادى الدموع ؟!

إن طرق الإعلام الحديثة من صحافة وإذاعة وتليفزيون فى خدمه أى مصلح فى هذا العصر الذى تلاشت فيه المسافات ، وحرية الإصلاح وإبداء الرأى مكفولة لا عصبية لآلهة ولا احترام لمعتقدات الآباء ولا ارتباط بتقاليد الأسرة أو القبيلة ، فهل يستطيع إنسان وحده ، وكل وسائل الاتصال هذه بين يديه مهما أوتى من علم ، أن يصلح الضمائر والنفوس وأن يعيد إلى قطيع

البشرية إنسانيته وروحانيته ؟

إن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ما كان بقادر وحده وإن عرف اليهودية والنصرانية والمجوسية والحنيفية ودين الصابئة أن يغير وأن يجعل فجر التاريخ الجديد يشرق على الوجود .

لا شك أن ما حدث فى جزيرة العرب بعد الدعوة المحمدية معجزة لا يقدر عليها بشر مهما أوتى من علم وفصاحة وبيان ، ولو أنفق ما فى الأرض جميعا ما ألف بين قلوب أولئك الذين كانت العداوة والبغضاء تموج فى نفوسهم . إنها معجزة أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم بتأييد من الله ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

إن فى القرآن بعض ما فى التوراة وما فى الإنجيل ، وسبب ذلك أن النبع الإلهى الذى فاض على موسى وعيسى هو نفس النبع الذى فاض من كرمه على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق واحد ما بين ما فى القرآن وما فى الكتاب المقدس ، إن القرآن قد أعاد الإسلام الذى بشر به موسى نقيا ناصعا ، وأعاد الإسلام الذى دعا إليه السيد المسيح قويما قيما كما كان ، وقد أزال عن العقيدتين أساطير الشعوب وفلسفة المتفلسفين ، تلك الفلسفة التى انحرفت بديانات التوحيد إلى الشرك .

وقد صدق السيد المسيح حينما قال : « إن انطلاقى خير لكم ، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفراقليط ، فإذا انطلقت أرسلت به إليكم ، فإذا جاء فند أهل العلم » فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم وفند أقوال علماء اليهود والنصارى فيما أطبقوا عليه من أن المسيح عليه السلام قتل وصلب بعد أن عذب ، وما انفرد به علماء اليهود من بهتانهم فى الطعن على السيد المسيح ، وما انفرد به علماء النصارى من الدعوة إلى ألوهية المسيح .

وصدق حينما قال : « الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلمهم بـه ، ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى وبخ العلماء من أهل الكتاب على كتمان الحق ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، وقولهم المسيح ابن الله ، والمسيح هو الله ، وبيع الدين بالثمن البخس من عرض الدنيا ، وهو الذى أخبر بالحوادث والغيوب .

ثم محمد صلى الله عليه وسلم فى كل أفعاله عن أنه ربيب العناية الإلٰهية ، فهو ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا قوال بالهجر والخنى ، سدده ربه بكل جميل ، ووهب له كل خلق كريم ، وجعل السكينة على لسانه ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفـو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، رفع الله به من الوضيعة ، وأغنى به من العيلة ، وهدى به من الضلالة ، وألف به بين قلوب متفرقة ، وأهواء مختلفة وأنزل على جبال العرب نورا ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ولم يكتف المستشرقون بالطعن فى محمد والتشكيك فى رسالته ، بل أنكروا وحدة اللغة العربية قبل الإسلام فى عصر المعلقات والقصائد الجاهلية ، وقد كانت وحدة اللغة من مقدمات الدعوة الإسلامية التى خاطبت العرب جميعا بلسان يعرفونه من قبل عصر الإسلام ، فجاء بعض المستشرقين بوهم من أوهامهم يشككون فى وحدة هذه اللغة ، وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسان القرشيين والمكيين ، وزعموا أن وحـدة اللغـة ممتنعـة لاختلاف لسان العدنانيين والقحطانيين.

وخير رد على هذا الزعم ما كتبه الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « مطلع النور » قال :

« .. ولكن اليهود الذين وفدوا إلى الحجاز بعد البعثة النبوية كان منهم كتاب ومؤرخون مطلعون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العبرانيين ، وكان منهم كعب بن ماتع الحميرى الملقب بكعب الأحبار ، وكان منهم وهب بن منبه الصنعانى الذى قال ابن خلكان إنه رأى كتابا له عن ملوك حمير وأخبارهم فى مجلد واحد ، ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد .

وقد كان كعب ووهب من المغربين فى طلب النوادرفلم يذكروا لنا زمنا شهداه أو شهده آباؤهم وأجدادهم كانت فيه لغة قريش مجهولة فى اليمن أو ما جاورها . وأدنى من ذلك إلى عصر البعثة قدوم الوفود من اليمن إلى الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز إلى اليمن بإذن النبى عليه السلام : ومنهم معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب ومن كان يصحبهما فى عمل الولاية والتعليم ، فلم نسمع أن وفود اليمن على النبى جهلوا ما سمعوه أو نطقوا بكلام لا يفهمه أهل الحجاز ، وهؤلاء قد لقنوا لغاتهم من آبائهم فلا يفوتهم ما اختلف من كلامهم إذا كان ثمة خلاف .

وأقدم من البعثة المحمدية رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، وليس فى أخبار هذه الرحلات إلماع إلى تفاهم قريش مع أهل اليمن بلغة غير اللغة القرشية فى الجيل السابق للبعثة والجيل الذى تقدمه ، ومن البعيد جدا أن يغيب عن ذاكرة العربى حديث جيلين قبل جيله ، وقد كانت أخبارهم ورواياتهم وأنسابهم كلها قائمة على الحفظ وتسلسل الرواية والإسناد من جيل إلى جيل ، فإذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة على مدى الذاكرة فى عصر البعثة المحمدية ، فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لهذا الشيوع وهذا التعميم وترجع بنا هذه الأجيال إلى

أقدم الأوقات التى أسند إليها نظم المعلقات ، فلا تستغرب نظمها باللغة التى يفهمها العرب من الجنوب إلى الشمال .

ولقد سمع النبى عليه السلام قصيدة كعب بن زهير ، وقد نظمها ولا شك بلغة أبيه زهير بن أبى سلمى ، وكان زهير من أسرة شاعرة مسبوقا إلى النظم بتلك اللغة ، ولا يعقل أن يكون التغير فى لغة النظم قد طرأ عليهم فجأة فى مدى سنوات معدودات ، فإذا بلغنا بالمعلقات عصر هرم بن سنان — ممدوح زهير — وما تقدم بقليل ، فليس من شعراء المعلقات من هو أقدم من ذلك بزمن طويل يمتنع فيه التوافق على النظم الواحد واللغة الواحدة ، ولا بد أن نذكر هنا أن أوزان العروض لا تخلق بين يوم وليلة ، وأن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدا قبل عصر الشاعرين ونظمت فيهما قصائد جيل أو جيلين على الأقل قبل ذلك التاريخ ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعرا غير شعر اللغة الحجازية لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومعناه .

ومن عسف القول ولا ريب أن نجزم بامتناع هجرة اليمانية إلى ما وراء حدود اليمن فى الجزيرة العربية ، فإذا جاز أن تهاجر منهم قبيلة واحدة فحكم القبيلة فى مسألة اللغة كحكم القبائل العشر أو العشرين . ولمن شاء أن ينكر نسبة البكريين أو التغلبيين أو الغساسنة إلى اليمن مستندا إلى دليل أو غير مستند إلى دليل على الإطلاق ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبتهم إلى كل أصل معروف فى الجزيرة العربية ، ولا يأتى لهم بأصل غير تلك الأصول .

وإن من ينكر انتقال قوم من اليمن إلى ما وراءها لينكر أمرا غير قابل للإنكار فى الجزيرة العربية التى لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارىء الخصب والجدب والغلبة والهزيمة ، وما من باحث ذى روية يعتسف البت بذلك الإنكار ثم يجزم بحصر اليمانية فى

حدودهم منذ أحاطت بهم تلك الحدود ، فمن العسف أن يقال إن اليمانية لم تبرح اليمن قط فى العصور التى سبقت البعثة المحمدية ، وليس من العسف فى شيء أن يقال إنها برحتها على حسب الطوارىء وعوامل الجو والتاريخ ، ولا داعى بعد ذلك لاستغراب التوافق بين اليمانية وأبناء الحجاز وتهامة وسائر الجزيرة فى لهجة من اللهجات ، فما دمنا نقدر بحكم البداهة أن اليمانية وجدوا فى الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون فى جوارهم فقد زالت المشكلة ولم تكن هناك فى الحقيقة مشكلة تزال .

وليس أكثر من العسف الذى يلجأ إليه منكرو الوحدة فى لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية بجيلين أو ثلاثة أجيال ، وأن اعتساف التاريخ هنا لأهون فى رأينا من اعتساف الفروض الأدبية التى لا تقبل التصديق ، فما من قارىء للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت إلينا ويفلحون فى ذلك التلفيق ، إذ معنى ذلك « أولا » أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التى بلغها امرؤ القيس والنابغة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر فى الجاهلية ، ومعنى ذلك « ثانيا » أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الأمزجة والأعمار والملكات الأدبية ، فينظمون بمزاج الشاب طرفة ومزاج الشيخ زهير ومزاج العربيد الغزل امرىء القيس ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد ، ويتحرون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ويجمعون له القصائد على نمط واحد فى الديوان الذى ينسب إليه ، ومعنى ذلك « ثالثا » أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند أحد من الشعراء ، ثم يفرط الرواة فى سمعتها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل ، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان فضلا عن إساغته بغير برهان ولغير سبب إلا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين ، وإن

تصديق النقائض الجاهلية جميعا لأهون من تصديق هذه النقيضة التى يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال .

وشتان — مع هذا — النقائض التى يستدعيها العقل ويبحث عنها إذا تفقدها فلم يجدها ، والنقائض التى يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم .

فهذه النقائض التى تحاول أن تشككنا فى وحدة اللغة العربية قبل الإسلام يرفضها العقل ، لأن قبولها يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جدير بالإقناع .

فممايتكلفه العقل إذا تقبلها أن يجزم — كما تقدم — بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع ، وأن يجزم ببقاء لغة قحطانية تناظر اللغة القرشية فى الجيلين السابقين للبعثة المحمدية ، غير معتمد على أثر فى ذاكرة الأحياء ولا فى ورق محفوظ ، وأن يلغى كل ما توارثه العرب عن أنسابهم وأسلافهم وهم أمة تقوم مفاخرها وعلاقاتها على الأنساب وبقاء الأسلاف ، وأن يفترض وجود الرواة المتآمرين على الانتحال بتلك الملكة التى تنظم أبلغ الشعر وتنوعه على حسب الأمزجة والدواعى النفسية والأعمار ، وأن يفهم أن القول المنتحل مقصور على الأسانيد العربية مبطل لمراجعها دون غيرها من مراجع الأمم التى صح عندها الكثير مما يخالفه الانتحال والكذب الصريح .

ومن النقائض التى يستدعيها العقل ويستلزمها ويتخذ حجة لثبوت الواقع فى جملته أن يحدث الاختلاف فى الرواية وأن يتعذر فيها الإجماع بين الرواة ، فإن العقل لا يصدق الأقاويل التى يتفرق رواتها ويعول أصحابها على الذاكرة والإسناد ، ثم تأتى متفقة فى الجملة والتفصيل ، ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الأهواء للاضطراب والحذف والإضافة عن قصد أو بفعل النسيان والإهمال .

فاختلاف الرواة إذن سبب من أسباب التصديق واتفاقهم يدعو إلى الشك أو

التكذيب .

وقد نسمع النقيضين فى هذه الحالة فنرفضهما ولا نرفض لباب الخبر ومغزاه ، فقد سمعنا أن عمرو بن كلثوم أو الحارث بن حلزة ألقى قصيدته فى وقفة واحدة ، وسمعنا أن زهير بن أبى سلمى كان ينظم قصيدته فى الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحوليات ، وقد نسقط هذه المبالغة كما نسقط الشعر الذى بولغ فى وقت نظمه بين أقصى الطرفين .

وربما وقفنا على روايتين نصدقهما الآن عند النظر إلى الحقائق العصرية ، ونعلم أن تلفيقهما فى الزمن الماضى جد عسير ولو أراده الملفقون ، فما يروون عن امرىء القيس أنه تعجب من إعراض النساء عنه مع وسامته ومكانته ، وسأل إحدى النساء فى ذلك فقالت له : نعم . ولكن لك عرقا كأنه عرق كلب . ثم نقرأ أخبار وفاته فنعلم منها أنه أصيب قبل موته بقروح تساقط منها جلده ، وسمى الحلة التى كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح . ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدى لفساد رائحة العرق الذى يفرزه ، وأنه لم يزل حتى استشرى به الفساد فى رحلته القصية فظهر فى تلك القروح ، ويقترن ذلك بنوادره مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر علقمة عليه فى عينى امرأته ، فلا يسهل على الناظر فى جميع هذه الأخبار أن ينسب تلفيقها عمدا إلى راوية واحد ، ولا يسهل عليه أن يتلقاها متفرقة ثم يجردها من الدلالة التى تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين .

وربما كذب الكثير من أخبار طرفة و لم تكذب قصيدته التى تنم فى جملتها على خلائقة التى تنوب عن تلك الأخبار ، وتغنينا عن محاسبة الرواة على التصديق أو على التكذيب .

وهذه القرائن الأدبية هى التى يغفل عنها المستشرقون ولا يفطنون لها لأنهم

ينظرون فى النصوص والأسناد ولا ينظرون فى الأدب ولا فى روح الكلام ومضامين التعبير ، ومنهم من لا يعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التى تلقنها فى حجر أمه ، فليست معرفته باللغة العربية كافلة له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق ، ومنهم علامة تصدى لوضع المعجمات الكبرى فى اللغة العربية فكتب فى مادة « أخذ » أنها تأتى بمعنى نام لقوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » .. ومنهم من يترجم « أبا بكر » بأبى العذراء لأنه كان والد الزوجة التى بنى بها النبى عليه السلام وهى عذراء ، ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونة أو مصر السعيدةEgypt F elix قياسا على اليمن التى تسمى العربية السعيدة Arabis Felix ومنهم من يقول إن التضحية تدل على عبادة الشمس لأنها فى الضحى .. وما هى فى وضعها إلا كالتغدية فى الغداة والتعشية فى العشاء والسحور من السحر إلى غير ذلك من توقيت الوجبات والذبائح بإيقاتها فى الليل والنهار .. ومنهم من يحسب أن القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذى يراد معناه[1] .

....

....

والمعهود فى جماعة المستشرقين أن الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية ، لأنهم يخدمون سياسة المستعمرين أو سياسة المبشرين المحترفين أو ينظرون فى بحوثهم نظرة الغربى الذى ينظر إلى الشرق نظرة المتعالى عليه فى حاضره وماضيه غير أنهم ما عدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية ولا يتوسعون فى النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التى

---

(١) حديث عن استحالة تزوير الأدب الجاهلى يرجع إليه فى (مطلع النور) .

يلمسها شاهد الحس لمسا ، فلا تخرج عنده من حدود ما يشتبه أو ينفيه من وقائع العيان والسماع .

فغاية ما يقصدون إليه من أمر اللغة أنهم يلتمسون الأسانيد المعتمدة عند أهلها فيأخذونها بالشك والتجريح ، وأنهم يهدمون الدعائم القائمة ليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه وكل إنكار ينكرونه من أصول اليقين والاطمئنان . وتشككهم فى أسانيد اللغة من هذا القبيل لا يعدونه إلى مطلب بعيد من مطالب الإحاطة والاستيعاب ، فهو كالمنازع الذى ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها إلى أركان الدار وما فى الدار . وتقديرهم لمسألة الشك فى وحدة اللغة أقل جدا من قدرها الصحيح فى مقدمات الدعوة المحمدية ، إذ هى أصلح هذه المقومات للدلالة على ما بعدها ، وأصدق فى التمهيد لنتائجها من مقدمات السياسة والأحداث الاجتماعية ، لأنها المقدمة الوحيدة التى تمشى فى طريق الدعوة المحمدية مسابقة لها مترقبة لأوانها ولا تكون الدعوة المحمدية بالنسبة لها كأنها رد الفعل الذى يقاوم ما قبله ويجرى معه مجرى النقيض من النقيض .

ويقول الأستاذ العقاد : « ومن فهامة المستشرقين أنهم لا يختارون من تاريخ العرب مطعنا يصيبونه غير اللغة والأنساب ، وكلهم يتحذلقون على العالم فى شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربى والإسلامى من أقدم عهوده ، ثم يأتى العلم فيثبت بالكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء الزاعمين ، حتى لقد أصبح التخريف حقا لهؤلاء المحققين الذين لا يعرفون من التحقيق إلا اتهام كل رواية عربية أو إسلامية بالتحريف.

فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عادا وثمودا وأنكر الكوارث التى أصابتهم بغير حجة إلا أنه يحسب المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفى

الجزاف ، فما لبثوا طويلا حين تبين لهم أن عادا وثمودا مذكورتان فى تاريخ بطليموس ، وأن اسم عاد مقرون باسم إرم فى كتب اليونان فهم يكتبونها « أدراميت » ، ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد إرم ذات العماد .. وعثر المنقب موزيل التشيكى صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار هيكل عند « مدين » منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية ، وفيه إشارة إلى قبائل « ثمود » .

واختلف رواة السيرة والإخباريون فى عدد الذكور من أبناء محمد صلى الله عليه وسلم ، فالذى فى السيرة لابن اسحاق « أكبر بنيه القاسم ثم الطيب ثم الطاهر .. فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه » .

وقال الطبرى : « فولدت لرسول الله ثمانية : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة » وجاء فى « الاستيعاب » : « وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن ، فهن زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم ، وأجمعوا أنها ولدت له ابنا يسمى القاسم وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم ، هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم » .

وقال معمر عن ابن شهاب : « زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر .. » .

وفى الروض الآنف ، رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له : القاسم وعبد الله وهو الطاهر والطيب ، سمى بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمى به أولا عبد الله » .

وفى نسب قريش : «فولد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : القاسم وهو أكبر ولده ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية » .

وفى جمهرة أنساب العرب : « ولم يعقب عليه السلام ذكرا إلا إبراهيم بن رسول الله ، مات صغيرا لم يستكمل عامين فى حياة النبى عليه السلام ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الولد سوى إبراهيم : القاسم وآخر اختلف فى اسمه فقيل : الطاهر وقيل : عبد الله .. ماتوا صغارا جدا ، وكان له عليه السلام من البنات : زينب أكبرهن وتاليتها رقية وتاليتها فاطمة وتاليتها أم كلثوم ، أم جميع ولده — حاشا إبراهيم — خديجة أم المؤمنين » .

وتقول الدكتورة بنت الشاطىء فى كتابها « بنات النبى » : « ليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فما يختص بعدد أبناء محمد ، فقد يقال إن اللقب التبس بالاسم وجعل الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم وعبد الله فهم أربعة ، وما الطيب والطاهر — على الأرجح — سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون للنبى من خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المشهور عند جمهور المسلمين وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل تلك الروايات » .

وأعتقد أن زينب كانت أكبر أولاد محمد صلى الله عليه وسلم ، وتاليتها رقية ، ولا يمكن أن تكون رقية أصغر أبنائه ، لأن زينب ورقية كانتا مخطوبتين لعتبة ومعتب ابنى أبى لهب قبل الرسالة وقد فسخت الخطبة بعد أن نزلت : « تبت يدا أبى لهب وتب .. » فكيف تكون مخطوبة فى ذلك الوقت وتكون أصغر أبنائه ، وأصغر أبنائه كانت تبلغ من العمر خمس سنوات أو ست يوم مبعثه صلى الله عليه وسلم .

وأعتقد أن فاطمة الزهراء هى صغرى بناته ، فهى التى كانت من بناته فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم وحدها بعد موت خديجة ، حتى أطلق عليها « أم النبى » لرعايتها به والسهر عليه . أما الذين قالوا إن القاسم أكبر أبنائه فقد

بنوا ذلك على أن سن السيدة خديجة عند زواجها من النبى صلى الله عليه وسلم كانت أربعين سنة ، فوجدوا أن مولد القاسم قبيل الرسالة ومولد عبد الله بعد الرسالة يكاد يكون مستحيلا ، أما وقد أخذت بالرأى القائل أن سن خديجة كانت فى الثامنة والعشرين عند الزواج فلا غرابة ولا استحالة أن تلد القاسم قبيل البعثة وأن تلد عبد الله بعد البعثة وأن يلقب بالطاهر والطيب لذلك ، لأن الله أكرمه بأن يولد فى الإسلام وعلى ذلك يمكن ترتيب أبناء محمد صلى الله عليه وسلم على النحو التالى :

زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء والقاسم وعبد الله .

وقد كثر فى هذا الجزء استخدام أسماء « القلب والنفس والروح والعقل » وسيكثر استخدامها فى الأجزاء التالية فى دقة ، وأن خير تمييز بينها ما قاله الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين ، قال :

لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين ، أحدهما : اللحم الصنوبرى الشكل المودع على الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف ، وذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية ، وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك ، فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين .

والمعنى الثانى هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة من القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته ، فإن تعلقوا

به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين : أحدهما متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة ، والثانى أن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره أن يتكلم فيه .

والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة ، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها .

اللفظ الثانى « الروح » وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت ، فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ، فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا ، المعنى الثانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله : قل الروح من أمر ربى ، وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته .

اللفظ الثالث « النفس » وهو أيضا مشترك بين معان ، ويتعلق بغرضنا منه

معنيان :

أحدهما أن يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لا بد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك .

المعنى الثانى هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت : النفس المطمئنة . قال الله تعالى فى مثلها : « يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . »(١) والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى ، فإنها مبعدة عن الله وهى من الشيطان ، وإذا لم يتم سكونها ، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت : النفس اللوامة ، لأنها تلوم صاحبها عن تقصيره فى عبادة مولاه ، قال الله تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة »(٢) . وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات وداعى الشيطان ، سميت : النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز : « وما أبرئ نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء »(٣) . وقد يجوز أن يقال المراد

---

(١) الفجر ٢٧ — ٢٨

(٢) القيامة ٢

(٣) يوسف ٥٣ .

بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول ، فإذا النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع « العقل » وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب ، والثانى أنه قد يطلق ويراد به المدرك المعلوم ، فيكون هو القلب ، أعنى تلك اللطيفة ، ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق به محل الإدراك أعنى المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : أول ما خلق الله العقل ، فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لا بد أن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ، ولأنه لا يمكن الخطاب معه ، وفى الخبر أنه قال له تعالى : أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، فإذا قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة ، وهى القلب الجسمانى والروح الجسمانى والنفس الشهوانية والعلوم ، فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس وهى اللطيفة العالمة المدركة فى الإنسان ، والألفاظ الأربعة فى جملتها تتوارد عليها ، فالمعانى خمسة والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين .

وقبل أن أختتم هذا التذييل ، أحب أن أوضح ما أجريته على قصة سلمان الفارسى من تعديل ، فقد ذكر كتاب السيرة قصة طويلة عن إسلام سلمان ، قيل إنها رويت على لسانه ، وسأورد هنا ما جاء فى السيرة النبوية لابن هشام عن حديث إسلام سلمان رضى الله عنه .

قال ابن اسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن محمود

إبن لبيد عن عبد الله بن عباس ، قال : حدثني سلمان الفارسي وأنا أسمع من فيه ، قال :

كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من قرية يقال لها جَيّ وكان أبي دهقان قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل به حبه إياى حتى حبسني فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قطن النار التي يوقدها ، لا يتركها تخبو ساعة . قال : وكان لأبي ضيعة عظيمة ، فشغل فى بنيان له يوما ، فقال لى : يا بني ، إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب إليها فاطلعها وأمرنى فيها ببعض ما يريد ، ثم قال لى : ولا تحتبس عنى فإنك إن احتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتي ، وشغلتني عن كل شيء من أمرى . قال : فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبي إياى فى بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ، ورغبت فى أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن فيه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها ، ثم قلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام فرجعت إلى أبي وقد بعث فى طلبي وشغلته عن عمله كله ، فلما جئت قال : أى بنى ، أين كنت ؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال : قلت له : يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس قال : أى بنى ، ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ،.قال : قلت له : كلا والله ، إنه لخير من ديننا . قال : فخافني فجعل فى رجلى قيدا ، ثم حبسني فى بيته .

قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام

فأخبرونى بهم . قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبرونى بهم ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم ، فألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علما ؟ قالوا : الأسقف فى الكنيسة. قال : فجئته فقلت له : إنى قد رغبت فى هذا الدين ، فأحببت أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك فأتعلم منك وأصلى معك ؟ قال : ادخل . فدخلت معه . قال : وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق . قال : فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا ، قال : فقالوا لى : وما علمك بذلك ؟ قال : قلت لهم : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا عليه ، قال : فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا ، قال : فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبدا ، قال فصلبوه ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلا لا يصلى الخمس ، أرى أنه كان أفضل منه وأزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا منه . قال : فأحببته حبا لم أحبه شيئا قبله ، قال : فأقمت زمانا طويلا ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان إنى قد كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه شيئا قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : أى بنى والله ما أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه ، فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت

عليه فالحق به .

قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان ، إن فلان أوصانى عند موته أن ألحق بك ، أخبرنى أنك على أمره.فقال لى : أقم عندى ، فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان ، إن فلانا أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال يا بنى : والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين ، وهو فلان فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فأخبرته خبرى وما أمرنى به صاحبه ، فقال : أقم عندى ، فأقمت عنده فوجدته على رأى صاحبه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له : يا فلان ، إن فلانا كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : يا بنى ، والله ما أعلمه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته فإنه على أمرنا .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبرى : فقال : أقم عندى . فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه قال : ثم نزل به أمر الله تعالى فلما حضرت الوفاة قلت له: يا فلان، إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان . ثم أوصى بى فلان إلى فلان ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : أى بنى ، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه ، ولكن قد أظل زمان نبى مبعوث بدين بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين

بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

هذا هو الحديث الذى قيل إن ابن عباس سمعه من فى سلمان الفارسى ، و لم آخذ بكل الحديث كما ورد ، فالحديث لا يدل عن شخصية اعتنقت المسيحية وعرفت أسرارها وطافت المشرق والمغرب للبحث عن الحقيقة ، إنه حديث يمكن لأى راوية إسلامى فى صدر الإسلام أن يروى مثله ، و لم أنكر الحديث كله فقد أخذت صدره كما هو ، أما مسألة انتقال سلمان من رجل صالح إلى رجل صالح آخر بين كل منهما مسافات شاسعة فلم أدر حكمته ، فإذا كان سلمان يبغى دينا غير دينه فقد اهتدى إلى رجل زاهد فى الدنيا لا يرغب إلا فى الآخرة ، يعبد الله آناء الليل وأطراف النهار ، فماذا يريد بعد ذلك ؟ إذا كان ذلك الرجل لم يمنحه كل ما يريد من العلم وكان متعطشا إلى المعرفة ألم يكن فى صاحب صفين الكفاية ما دام على أمر صاحبه ، وإذا كان لا يزال متعطشا إلى المعرفة بعد موت صاحب صفين ، فلماذا لم يستقر فى عمورية إذا كان النور قد أشرق فى قلبه ؟

اننى لم أشك فى الرحلة و لم أحاول أن ألوى خط سيره ، كل ما فعلته أننى جعلت غرض رحيله غير الغرض الوارد فى الحديث ، فلو كان سلمان قد اهتدى إلى جوهر الحقيقة لما رحل ليبحث عنها ، فلم يطمئن قلبه إلى كل ما سمعه فى الموصل وفى نصيبين وفى عمورية ، فاستمر فى سياحته ليبلغ غايته : وجه الله ذى الجلال والاكرام .

وقد سردت فى أثناء رحلته ما كان فى إيران من أحداث فى ذلك الوقت وبعض ما كان يدور بين النساطرة واليعاقبة ، ولابد أن سلمان قد سمع ذلك الجدال وقد يكون اشترك فيه فما من مسيحى فى ذلك الوقت لم يشترك فى

ذلك الحوار المشبوب .

وأرجو أن أكون قد وفقت ، وإن جانبني الصواب فأدعو الله أن يغفر لى ، فما أطمع إلا فى أن أدنو من الحقيقة وروح العصر الذى أدون أحداثه ، معتمدا على الحقائق التى وصل إليها علم التاريخ فى هذا الزمن الذى نعيش فيه .

القاهرة ٥/١٢/١٩٦٧

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

وَالَّذِينَ مَعَهُ

فى عشرين جزءا

١	ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ـــ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧	ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ـــ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١	ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ـــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦	ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ـــ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨	ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٣٥٦٠

الترقيم الدولى ٨ ــ ١٤٩ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧